بين أدم وحواء

كتاب مجهول للدكتور زكي مبارك

في يناير 1942 بدأ د.زكي مبارك ينشر سلسة مقالات في مجلة الرسالة تحت عنوان «بين آدم وحواء» وذكر أنه لمؤرخ مجهول يدعى «شيث بن عربانوسي» وأنه في الأصل مخطوطة مكتوبة بالخط الكوفي وأن شيخ العروبة أحمد زكي باشا (1867-1934) قد أهدى إليه النسخة الوحيدة المخطوطة من هذا الكتاب قبل رحيله .

لكن الحقيقة بعد القراءة المتأنية المتعمقة لفصول هذا الكتاب الذي نشر على حلقات بمجلة الرسالة وباعتباري متخصصا في أدب زكي مبارك وملما بتفصيلات سيرته الحياتية وسيرته الأدبية والعلمية تأكد لي أن هذا الكتاب ما هو إلا أحد إبداعات زكي مبارك القصصية التي حاول من خلالها التصريح بكل مكنونات وجدانه وفكره بعد أن حوصر في تلك الحقبة بهجمات بعض المتشددين الغلاة الذين هاجموا حديثه عن الحب والجمال ومفاهيمه الفكرية الأدبية الجريئة والتي أدعوا أنها تخالف أصول الدين .

وما كان من زكي مبارك إلا أن اختلق حكاية « شيث بن عربانوس » ذلك المؤرخ المجهول ليروي لنا بأسلوبه البليغ قصة آدم وحواء وما اصطرع في نفسيهما ووجدانهما من مصاولات فكرية وأدبية وفلسفية هي في الحقيقة نتاج فكر زكي مبارك الأدبي والفلسفي والوجداني .

وتعكس فصول هذا الكتاب الفريد ثقافة زكي مبارك العميقة وسعة ثقافته في مختلف فنون الآداب والعلوم والفلسفة في الأدبين العربي والأوروبي والتي تجلت في هذه الحوارات الشيقة بين آدم وحواء والتي جمعت بين الأدب والعلم والحكمة والدين والفلسفة وعلوم الأجناس والفلك ، وكلها تعطي صورة دقيقة لفكر زكي مبارك وثقافته الموسوعية العميقة .

أفنان الجمال

كان الدكتور زكي مبارك عاشقا واله القلب قوي العاطفة قضى حياته يتقلب على سعير الوجد ووهج العاطفة، وقد طاب له أن يفصح عن سرائر روحه وأسرار قلبه فملأ الدنيا غراما وتشبيبا !..

وقد جعل حديثه عن الحب شريعة من شرائع الوجود ، فعاش إلى آخر نسمة من حياته يتشوف إلى أفنان الجمال ويغرد للحب !..

وقد أطال شاعر الحسن والجمال حديثه عن بلائه في الحب ... وكيف لا يشقى بالحب من ظل يهتف للحب ويغرد للجمال طيلة حياته !..

كان صادقا في حبه غاية الصدق وقد رسم صورا عذبة صادقة لخفقات قلبه وترانيم وجدانه...

ولكن ما رأى زكي مبارك العاشق المفتون في «الحب» ؟

رسم صورة رائعة ساحرة للحب تفصح عن نفسية مشرقة مضيئة ، تفهم الحب فهما دقيقا ، وتصوره تصويرا قل أن يتاح إلا لمحب عركه الحب ، ولمس أعماقه وسبر أغواره ، ومس شغاف قلبه !..

وهذه هي فلسفة زكي مبارك في الحب كما صورها في هذه اللوحة الشاعرية الساحرة [1].

(1) الهلال : تجاربي في الحب : أول يناير 1937 .

«الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس» .

«الحب لغة روحية بفهمها القلب عن القلب ، وتنقلها الروح إلى الروح ، وتسري نشوتها في الأفئدة ، سريان الصبا في الغصن » .

«الحب معنى نبيل ، في لفظ نبيل ، الحب فبس من الصهباء في كأس من الماس . الحب لمحة من لمحات السحر الذي يفيض به الوجود في ليلة قمراء» .

«الحب أرق وأنضر وأطيب من مطلول الأزهار ومنضور الرياحين » .

«الحب نغمة حلوة عذبة تناغي السرائر وتناجي القلوب» .

«الحب هو الكأس التي عناها سلطان العاشقين إذ يقول :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا

ونور ولا نار وروح ولا جسم

على عمره فليبك من ضاع عمره

وليس له فيها من نصيب ولا سهم

«الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ، أو بؤس يلبس ثوب النعيم» .

«الحب عاطفة عاصفة ماحقة ما يدري الرجل أهي نعمة أم نقمة ، ولا يعلم أهي هدى أم ضلال ، وإنما يعرف أنها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتدك الحبال».

«الحب هو ائتلاف روحين وامتزاج قلبين ، وانسجام نفسين» .

«الحب هو أن تذوب القسوة في كوثر الحنان ، وأن تأنس الأسود إلى فتك الظباء» .

«الحب هو أن تصير قلبا شفافا تجرحه النظرة ، وتفتنه الخطرة ، ويأسره الضلال» .

«الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب» .

«الحب هو أن تخاطر بالملك في سبيل من تحب» .

ولا شك أن هذه الصورة الشاعرية الحارة لعاطفة الحب لا يستطيع أن يرسمها إلا رجل خبر الحب وتمرس به وكانت له فيه تجارب وقصص وصولات وجولات .

***

قضى الدكتور زكي مبارك عمره في التغريد فوق أفنان الجمال وكان أديبنا العاشق المفتون رومانسيا حالما يعبد الحسن ويقدس الجمال وكان في ذلك مثل بقية أبناء جيل الثلاثينات والأربعينات يتخذون الرومانسية Romanticism ملجأ وملاذا يهربون إليها من هجير الحياة ومن مرارة الواقع الذي كانوا يعيشون فيه في تلك الحقبة ويقاسون منه .

كان كشاعر رومانسي حالم يجعل من الوجد بالحسن مروجا يتفيأ ظلها حين يلفحه الهجير في بيداء الوجود وقد شغل خياله وأوهامه وراح يتعقب الهوى والجمال أينما كانا ويتمثل الحسن في كل روض وفي كل بقعة جميلة وفي كل نسمة رقيقة يقول :

«أنا اليوم أتمثل الحسن في كل مكان .. فما مشيت في الطريق إلا افترضت أن ثراه قد تعطر في صباحه أو مسائه ببعض الأقدام اللطاف ... وما رأيت نافذة ترفرف عليها ستارة ، إلا توهمت أن هناك مليحة تداعب جمالها في نجم .. أو طلع بدر إلا تذكرت أن هناك قلوبا تخفق طربا أو حزنا لمصابيح السماء .. ولا اهتز غصن إلا انتشيت لما يذكر به من رشيقات القدود .. ولا ترنم مزهر ولا عود ، إلا تشوفت روحي إلى ما توسوس به الأوتار من ذكريات الهوى والجمال» .

وقد كان لتجارب زكي مبارك وبلائه في الحب أثر كبير في تلوين أدبه بصور نفسية متعددة .. عرف اللذة والألم وعرف الهجر والوصال وعرف سهر الليالي ومناجاة الليل وعرف الأرق والسهاد .

وكان يرى انه موكل بتتبع الجمال في كل بقعة وكل روض رغم صدود الملاح :

حسبتم هذه الدنيا
تضيق برحبها عنا
فصرتم كلما جئنا
نفرتم جهرة منا
أسأتم إذ تبرمتم
بهذا العاشق المضني
ولو أنصفتم قلتم
أديب يعبد الحسنا

***

وقد اتخذ مذهبا واضحا صريحا في الأدب وأمعن فيه ، فوقف أدبه على فن الغزل والتشبيب والكتابة في الوجدانيات ، وقد كان يحلو له أن يطلق على نفسه «أمير العشاق» .

ومن آثاره الوجدانية التي استلهمها من تجاربه المتعددة في عالم الحسن ودنيا الجمال «مدامع العشاق» و «ليلى المريضة في العراق» و «العشاق الثلاثة» وديوان «ألحان الخلود» .

وهو لا يريد إلا الصدق في تصوير العواطف والأهواء ليكون في ذلك مادة تنفع في الدراسات الأدبية والنفسية ، ويشرح مذهبه في كتابة الوجدانيات ، فيقول :

«إن حديثي عن الحب صار مذهبا أدبيا ، أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء .. وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان » .

«نحن لا نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود . وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟ وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟» .

«الحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء ... وهو يساور قلوب الجنود ، في أصعب أوقات الحروب . والجندي الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبدا للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي ، لأن الوطن لا يغلو إلا في صدور أرباب القلوب» .

«الحب جده جد وهزله جد ولا يتجاهل هذه العاطفة النبيلة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ في تكوين الوجود» .

«وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب؟»

«إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس ، قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد ، يوم كان لنا شعراء لا يعترفون بغير أوتار القلوب . فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية ، وأتعقب أخباره وآثاره في كل ما أرى وأسمع» .

إن قوة العاطفة عند شاعر الحسن والجمال هي التي أملت هذه الأحاديث الوجدانية الصادقة ومنحتها الجمال والأصالة والعذوبة بحيث يعد هذا الأدب من أعمق وأجمل ما كتب أديبنا العاشق حتى بعد أن جاوز طور الشباب . فقد ظل شاب القلب والروح حتى آخر نسمة في حياته .

وأنت جميل تحب الجمال

أطال زكي مبارك حديثه عن تجاربه الوجدانية وأفصح عن مشاعره وافتتانه بصور الحسن وبدائع الجمال . ولقد أفصح عن سرائره الوجدانية غاية الإفصاح وأصدقه وملأ الدنيا غراما وتشبيبًا .

ولم يكن له إلا مأرب واحد من الجمال هو درس الطبائع والغرائز والميول

ليخرج من ذلك بمحصول فلسفي ينفع في إذكاء الدراسات الأدبية والفلسفية فضلا عن أنه كان يريد تشريح عاطفة الحب تشريحا أدبيا وجدانيا وإمداد اللغة العربية بثروة نفيسة من المشاعر والعواطف الإنسانية الرفيعة وخلق البشاشة في نفوس الشباب وكان لمذهبه الأدبي الصريح الذي تحرر فيه من القيود والأغلال آثارا مريرة فهوجم بعنف واتهم بأشنع التهم وأقساها . لقد أراد أن يثبت كذب الادعاء بأن شعراء أوروبا هم الذين تفردوا وحدهم بإجادة القول في الوجدانيات فألف كتاب «مدامع العشاق» ليكون شاهدا على سبق العبقرية العربية إلى شرح مآسي الأرواح والقلوب . كما ساءه أن يقال أن الكاتب الفرنسي الوجداني «راسين» هو أعظم من شرح عاطفة الحب فألف كتاب «ليلى المريضة في العراق» ليقيم الدليل على أن في كتاب اللغة العربية من يتفوق أظهر التفوق على راسين .

وقد صار حديثه عن الحب مذهبا أدبيا يشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء وكان يقصد من وراء ذلك أيضا أن يخلق جوا من البشاشة يدفع به ظلمات الزمان .

وكانت له فلسفة طريفة في تغنيه بالجمال ، فقد كان يرى أنه موكل بتتبع الجمال وأن بينه وبين الله عهدا وميثاقا أن يقضي العمر ساجعا فوق أفنان الجمال وأن يظل سادنا في معبد الحسن والجمال .

وكان يرى –كفلسفة الكثير من أدباء الوجدان والعاطفة– أنه يتقرب إلى الله بعبادة صور الحسن وبدائع الجمال ، فكان يردد كثيرا قول الشاعر القديم المفتون:

خلقت الجمال لنا فتنة
وقلت لنا يا عباد اتقوه
وأنت جميل تحب الجمال
فكيف عبادك لا يعشقوه

وكان الكثير من الشعراء الرومانسيين يتخذون من هذه الفلسفة في عبادة الجمال مذهبا ومن هؤلاء شاعر ليالي الهرم ، صالح جودت :

سجدت لفتنتها واتخذت
شفيعي إلى الله تلك العيون
أنا صبوتي صلوات له
ولكن قومك لا يعلمون

ويقول الملاح التائه، علي محمود طه :

يارب صنعك كله فتن
أين الجمال وكيف مطرحي
إني عبدتك في جنى شفة
ويد ووجه مشرق الوضح

وكتب زكي مبارك الكثير من القصائد والمقالات حول هذا المعنى ومن ذلك قوله :

الحسن صنع يديك أبدعته أنت
به سموت إليك فعرفت من أنت

***

ولكن إيغاله في الحديث عن الحب والجمال وتغنيه بهوى ليلاته يعرضه لأقاويل وأراجيف فيشعر بالحزن والمرارة فكتب يقول :

«لقد جعلت الحديث عن الحب شريعة من الشرائع .. هل أحسنت؟ هل أسأت ؟»

«لا أعرف بالضبط ... ولكن قلبي يحدثني بأنني كنت من المسرفين ، أتوهم حينا أنني أخدم لغتي بهذه الأحاديث . وأعتقد أحيانا أنني أهدم الأخلاق بهذه الأحاديث ... أحب أن أعرف نفسي ، فهل أستطيع أن أعرف نفسي ؟ هيهات!.. »

«لو كنت رجلا فاسقا لعرفت الحدود وانتهيت ... ولكني رجل عفيف ... وهنا تظهر دقة الإشكال ... ومن الذي يصدق أنني رجل عفيف وقد ملأت الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات»!..

وهنا يكمن سر مأساة زكي مبارك ... الخلط بين زكي مبارك الإنسان المحافظ وزكي مبارك الكاتب المتحرر .

بين آدم وحواء

في يناير عام 1942 بدأ الدكتور زكي مبارك ينشر سلسلة من المقالات المثيرة للجدل تحت عنوان «بين آدم وحواء» وكما قال «للأدب والتاريخ» في مجلة «الرسالة» يعرض فيها كتابا لمؤرخ مجهول .

وذكر أن هذا الكتاب الغريب «بين آدم وحواء» المليء بالصور الشيقة والطريفة والذي يفصل قصة آدم وحواء في الجنة من تأليف المؤرخ المجهول «شيث بن عربانوس» .

وذكر أن شيخ العروبة أحمد زكي باشا كان قد أهداه له عام 1933 ، بعد أن دارت بينهما عدة مساجلات عنيفة انتهت بالصلح . وعندما زار الدكتور زكي مبارك شيخ العروبة بدار العروبة قال له أحمد زكي باشا مرحبا :

«الجائزة العظمى لمن كان في مثل أدبك أن تهدى إليك النسخة الوحيدة من كتاب «شيث بن عربانوس» .

ثم يذكر زكي مبارك أن أحمد زكي باشا ابتهج عندما رأى زكي مبارك يقرأ الخط الكوفي بلا عناء ويضيف مبارك أنه يجيد قراءة الخط السنسكريتي أيضا . ثم يذكر مبارك أنه قد عزم على تلخيصه ولكن قبل أن يبدأ في ذلك يسجل انه غير

مطمئن إلى أنه ألف في العصر الذي تلا الطوفان ويضيف إلى ذلك أن المصادر التي تحت يده تتحدث عن شيث بن عربانوس ولم يسمع أن اسمه ورد في كتب المستشرقين ثم يتساءل زكي مبارك عن الكيفية التي حصل بها زكي باشا على هذا الكتاب الغريب ويقول أنه كان في النية أن يوجه له هذا السؤال لولا أن المنية عاجلت زكي باشا لتطول الحيرة في مصدر هذا السفر الغريب !..

***

ولكن ما حقيقة كتاب «بين آدم وحواء» ؟

وما حديث ذلك المؤرخ المجهول ؟!

إن هناك عوامل دعت زكي مبارك لرواية هذه القصة لكي يستطيع كتابة ما يجول بصدره متحررا من تربص أعدائه وخصومه ...

كان زكي مبارك في تلك الحقبة «في بداية الأربعينات» في ظروف نفسية سيئة فقد كانت له خصومات عنيفة وحادة مع رؤسائه في وزارة المعارف وكانت له معارك ومساجلات مع كل الأدباء والصحفيين ورجال السياسة تقريبا بسبب صراحته العارية عن النفاق وعرامته وحدته في النقد .

وكان يعاني من ظروف هجر وغدر من بعض ليلاته في مصر الجديدة ، والزمالك وحلوان .

وكان بعض خصومه من المتزمتين الذين يأكلون السحت باسم الدين والأخلاق يتحينون الفرص لطعنه والتشهير به ويحاولون أن يجدوا فيما يكتب سلاحا ليحطموه .. وكانت كل كلمة يكتبها بقصد شريف تؤول بطريقة تتسم بالتحامل والتعنت .

فكيف يخرج زكي مبارك من هذا المأزق ؟

هل يمضي في طريقة ليترك الفرصة لخصومه لكي يشهروا به ويحطموه ؟

وجد أن أسلم طريق هو اللجوء لأسلوب الفن الرمزي لتسجيل أفكاره وآرائه في مختلف شئون الحياة والفكر المجتمع . وكانت مشاعره بالنسبة للمرأة حادة وعنيفة وقاسية في تلك الحقبة فأراد تسجيلها بصراحة في تلك المقالات ...

إذن فزكي مبارك في روايته لقصة «أدم وحواء» على لسان ذلك المؤرخ المجهول شيث بن عربانوس أراد أن يكتب قصة آدم وحواء في الجنة متحررا من القيود والأغلال ليقدم صورا غريبة وفريدة في هذا الموضوع الشائك ولكنه خشى ملامة الفارغين من أهل الجمود وغضبة المتزمتين وأدعياء الأدب فذكر قصة خصومته وصلحه مع أحمد زكي باشا وقصة إهدائه ذلك السفر الغريب المكتوب بالخط الكوفي لينجو من أقلام خصومه الموتورين .

ومن الغريب أن هذه السلسة من المقالات أوقفت بأمر من وزارة المعارف وقتئذ .

وفي حقيقة الأمر أنه كتاب خيالي موهوم اختلق الدكتور زكي مبارك قصته واسم ذلك المؤرخ المجهول لعرض الآراء والأفكار التي يؤمن بها . ويقول الدكتور زكي مبارك عن هذا الكتاب :[1]

«إنه كتاب في أكثر من خمسمائة صفحة بالخط الكوفي وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدار العاديات» .

والحقيقة أن هذا الكتاب الغريب من إبداع الدكتور زكي مبارك وهو من آيات أدبه الرفيع الشيق !..

***

وقد عرض الدكتور زكي مبارك قصة آدم وحواء بطريقة قصصية مستخدما فن الحوار الذكي في عرض أفكاره ...

(1) الرسالة : للأدب والتاريخ : 23 فبراير 1942 .

ولكن ما هي المصادر التي اعتمد عليها في فكرة هذا الكتاب ؟!

أرى أن المصدر الأول لذلك هو القرآن الكريم ...

فإن كتاب الله المعجز قد عرض قصة آدم وحواء بصورة وافية في أكثر من آية كريمة وفصل نواحي عدة تعطينا صورة متكاملة عن قصة آدم وحواء في الجنة ثم الخطيئة وقصة الشجرة المحرمة والنزول إلى الأرض .

في سورة البقرة نجد هذه المعاني بهذا الأسلوب البياني المعجز الرائع ! يقول الله تعالى : [1]

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ولقد كانت قصة آدم وحواء مادة خصبة للأدباء والفنانين استلهموا منها الكثير من أعمالهم الفنية ...

وقد استوحى الملاح التائه علي محمود طه ملحمة جيدة بعنوان «الله والشاعر» يقول في بعض أبياتها : [2]

لا تعـــدني يـــارب في محنتـــي
مـــا أنـــا إلا آدمـــي شـــقي

(1) القرآن الكريم : سورة البقرة .

(2) علي محمود طه : الملاح التائه ط (1934) ص80 .

طردتنـــي بـــالأمس مـــن جنتـــي
فـاغفر لهـذا الغاضـب المحنـق

ثم يبرر لله عز وجل وعلا خطيئته فيقول :

ولم أكـــن أول مغـــرى بمـــا
أغـــرت بـــه حـــواء أو آدمـــا
أرث تمشـــى في دمـــي منهمـــا
ميراثـــــه ينـــــتظم العالمـــــا

بعد تأثر الدكتور زكي مبارك في هـذا السـفر الطريـف عـن آدم وحـواء بـالقرآن الكريم أرى أنه تأثر برسالة أبي العلاء المعري «رسالة الغفران» بصورة أقـل ورسـالة ابن شهيد عن «التوابع والزوابع» فقد كان لهما بلا شك بعض التأثير على زكي مبـارك حين كتب هذا السفر النفيس خاصة أنه كان مستوعبا لتراثنا الأدبي كله لا سيما أنه قد حاز على درجة الدكتوراة عن رسالته «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» كما انه قـد قرأ للكاتب الأمريكي مارك توين كتابه الممتـع بعنـوان «مـذكرات آدم» الـذي يتسـم بالأسلوب المرح الفكه ولكن هناك اختلافا جوهريا بين الاثنين ...

في «مذكرات آدم» ينكر آدم أن حواء مخلوقة من ضلع مـن جنبـه وفي رسـالة «بين آدم وحواء» يذكر آدم لحواء أنها مخلوقة من ضلع من جنبه .

وأدار مارك تـوين مـذكرات آدم عـلى لسـان آدم مسـتخدما أسـلوب «السـرد الذاتي» .

أما زكي مبارك فاستخدم أسلوبا قصصيا شيقا وأدار حوارا فنيا بارعا بـين آدم وحواء في سفره النفيس .

ولكن يبقى في هذا الكتاب عـن « بـين آدم وحـواء» شخصـية الـدكتور زكـي مبارك واضحة مميزة بكل سماتها وملامحها من عبادة لبدائع الحسن والجمال ...

وخفة ظله .. وسطوته واعتزازه بكرامته، ثم تلك الثورة على حواء التي تذيقه ألوانا من الصدود والهجران .

ثم العرامة والحدة والجرأة في شخصية مبارك ... إلى غير ذلك من السمات والملامح التي تميز شخصيته الفريدة ...

***

ولكن ما الظروف التي كتب فيها الدكتور زكي هذا الكتاب ؟!

بدا الدكتور زكي مبارك في كتابة هذه المقالات التي بلغت اثني عشر مقالا بدأها في يناير عام 1942 ، وانتهت في يونيه من نفس العام .

ألف الدكتور زكي مبارك هذا الكتاب في سن الخمسين ، أي بعد أن ودع أحلام الشباب وزحف نحو الكهولة وآلمه أن يرى نفسه مرغما على إغماد السيف وطى اللواء بعد أن كان فارس الميدان وله صولات وجولات ؟

ومرت به ظروف هجر وغدر من محبوباته اللاتي طالما تغزل فيهن ونظم فيهن أجمل ما كتب شعرا ونثرا .

فإن محبوبته «ليلى المريضة في الزمالك» وكانت ممثلة شهيرة أحبها أكثر من كاتب وشاعر تخلت عنه وانشغلت بأضواء السينما والمسرح والمعجبين ..

ومحبوبته «سعاد» التي كتب لها «رسائل مجنون سعاد» هجرته بلا عودة بعد زواجها . وحبه الكبير في باريس «مرجريت» لقيت مصرعها في باريس هي وطفلها موريس أثناء الحرب العالمية الثانية على يد القوات الألمانية .

وروعته هذه الصدمات والمآسي جميعا وكانت كلها عوامل تؤجج من نيران ثورته وعنفه وحزنه وألمه أثناء كتابة هذا السفر النفيس .

ولقد بدأت ملامح مأساة زكي مبارك المفكر والإنسان تظهر طلائعها في بداية الأربعينات ...

جرت عليه صراحته الكثير من المتاعب ... لقد أراد أن يغاير التقاليد ... لقد أراد أن يكون الأديب الصريح الواضح الصادق ... كره النفاق والخداع ... وبدأ التجربة ومن هنا كانت مأساته .. تعرض لمتاعب ومضايقات كثيرة في حياته واتهم بأنه من أنصار الأدب المكشوف ... كما اصطدم برؤسائه في وزارة المعارف وبسبب صراحته ووضوحه لم يأخذ حقه ..

وكان كلما ارتفعت به السن أحس بالندم على ما ضيع من وقت وجهد في البحث والدرس ، فقد حصل على ثلاث أطروحات للدكتوراه وأصبح «الدكاترة زكي مبارك» ولم يأخذ حقه فأحس بالغبن وندم على أنه ترك صحبة الفأس والمحراث وقال أنه لو أتجر بالتراب لكن أغنى الأغنياء .

وكان للمرأة أثر كبير في أزمته الأخيرة ...

فقد كان يحلم بالحب الكبير ... وبالمرأة التي يصورها بصورة مثالية في أدبه وقد افتقد ذلك في الواقع ، فقد زوجوه في سن مبكرة وهو طالب في الأزهر حين خافوا عليه أوهام العاطفة . وحدثت فجوة كبيرة بين الأديب الفنان المرهف الحس وتلك الزوجة الطيبة البسيطة ولكنه رغم ذلك ظل يفخر بزوجته الفلاحة التي حفظت قلبه مصونا . ثم بعد نضجه رأى صورة المرأة المثقفة التي يريدها ويتمناها وهنا أحس بالتناقض والاضطراب والأزمة ولم يجد زكي مبارك في تلك الحقبة عاطفة حب كبيرة تعوضه عن إحساسه بالنقص في أوضاعه الاجتماعية والمادية والعاطفية كما أن الملهمة التي كانت «الحب الكبير» في حياته تخلت عنه في سنواته الأخيرة بعد أن تعرض للاضطهاد في عمله واتجهت لأضواء السينما والمسرح ، فلجأ للشراب يتخذه ملجأ وملاذا يهرب به من واقعه المر الأليم لينسى مأساته وواقعه الأليم كما أن بعض أصدقاء عمره الذين طالما دافع عنهم وأحسن إليهم هاجموه في محنته ولم يستطع أن يخوض معاركه ومساجلاته كما كان في عنفوان قوته في الثلاثينات ... ومن هنا كانت مأساة إنسان ومفكر كبير مرهف الإحساس حاد العاطفة كان ضحية لظروف وعوامل عملت على تحطيمه وهدم

كيانه.

في هذه الظروف كتب هذا الكتاب الغريب ليسجل فيه خلاصة أفكاره وآرائه في المرأة التي كانت من أبرز عوامل مأساته الحادة العنيفة ...

ومن هنا كتب «بين آدم وحواء» بهذا الأسلوب الرمزي وذكر اسم مؤرخ موهوم لكي يسجل ما يعاني من لوعة وكمد ومرارة وألم في قصته مع ذلك المخلوق المحير المجهول : المرأة !..

***

وقد توالت هذه السلسة من المقالات النفيسة وتناول فيها الدكتور زكي مبارك ألوانا من فنون المصاولات الروحية بين آدم وحواء وخاض في موضوعات شائكة وكان من نتيجة ذلك أن تعرض لحملات أدعياء الأدب وصعاليك الصحافة .

وانطلق الدكتور زكي فسرد بعض ما وقع لآدم وحواء في الجنة قبل الخروج منها وشرح بعض طبائع الحيوانات في الجنة معتمدا على خياله الخصب وإطلاعه العميق .

ولكن بما يتميز به كتاب زكي مبارك عن غيره ؟

اقتصر ابن شهيد في رسالته «التوابع والزوابع» على عرض المشكلات الأدبية والبيانية . وحرص أبو العلاء المعري في «رسالة الغفران» أولا وقبل كل شيء على عرض المعضلات الدينية والفلسفية ولكن رسالة زكي مبارك تتسم بعرض المشكلات الوجدانية والعقلية في العلاقة بين آدم وحواء ، فرسالته تفصح عن سرائر زكي مبارك الروحية والوجدانية وقد أودعها اندفاعات ذهنه وعواطفه الذاتية ، فهو يؤمن بأن العاطفة مهرب للإنسان من عذاب الروح !..

إن الطابع الوجداني هو الذي يغلب على هذا السفر النفيس ويحتوي هذا الكتاب على عديد من ألوان الفنون البيانية التي تدل على ثقافة الكاتب الأدبية

والفلسفية والدينية .

وقد عرض قصة آدم وحواء في الجنة بتركيز فني رائع ووصف شاعري جميل .

وأسلوبه في هذا العمل بتسم بالسلاسة والرقة والعذوبة كما أثبت أنه من أقدر الكتاب على صياغة الفن الحواري الفلسفي الجدلي وذلك من خلال الحوار الممتع الذي أداره بين آدم وحواء في الجنة !..

***

بدأ الدكتور زكي مبارك رسالته عن «آدم وحواء» بمقال تحت عنوان «بين الورق والدوح» مهد فيه لرسالته واستهله بعبارات تحدث فيها عن عدوان الخريف على آثار الربيع ، قبل شهر سبتمبر عام 1927 في باريس وكيف كانت قدماه تخبان في أوراق الأشجار وهو يخترق حديقة «لكسمبور» ويصور كيف انتشى حين رأى ذلك المنظر الجميل وقد أعانه على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسي ، الذي يحوي ألوفًا من صور العدوان البغيض ، عدوان الخريف على الربيع بلا تهيب ولا استحياء . ثم يروي كيف أنه جلس في يوم عاصف تحت «الدوح» وهو ينظر بحزن إلى الورق «فوعيت من حواره أحاديث لن أنساها ما حييت وكيف أنساها وقد زلزلت قلبي ، وأطلعتني على بعض ما كنت أجهل من سرائر الأدواح والأوراق» !.. [1]

ثم أجرى حوارا بارعا بين الورق والدوح . يقول على لسان «الدوح» :

«إلى أين يمضي هذا الورق الساقط ؟ وكيف جحد جميلي عليه ؟ حملته وهو ضعيف لا يقدر على التماسك ، وأمكنته من شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء، وحرمت نفسي عذوبة التمتع بضحوة الشمس في الربيع ، ونشوة القيظ في الصيف ، ليجد الفرصة لتذوق النعيم ، فهل حفظ هذا الصنيع ؟

(1) الرسالة : بين الورق والدوح : 19 يناير 1942 .

«لقد أبحته أن يمتص دمي كيف شاء ، ليواجه نور الوجود بحرية الطفل الغافل عن جهاد أبيه ، ولكل أب جهاد يجهله الأبناء ولو كانوا من الملهمين ، فهل عرف الورق الساقط أنني حرمت نفسي نعيم الندى والضياء ليتخايل ويستطيل ؟» وسكت «الدوح» لحظات ثم صرخ من جديد :

«والآن يعرف الورق أن الشتاء قادم ، وأنني سأحتاج إليه لدفع عوادي البرد والجليد ، فهو ينخلع عني ، ليتركني بلا غطاء ، في قر الشتاء !»

ويسمع الورق أنين الدوح فيهتف :

«ما عتبك علي أيها الدوح ؟ ما عتبك علي وقد بذلت في البر بك غاية ما أملك؟!»

«ألا تذكر أني صبرت على مصاحبتك في السيطرة والاستعلاء شهورا من الزمان ؟»

«ألا تعرف أنني عققت من أجلك أمنا الأرض؟»

«فما ذنبي إذا اشتهيت العودة إلى الأم الرءوم ، وهي أيضا تحتاج إلى من يدفع عنها البرد والجليد ؟»

ويمضي الحوار بين الورق والدوح مثيرا شيقا طريفا وبعد أن ينتهي هذا الحوار يجري مبارك حوارا بارعا آخر بين «الفتى المصري» أي زكي مبارك و «الدوح» وفيه حديث عن الطوفان وسفينة نوح . ومن هذا الحوار الممتع المثير عن «عمر نوح» نورد هذا الرأي للفتي المصري يسأل الورق : هل يعيش الإنسان ألف سنة إلا خمسين عاما ؟! فيجيب الفتى المصري : بقليل من الفهم ندرك أن عمر نوح لا يرجع إلى الكمية الصورية وإنما يرجع إلى الكمية المعنوية ، وقد استطاع نوح باختراع «السفينة» أن ينقذ الإنسانية من «طوفان» الفناء ، فالعشرات من أعوامه تعد المئات ، فاصنع صنع نوح ، لتعيش عمر نوح !..»

ثم اختتم زكي مبارك هذا الحوار بقوله : «فالله وحده يعلم قصة الورق

والدوح ، وهو الذي يعلم ما أعاني من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد ، وهو الذي يعلم كيف أفر من التصريح إلى التلميح ، لينجو «الورق» من الافتضاح » .

وبعد هذا المقال الرمزي ذكر زكي مبارك قصة إهداء أحمد زكي باشا كتاب شيث بن عربانوس له ثم مضى يلخصه ـ كما يذكر ـ عن اللغة الكوفية التي يتقنها.

وفي هذا السفر النفيس صفحات مليئة بالشعر والفلسفة والخيال ، يحلل زكي مبارك الدوافع التي دفعت آدم للعصيان وكيف أنه لم يستطع مقاومة النداء الخالد والأكل من الشجرة المحرمة ويصور كيف يناجي آدم الله عز وعلا مناجاة حارة ليشرح ما يعتمل في صدره من صراع حاد بين الهدى والفتون ، فيقول : [1]

«يا خالق الكوثر ، ويا فاطر الأعناب والنخيل ، بك أستجير من ظلم الجمال!..»

«يا مبدع العيون الكحيلة ، والخدود الأسيلة ، بك أستغيث من سحر الفتون!..»

«أنت سويتني بيديك من جسد وروح ، وأنا بالروح أطيعك وبالجسد أعصيك ، فهل ترى عدالتك أن الحسنات يذهبن السيئات ؟..»

«إن كنت ترى أن شجرة التين مسمومة فاصرف عنها حواء ، فلم تعد لي طاقة على مقاومة حواء ، ولطف صنعتك هو الذي جذبني إلى تلك الهوجاء !..»

«وإن كنت ترى أن الهاوية تترقب من يعصيك ، فجرد حواء من سحرها الفتان لأملك من أمري ما لا أملك ، ولأستطيع الصبر عن ثغرها الرشوف ، فأنت يا مولاي تعلم أني بها من الهائمين » !..

ويمضي الدكتور زكي مبارك يدير حوارا فلسفيا شيقا بين آدم وحواء فيه صراع مروع بين العقل والعاطفة والهدى والفتون يبرز من خلاله مدى تأثير سحر

(1) الرسالة : حديث السدرة : 9 مارس 1942 .

حواء على كيان آدم في الجنة ...

بعد مصاولات جدلية عنيفة بين آدم وحواء قالت حواء لآدم : [1]

« ـ اسمع يا آدم ، اسمع : يظهر أنك أغلف القلب ، وأنك في احتياج إلى من يزيل الغشاوة عن عينيك .. ما هذا التمرد على الله ؟ وما هذا العصيان ؟ مزيتك أنك رجل ، ورجولة آدم رهينة بشهادة حواء ، ولن أعترف لك بشيء إلا إن عصيت وغويت ! ..»

ـ ويقول الله ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ؟..

ـ ومن أنت حتى تصل إلى أن ينالك الله بالغمز والتجريح ؟!

ـ اسكتي ، يا حواء !..

ـ لن أسكت قبل أن أزلزل قلبك جزاء بما احتكرت من دعوى الفضيلة والشرف والنبل ، كأن سلوكي معك رذيلة وضعة وإسفاف ! أنت تصور نفسك دائما بصورة المظلوم وتنسى أنك في أغلب أحوالك من الظالمين !..

ـ ومتى ظلمتك ، يا حواء ؟..

ـ حين تناسيت فضلي عليك ، فأنا أضرم أهواءك لتشعر بعنفوان الرجولة الحق ، وستموت حسيا ومعنويا يوم أعجز عن إغوائك ، فيومذاك تعرف يا جاهل أن طيش حواء ليس بالمغنم القليل !..

ـ كفى !.. كفى !..

ـ لا ، لا ، لن أتركك أو تعترف بفضلي عليك !..

ـ أمن الفضل أن تزيني المعصية ؟..

ـ وما زينت لك شيئا غير جميل !..

(1) الرسالة : شروق العقل : 23 مارس 1942 .

ـ وشجرة التين !..

ـ ما تهمني شجرة التين بالذات فسأحاول هدايتك إن امتنعت عن شجرة الجميز ، لأملك نقل قلبك من مكان إلى مكان !..

وفي رسالة «بين آدم وحواء» صور زكي مبارك قوة العاطفة عند آدم ، العاطفة التي تزلزل أعصاب الرجال !..

وعالج بطريقة فنية جميلة طغيان الأهواء والأحاسيس والنشوة الروحية والحسية التي أفصح عنها آدم نحو حواء .

وصور اعتراك الأهواء والآراء بين المرأة والرجل كما رسم صورة لأهواء النفوس وأحلام القلوب !..

في هذا الحوار الجدلي الفلسفي الوجداني نرى صورا من فلسفة زكي مبارك في الحب والجمال والمرأة حين يصور كيف نجحت حواء في استمالة آدم لها بعد حوار جدلي طويل فلم يملك آدم إلا أن يسلم ويصور أحاسيسه وأهواءه نحو حواء ، فيقول لها في نهاية الأمر مستسلما:[1]

« ـ أعصي الله من أجلك يا حواء !..»

ـ فتأكل من شجرة التين ؟..

ـ وأترك طبعات على هذه الخدود المقبوسة من جمر الوجود !..

ـ تحبني ، يا آدم ؟ ..

ـ أحب المرأة الحلوة الجميلة التي زلزلت قلبي ... أحب المرأة التي نقلت قلبي من مكان إلى مكان .. أحب الغادة اللعوب بالعقل والروح ... احبك يا حواء حبا أمتن من الصدق وأروح من اليقين ... أحبك يا حواء حبا سيفسد ما بيني وبين

(1) الرسالة : فوق أثباج الكوثر : 30 مارس 1942 .

ربي ، إلا أن تشاء إرادته أن أتقرب إليه بعبادة الجمال ... ولعله يشاء !..

ـ وإذا لم يشأ فماذا تصنع ؟ ..

ـ آكل من شجرة الخلد ، لأحمي هذا الجبين من الأفول ! ..

ـ بالعصيان ؟..

ـ هنا المشكلة يا حواء ، فما يسيغ ذهني أن ينهانا الله عن رعاية الجمال !..

ـ أراك اهتديت !..

ـ وأراني ضللت !..

ـ أفق يا نشوان !..

ـ إن جاز للموقوذ بسكر الجمال أن يفيق !..

ـ تحبني يا آدم ؟ .. تحبني ؟..

ـ أحب النار التي صهرت روحي ، ولن أطمئن إلا يوم انهشك يا حواء لتعودي نقطة في دمي!..

ـ ما هذه الوحشية ؟..

ـ أي وحشية ؟.. ألم تؤخذي من ضلعي ؟..

ـ أنا من ضلعك أخذت يا كذاب ؟!..

ـ اسألي الملائكة ، فعندهم الخبر اليقين ..

ـ ولهذا جئت جميلة ؟!..

ـ وأجمل من الأفعى الملتوية على الشجرة الزهراء !

ـ أراك تبغضني يا آدم !..

ـ هو ذلك : فأنا أبغض العيون الجوارح ، وأبغض الجبين الوضاح ، وأمقت

القد الرشيق ، وأستعيذ بالله من السحر فوق الثنايا البيض !..

ـ ثم ماذا ؟..

ـ ثم أكره الصوت الذي يشبه وسواس الحلى فوق النحور ، والذي يفوق غمغمة الكأس عند فورة الرحيق !

ـ ثم ؟..

ـ ثم أثور على التفاتة الجيد عند العتاب ..

ـ ثم ؟..

ـ ثم أبغض حواء لأنها حواء !..

***

وقد ضمن زكي مبارك في هذا الكتاب الشيق الممتع فنونا مختلفة من ثقافته الأدبية والفلسفية والدينية والمحصول الفني لزكي مبارك في هذا السفر النفيس يرجع إلى التعمق في الفكرة . ومعالجتها بأسلوب قصصي شيق !..

وفي هذا السفر عقدة إنسانية هامة وهي تشريح عاطفة آدم نحو حواء أي الصراع المروع بين العقل والعاطفة ، وبين نسائم الهدى وزوابع الضلال !..

فهو في هذا الكتاب من أقطاب الفكر وأرباب البيان !.. لقد أتى في الكتاب بفنون مختلفة من الأعاجيب والفلسفات لأنه قوي الإحساس إلى أبعد الحدود . قوي التعبير وهذا شاهد على عظمة الفكرة وقوة الروح ...

إن زكي مبارك في هذا الكتاب أمشاج من الوجد المقهور والحب الآسر ... هو قيثارة صداحه لأحلام القلوب وأهواء الأحاسيس !..

إن هذا الكتاب يعد من أجمل وأروع ما سجله الدكتور مبارك من الأدب الإبداعي .

وبعد ، فالكتاب مليء بفنون من الصور الفلسفية الغريبة والموضوعات المثيرة الشائكة وإن كان يغلب عليه عرض المشكلات الوجدانية بصورة غاية في الصراحة والجرأة والوضوح والصدق !..

وبعد أن أوقفت رواية «بين آدم وحواء» عام 1942 ، عاد زكي مبارك ليدور حول الموضوع بأسلوب جديد ، فكتب تحت عنوان «في محكمة الجن» فصلا جديدا من الرواية :[1]

مع الاعتراف بأن القلم في يد الكاتب نعمة لا يماثلها شيء من نفائس الوجود ، فأنا كثير الضجر مما يجني عليّ قلمي ، لأنه يتيح الفرص لمن يسرهم إيذائي ، ولأنه يجعلني دائمًا على بال الناس ، ويا ويحَ من يشغل به الناس !

زرت مرة إحدى المدارس الثانوية فوجدت ناظرها رجلا مجهولاً من الدوائر الأدبية والاجتماعية ، مع أن المرء لا يصل إلى مثل مركزه إلا بعد ظهور وبروز في الأدب والمجتمع ، فقلت في نفسي : «هذا هو الرجل السعيد . إن منصبه يضارع منصبي من الوجهة الرسمية ؛ وقد يكون راتبه أضخم من راتبي ، لأنه قديم العهد بخدمة وزارة المعارف . ولكنه أسعد مني ، لأنه بعيد من المجتمع، ومجهول من الجرائد والمجلات ، فلا يتحدث عنه متحدث ، ولا يتزيد عليه قارئ لا يفهم أسرار البيان» .

ثم قلت :«أين حظي من حظ هذا الزميل ؟ إن مقالاتي تؤخذ منها قصاصات لتقدم إلى وزير المعارف ، فأنا على بال وزير المعارف من يوم إلى يوم ، أو من أسبوع إلى أسبوع ، ومعنى هذا أني أقدم سريرتي قبل السؤال عما فيها من مجاهيل».

وعلى من يقع اللوم ؟ يقع عليّ وحدي ، فمن حق أي وزير أن يتعقب ما يصدُر عن مساعديه من أفكار وآراء ، ومن واجبه أن يناقشهم فيما يستوجب النقاش .

(1) الرسالة : 25 اكتوبر 1943 / زكي مبارك / في محكمة الجن .

والآفة الفظيعة أني مكثر ، وقلما يسلم المكثار من العِثار . يضاف إلى هـذا أن قلمي يجول في شجون من الأحاديث تمسّ طوائف مـن المعـاني الشـوائك ، فأنـا أعرّض نفسي لمتاعب لن تنقضي إلا يوم أتوب من صحبة القلم ، ولن أتوب !

هل أصدق كل الصدق فأذكر أني شعرت بدمعة تساور جفوني يوم زرت ذلك الناظر السعيد؟

لقد تحزنت وتوجعت ، لأني أعرف أن القلم لا يغنيني في حيـاتي ، كمـا يغنـي أمثالي في الأمم التي يعد قراؤها بالملايين ، فلم يبق إلا أن أكون من الموظفين !

أين أنا مما أريد ؟

أنا أريد النص على أن قلمي ساق إليّ متاعـب أخطـر ممـا كنـت أعـاني ، فقـد نقلني من معاداة الإنس إلى معاداة الجن ، ونعوذ بالله من كيد الشياطين !

وخلاصة القصة أني تحدثت عن «جِنّية» سامرتها ليلـةً بالإسـكندرية مسـامرة الحبيب للمحبوب ، وأنا أجهل أن حديثي عنها ستكون له عقابيـل ... فمـاذا وقـع بعد ذلك الحديث ؟

أطفأت النور بالغرفة التي تطل على الصحراء ، لأستوحي القمـر والنجـوم في هدوء وسكون ، ثم راعني أن أرى الغرفة تضيء ، وأن أرى خلائق لم يكن لي بمثلها عهد ، فهتفتُ :

أتوْا داري فقلت : مَنُون أنتـــــم ؟

فقالوا : الجنُّ ، قلت : عمُوا مساءَ

ـ محكمة !

ـ أية محكمة ؟

ـ محكمة الجن!

ـ وفي هذه الأنوار ؟

ـ هذه أنوار لا يراها عابر ، فلا عليك !

ـ وهذه الوجوه ؟

ـ هي وجوه لا يراها غيرك

ـ وماذا تريدون ؟

ـ نريد محاسبتك على ما وقع منك

ـ وماذا وقع مني ؟

ـ هل نسيتَ ما نشرتَ بمجلة الرسالة ؟

ـ عماذا ؟

ـ عن الجنية المحبوبة !

ـ ذلك خيال في خيال

ـ ونحن نحاسب على الخيال ، لأنه صورة مصغَّرَة من الحقيقة الواقعية ، فأنت محاسب على اقتراف الإثم بمغازلة جنية عذراء .

ـ من حديثي بمجلة الرسالة عرفتم ما اقترفت ؟

ـ عرفنا ما اقترفت قبل أن تنشر حديثك

ـ وكيف ؟

ـ لأننا نراكم وأنتم لا ترونا

ـ وما الذي منع من عقد المحكمة قبل نشر الحديث ؟

ـ الإثم عندنا يحتاج إلى برهان مكتوب

ـ وحديثي هو البرهان ؟

ـ نعم ، ثم نعم !!

ـ أتسمعون كلمة الحق ؟

ـ قد نسمع !

ـ يجب أن تسمعوا ، فاسمعوا . أنتم تقفون من الحياة موقف المتفرجين ، والمتفرج يرى الممثل ولا يراه الممثل ، فالممثل آمر والمتفرج مطيع ، أو هو كاتب والمتفرج قارئ

ـ أتقول أن الإنس أفضل من الجن

ـ هو ذلك ، وإلا فأين نصيبكم في خدمة الآداب والفنون ؟

ـ نحن الذين أقمنا عرش سليمان

ـ وأين عرش سليمان ؟

ـ بقيت منه المعاني

ـ هي معان إنسية لا جنية ، لأنها متصلة بالناس لا بالجان

ـ ونحن الذين ألهمنا شعراء الجاهلية

ـ وهم لهذا جهلاء !

ـ أنت تحاكم ، فما هذه الغطرسة العاتية ؟

ـ أنتم تحاكمونني ، يا جماعة الجن ، ولم يكن فيكم من يتّسم بشجاعتي ؟

ـ وما شجاعتك ؟

ـ انتم تعرفون شجاعتي ، فما تنكرت ولا تلثمت كما تتنكرون وتتلثمون ، ولا سمح ضميري بأن أرى الناس ولا يروننـي لأني أحب أن تكون أعمالي في العلانية لا في الخفاء

ـ والجنية التي سرقتها منا ؟

ـ لم أسرقها منكم ولن أردها إليكم

ـ أطع محكمة الجن

ـ وهل أطعت محكمة الإنس حتى أطيع محكمة الجن ؟

ـ سنؤذيك إذا تماديت في العصيان

ـ لا يستطيع مخلوق ان يؤذيني ، إن حفظت الأدب مع الله في الترفق بنفسي

ـ حرر الجنية من حبك

ـ لن أحررها من حبي ، فما أرضى بأن يضيع نصيبها من شرف الوجود

ـ لا نفهم شيئا مما تقول

ـ أنا أقول بأن الإنس أفضل من الجن ، لأن الإنس مجاهدون والجن رقباء ، والمجاهد أفضل من الرقيب

ـ والجنية المخطوفة ؟

ـ لن تكون لكم ولو عقدتم ألف محكمة

ـ وإن اغتصبناها منك ؟

ـ لن تغتصبوها مني ، بعد أن سمعت أشعاري ، وهي أشعار نظمتها بدم القلب

ـ أطع محكمة الجن

ـ لن أطيع

ـ وإذا حكمنا عليك ؟

ـ سيعييكم التنفيذ !

وفي هذه المعمعة برزت الجنية وهي تصرخ : أنا الجانية على نفسي ، إن كان من الجناية أن أخرج إلى الأنوار بعد طول القرار في غياهب الظلمات

ـ ماذا تقولين يا حمقاء ؟

ـ معشوقي إنسيُ ، يا سعادة الرئيس

ـ والإنس أفضل منا ، يا شقية ؟

ـ نعم ، لأن أعمالهم في العلانية

ـ وأعمالنا ؟

ـ أعمالنا في طيات الخفاء

ـ لست منا ولا نحن منك

ـ أنا من معشوقي ، ومعشوقي مني، فاذهبوا عني

ـ ونهزم أمام الناس

ـ كما ينهزمون حينا أمام الجان ، والجروح قصاص

***

ثم انقضت محكمة الجن بدون تعنت يحوج إلى الاستعانة بالمحامين فعرفت أن الجن لا يزالون على الفطرة الأولية في إدراك الحقائق البديهية ، وعرفت أيضا أنهم يخافون من الإنس ، وكان معروفا أنهم يخيفون ولا يخافون

ذهبت الأنوار المجلوبة بحضور الجن ، وعادت الغرفة إلى الضوء المرسل من القمر في لطف ، وبقيت الجنية بجانبي وهي لا تكاد تصدق أنها نجت من تعقب أولئك العماليق

ـ هل صرنا في أمان ؟

ـ أنتِ صرت في أمان

ـ وأنتَ ؟

ـ ألم تعلمي أني أقيم فوق جبل من البارود ؟

ـ أتخاف وأنا معك ؟

ـ أنا أخاف لأنك معي ، فقومك لن يسكتوا عني ، وقد يستنصرون بإخوانهم في الشام والعراق

ـ المعروف عندنا أن شياطين الشام والعراق من أصدقائك

ـ ومن هنا أخاف

ـ تخاف من أصدقائك ؟

ـ وممن أخاف ؟ هل أخاف من أعدائي وأنا أملك البطش بهم حين أريد ؟

وانتقل الحوار إلى شؤون متصلة بالجمال فسألتني الجنية عما يستهويني من جمالها فقلت :

ـ أنا أحب فيك هذا الصوت الناعم المبحوح ، وأشتهي أن تتكلمي في كل وقت . أشتهي أن تكون حياتك حديثا في حديث ، لا تسكتي ، فما رأيت أندى على قلبي وروحي من بغامك الذي يشبه وسوسة الحبب عند اضطرام الكؤوس . تكلمي لأرى نعيم الفردوس ممثلاً في نبراتٍ هنّ أعذب وأطيب من همسات الأماني في الصدر الحزين

هذا الصوت يزلزل قلبي ، وأنا أسمعه وإن اعتصمت بالصمت

ـ كيف ؟ كيف ؟

ـ هُويتك الأصيلة هي هذا الصوت ، فأنت كالبلبل ، وهُوية البلبل في الحلق ،

والله يزيد في الحلق ما يشاء [1]

ـ لم تجب عن سؤالي !

ـ قلت إن هويتك في الصوت ، وأنت دائما في بالي ، فأنا أسمعك في كل وقت، وإن غبت عني

ـ إلى هذا الحد يفتنك صوتي ؟

ـ وإلى أبعد من جميع الحدود

ـ كنت تقول إني أفتنك باللون

ـ متى ؟

ـ ليلة بتنا بالإسكندرية ، هل نسيت !

ـ لونك يفتن ، لأنه ينطق ، وهو يتموج تموّج النبرات العِذاب . إن في قدميك خطوطًا نواطق ، في قدميك ، في قدميك ، فماذا أقول في المرمر الناطق وهو صدرك الجميل ؟

ـ زدني ، زدني

ـ زيديني فتونا لأزيدك جنوناً

ـ ماذا تريد مني بعد أن خاصمت فيك قومي ؟

ـ أريد أن تتكلمي في جميع اللحظات

ـ وأين أجد ما أقوله في كل وقت ؟

ـ تقرئين عليّ ما في المكتبة من مؤلفات أدبية وعلمية ولغوية ، بالعربية وبالفرنسية والعبرية ، والأمر سهل ، فإن محصول مكتبتي لا يزيد عن عشرة

(1) إشارة إلى القراءة التي ورد فيها «الحلق» بالحاء بدلا من الخاء

آلاف، وسنعبرها ورقةً ورقة في أقل من عشر سنين

ـ إلى هذا الحد تحبني ؟

ـ وإلى أبعد مما أحبَّ العباقرة من الإنس والجن في جميع الأزمان

ـ أنا أرتعد من الخوف

ـ ومم تخافين ؟

ـ أخاف منك ، فدعني أخرج لألحق بقومي

ـ لن تعرفيهم بعد اليوم ، ولن يكون لأحد غيري عليك سلطان ، فليجمع الجن جموعهم ليلقوني في ساحة القتال ، ولتتمردي ما شاء لك الحمق والطيش ، فلن يكون لك في غير هذا البيت مكان

ـ وتحميننني من طغيانك ؟

ـ إذا اعترفت علانيةً بأن سلطان الجمال أضعف من سلطان البيان .

بين آدم وحواء

تأليف : د. زكي مبارك

النص الكامل

بدأ د. زكي مبارك تلك الدراما الحوارية البديعة بتمهيد تحت عنوان «بين الورق والدوح» أجرى فيه حوارا طريفا بين الورق والدوح في أحد أعداد يناير 1942 من مجلة الرسالة ليبدأ بعدها تلك الفصول الشيقة من قصة آدم وحواء وما اشتجر بينهما من محاورات ومجادلات أبتدعها زكي مبارك ليعبر فيها عن آرائه وأفكاره وعن فلسفته الجمالية في عشق الحب والجمال الذي أمضى حياته في التغريد فوق أفنان الجمال رغم ما أصابه من سهام وطلقات طائشة طالت حياته وعمله وأسرته ، ولكنه أراد أن يقدم لنا رؤيته الأدبية والجمالية والفلسفية في حكاية آدم وحواء في الجنة ليصل بنا إلى فلسفته في دنيا الحب والجمال .

بين الورق والدوح [1]

حدثت قرائي غير مرة أن ذاكرتي فيها انحراف غريب : فهي ضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام ، وقوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعاني ، ولها قدرة عجيبة على تمثل الملامح والأصوات والألوان ، فمن السهل أن أصف حادثا رأيته قبل عشرين سنة ، مع الإحاطة بما لابسه من دقائق التفاصيل، ولكن من الصعب أن أتذكر رقمًا سمعته قبل يومين ، إلا أن يتصل بأمر تلتفت إليه الذاكرة بعض الالتفات ، ولأجل هذا أقيد ما يهمني من الأرقام في دفتر خاص .

وفي هذه اللحظة أتذكر جيداً كيف شهدت عدوان الخريف على آثار الربيع ، ولم أكن شهدت ذلك العدوان قبل أول أيلول قضيته في باريس ، وأتذكر أيضاً كيف كانت قدماي تخبان في أوراق الأشجار وأنا أخترق حديقة «لكسمبور» ، وأكاد أتمثل كيف انتشيت حين رأيت ذلك المنظر الجميل ، وما هو في الظاهر بجميل ، ولكنه أعانني على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسي ، ففيه ألوف من صور العدوان البغيض ، عدوان الخريف على آثار الربيع ، بلا تهيب ولا استحياء .

وفي يوم عاصف جلست تحت «الدوح» وهو ينظر بحزن إلى تساقط «الورق»، فوعيت من حواره أحاديث لن أنساها ما حييت . وكيف أنساها وقد زلزلت قلبي، وأطلعتني على بعض ما كنت أجهل من سرائر «الأدواح»

(1) رسالة مهداة إلى المسيو «دي كومنين»

و«الأوراق»؟

سمعت «الدوح» يقول في صراخ مبحوح :«إلى أين يمضي هذا الورق الساقط؟ وكيف جحد جميلي عليه ؟ حملته وهو ضعيف لا يقدر على التماسك ، وأمكنته من شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء ، وحرمت نفسي عذوبة التمتع بضحوة الشمس في الربيع ، ونشوة القيظ في الصيف ، ليجد الفرصة لتذوق النعيم، فهل حفظ هذا الصنيع ؟

«لقد أبحته أن يمتص دمي كيف يشاء ، ليواجه نور الوجود بحرية الطفل الغافل عن جهاد أبيه ، ولكل أب جهاد يجهله الأبناء ولو كانوا من الملهمين ، فهل عرف الورق الساقط أنني حرمت نفسي نعيم الندى والضياء ليتخايل ويستطيل ؟»

وسكت «الدوح» لحظات ، ثم صرخ من جديد :

«والآن يعرف الورق أن الشتاء قادم ، وأنني سأحتاج إليه لدفع عوادي البرد والجليد ، فهو ينخلع عني ، ليتركني بلا غطاء ، في قر الشتاء!» .

ويسمع الورق أنين الدوح فيهتف :

ـ ما عتبك عليّ أيها الدوح ؟ ما عتبك عليّ وقد بذلت في البر بك غاية ما أملك؟ ألا تذكر أني صبرت على مصاحبتك في السيطرة والاستعلاء شهورا من الزمان ؟ ألا تعرف أني عققت من أجلك أمنا الأرض ؟ فما ذنبي إذا اشتهيت العودة إلى الأم الرءوم ، وهي أيضا تحتاج إلى من يدفع عنها البرد والجليد ؟

وسمع الدوح هتاف الورق فأجاب :

ـ الأرض أمي وأمك ، ولكني فهمت عنها ما لم تفهم ، فقد حدثتني ألف مرة أنها لا تريد أن يرجع إليها غير الأموات من أبنائها الأعزاء فإن كنت مت أيها الورق فارجع إلى أمك الأرض !

فزمجر الورق :

ـ أنا مت ؟ أنا ؟ وهل يموت من يرجع إلى حجر أمه الغالية ؟

فيقول الدوح :

ـ نعم ، ثم نعم ، يموت من يرضى بأن تدوسه الأقدام ، ولن يكون لك نصيب غير الدوس ، يا جهول !

وهنا قال الورق للدوح :

ـ هل تنسى أني أدفأتك في الصيف ؟

فقال الدوح للورق :

ـ لم أكن احتاج إلى دفء في أشهر الصيف ؛ وإنما أحتاج إلى الدفء في أشهر الشتاء .

فقال الورق للدوح :

ـ لا أستطيع سماع صوتك وأنت مجلل بالسواد .

فقال الدوح للورق :

ـ إنما تجللت بالسواد حدادا عليك . ألا تذكر أنني كنت أحبك حبا هو الغاية في الكرم ، لأنه حب القوي للضعيف ؟ ألا تذكر أني كنت أقاوم العواصف والزوابع لأجد خدودك ذلة الالتصاق بالأرض ! ألا تعرف أنني أعاني لفراقك كروبًا لا تطاق ؟

قال الورق :

«أتحبني إلى هذا الحد ، أيها الدوح؟»

فتأوه الدوح ثم أجاب :

«لا أحبك لأنك ورق ، فأنت تعرف أني صبرت على تقلب الأوراق أربعين عامًا أو تزيد ، ولن أموت يوم أموت بسبب تقلب الأوراق ـ وإنما أحبك لأنني أنشأتك كما يحب الله هذا الوجود ، فأنت بعض ما صنع دمي أيها الورق ، ولن تعيش بعد فراقي إلا بفضل ما سكبت في عروقك من الدم النفيس ، وقد حل عليك غضبي ، فلا بقاء لك بعد اليوم ... وهل تستطيع أن تطبّ لما صنعت بنفسك أيها الورق الساقط ؟ لقد دعوتك إلى الترفق بمصيرك فلم تسمع ، ومن أجل غفلتك لبست عليك ثوب الحداد ولم أستغرب من فرحك بمصافحة الأرض ، فأنا أعرف انه لا يرحب بالاستعلاء غير الأقوياء ، كما أعرف أن الأم لا ترحم من أبنائها غير الضعفاء» .

قال الورق :

«وبأي حق تستطيل عليّ ، أيها الدوح ، وأنت أسود مظلم ، لا ترجى لك صحوة ولا معاد ؟»

قال الدوح :

«ذلك سواد الشباب ، يا أحمق ، وليس سواد الحداد [1] ، ولن تقيم الحياة لدلالك أي ميزان ، وهل تطول حياتك حتى ترى ازدهائي بالورق الجديد في الهوى الجديد ؟ إن الدم الذي سوّاك ، سيسوى ورقا سواك ، وسأعبث هذا العبث بالأوراق إلى أن أبلغ الثمانين أو التسعين !»

قال الورق :

«خذني إليك ، أيها الدوح ، فقد اشتقت إلى ساعدك القويّ المتين»

فأجاب الدوح :

«تعال إليّ ، إن استطعت ، أيها الورق الساقط ، فانا لا أملك البعث كما أملك

(1) هذه مغالطة من جانب الدوح ، فقد اعترف قبل سطور بأنه لبس السواد حدادًا على الورق وسنرى بعد سطور بأنه لفراق الورق حزين .

الإنشاء ، وهل أكمل مسماة صاحب العزة والجبروت ؟»

وتكلف الورق ما لا يطيق ليرجع إلى الدوح من جديد ، ولكنه عجز عن تحقيق ما يريد ، وتلك نهاية من يجهل السر في تمتعه بشرف الوجود ، والشرف معناه الارتفاع ، وقد انحط الورق بسقوطه على الأرض ، فأمسى وهو ضعيف مَهين .

ثم قال الدوح :

ـ لن نلتقي بعد اليوم ، أيها الورق الساقط ، كيف تلتقي وأنا أجد عناءً في التعرف إلى هويتك ؟ وهل أراك إلا وهما يصوره الرفات المسحوق ، مع قرب العهد بالفراق ؟

فأجاب الورق :

ـ ستجدني في الربيع المقبل .

قال الدوح :

ـ سأجد في الربيع المقبل ورقًا غيرك .

قال الورق :

ـ كنت أنتظر أن يكون في سخطك عليّ ما يزهدك في جميع الأوراق .

فصاح الدوح :

ـ كان ذلك لو أني أردت الانتفاع بالتجارب ، والانتفاع بالتجارب يدل على العقل ، ولكنه يشهد بضعف الحيوية ، والخير أن نواجه الحياة في كل يوم بأحلام الناشئين ، لا بعقول الكهول ، لتبدو لنا الحياة بكرا في كل لحظة ، كما تبدو الغابة المؤذنة بالوحشة والأنس في كل حين . ولو أني اكتفيت بما جربت من أخلاق الورق لكان من المستحيل أن أراك ، بعد أن عرفت ما عرفت من شمائل سواك .

قال الورق :

ـ وأستطيع أنا أيضا أن أغفل الانتفاع بالتجارب وأرجع إليك في الربيع المقبل.

فضحك الدوح وقال :

ـ وهل كانت لك معي تجارب أيها الورق ؟ هل رأيت مني ما يعاب حتى تزعم أنك فارقتني عن عتاب يمحوه التفضل بالإعتاب ؟ أنا الذي أنشأك ، وأنا الذي رباك ، وأنا الذي أوحي إليك معاني الشوق إلى الندى والضياء ... أنت لم تفارقني لأني جفوتك أو أسأت إليك ، وإنما فارقتني لأنك ضعفت عن صحبتي ، كما يضعف السحاب عن مصاحبة الجبال .

قال الورق :

ـ خذني إليك ، أيها الدوح ، لأذوق من دمك ما كنت أذوق .

فأجاب الدوح :

ـ عيب الأقوياء أنهم لا يصفحون عن المذنب ولو عفّر جبينه بالتراب ، وأنت أيها الورق الساقط جحدت جميلي ، فلن أراك بعد اليوم ولو استشفعت بأزهار الربيع .

قال الورق :

ـ وهل يكون الورق الجديد أجمل مني أو أصدق مني ؟

فأجاب الدوح :

ـ لن يكون أجمل منك ولا أصدق منك ، فتجارب أربعين سنة دلتني على أنكن جميعاً من وحل واحد ، ولكن الورق الجديد سيلقاني وهو على جانب من الغفلة والجهل ، والغَفلة والجهل يزيدان في قيمة الجمال ، فإذا تعاقل وتعالم ، كما تعاقلت أنت وتعالمت ، فسيكون مصيره إلى أمه الأرض ، وأستريح منه قبل أن

يستريح مني .

قال الورق :

ـ أيكون معنى هذا الكلام أن لك سياسة مرسومة في امتهان الأوراق ؟

فأجاب الدوح :

ـ معنى هذا الكلام أني أحقد حقداً أبدياً على من يجحدون المعروف . لقد قضيت أربعين سنة أو تزيد في تعهد الأوراق بالرفق والعطف ، فما حفظت ورقةٌ عهدي ، ولا اعترفت بجميلي ... ويعزيني أن الله ينتقم لي فما انخلعت عني ورقة إلا كتب الله عليها الذبول والفناء .

ومع هذا فأنت لفراقي حزين ، باعترافك في بداية هذا الحوار ، وهذا الحزن هو انتقامي من غطرستك وكبريائك ، وأنا أتوعدك بقول أحد الشعراء :

سأنساك فانظر كيف تحيا إذا انقضى نصيبك من روحي وحظك من قلبي

ونظر الدوح فلم ير الورق ، فأين ذهب ؟ أين ؟ أين ؟

لقد عصفت الريح فأطارت ما كان في «لكسمبور» من أوراق ، وباد ما تعاقر الحديقة من «خشخشة» كانت أروع ما سُمع من الغناء في باريس .

قال الراوي :

وكنت فتى مصرياً لم يسمع مثل هذا الحوار بين الورق والدوح ، فمصر الوفية لا تشهد انحلال الورق عن الدوح في خريف أو شتاء بغض النظر عن الأشجار المجلوبة من بلاد لا تعرف خلائق وادي النيل .

قال الفتى المصري :

وتسمعت ما يقول الدوح بعد ذهاب الورق فوعيت هذه الكلمات :

ـ إلى أين ذهبت أيها الورق ، وكنت الشاهد على أن الضعف من عناصر الجمال؟

إلى أين ذهبت وكان عطفي عليك دليلاً على أني من الأقوياء ؟ إلى أين ذهبت وبفضلك سمعت تغريد الحمائم والبلابل والعنادل ، ولم أر بعد ذهابك غير وقر الجليد في «أعوام» الشتاء ، وكل يوم في الشتاء بعام أو عامين لمن يعيش بلا أليف؟

ثم سمعت الدوح يقول :

ـ لو أملك من أمري ما يريد الهوى لخلعت العذار في البحث عن الورق الذاهب ، ولكن الطبيعة التي أمدتني بالقوة قيدتني بالوقار ؛ فأنا جاثم في مكاني ، وإن كان هواي في بلدٍ بعيد بعيد ، وآه ثم آه من المراعاة لما يوجب التغافل عن الهوى المشبوب !

وسمعته يقول :

ـ سقط عني الورق ، لأنه ضعف عن مصاحبتي في أيام الشدائد ؛ وهل يطالب الضعيف بما لا يطيق ؟ فما عتبي عليه وهو أضعف من أن يقاسمني المصاعب في أيام الشتاء ؟ وهل يتوهج الجمال إلا في أوقات اللين والصفاء ؟

ثم سمعت الدوح يقول :

«ألا يمكن اتهامي بإرغام الورق على أن يصير إلى ما صار إليه ؟ كان في مقدوري أن أضاعف له الكمية المبذولة من دمي ، ولكنني جهلت الواجب فارتضيت أن يعيش الخريف بمثل ما كان يعيش في الربيع . ولو أني ضاعفت له الدفء لكان من الممكن أن يفكر في حفظ الجميل ، والدنيا أخذ وعطاء ، ولو كره الأوفياء» .

قال الفتى المصري وهو يحاور قلبه بعد سماع ذلك الاعتراف :

لقد نطق الدوح بالقول الفصل ، وأجاب عن هذا السؤال :«ما الذي يمنع من أن نعيش كما تعيش بعض الأشجار التي تخلع أوراقها في الخريف لتكتسي بأوراق جديدة في الربيع ؟» وما وجهت إلى نفسي هذا السؤال إلا بعد أن عانيت ألوف المكاره من الوقوف عن حالٍ واحد في الحب والبغض ، والاقتراب

والابتعاد . والأوراق هي العواطف فما بالنا نحرص حرص الأشحاء على استبقاء تلك الأوراق ، وفيها ما يصل إلى الذبول والجفاف ، ومن الخير أن نخلعه بلا رحمة ولا إشفاق ؟ ما بالنا نحرص عليها حين تتصل بأحباب يصعب عليهم أن يقاسمونا شتاء الزمان ؟

إن الله لا يضن على الشجر بالورق الجديد عند قدوم الربيع ، فهل يضن علينا بالهوى الجديد عند استهلال الرخاء ، وقد عرفنا من كرم الله ما لا تعرف الأدواح والأوراق ؟ وهل يملك الدوح من الحيوية عند سقوط الورق مثل الذي نملك من الروحانية عند خمود الوجد ؟ أكاد أجزم بأن الماء المكنون في الشجرة العارية من الورق لا يقاس إلى الجمر المكنون في القلب الخالي من الحب ، فنحن والشجر إلى ربيع قريب ، وإن استطال الشتاء .

وبعد لحظات عاد الفتى المصري إلى محاورة القلب :

ـ الدوح مجلل بالسواد ، والسواد شارة الحزن ، فما بال الدوح يحزن وهو غاية في القوة ؟

ـ الحزن من علائم القوة ، وليس من علائم الضعف ، فهو دليل على شعورنا بقيمة ما نفقد ، ولا يقع ذلك إلا ونحن أقوياء ، والجهلة هو الذين لا يفرقون بين الحزن والذهول .

ـ وكيف ؟

أنسيت ما قرأناه لأناطول فرانس من أن الموت نتيجة لضعف الـ Vitalite .

ـ أذكر ذلك ، ولكني أخشى أن يكون الحزن هو أيضًا نتيجة لضعف الحيوية.

ـ أنت مخطئ في هذا التأويل ، فالحزن هو صوت الشهوة إلى النعيم المفقود ، والشهوة لا تصدر عن النفس إلا في حالة الفتوة والأريحية والطغيان .

ـ وإذن فما بال جماعات من خلق الله تندد بالمحزونين ؟

ـ كما تندد جماعات من خلق الله بالفرحين !

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ أريد أن أقول إن الحسد هو الذي يحمل بعض الناس على التنديد بأهل الأحزان والأفراح ، وما قام في الدنيا أدب ولا مجد ولا سلطان إلا بفضل ما في عاطفة الحزن او الفرح من ثورة واشتعال .

ـ أتريد أن أحزن ، يا قلبي ؟

ـ أريد أن تفرح بالحزن الصادق ، فقد كان شعار الأنبياء ؛ أما الحزم الكاذب فهو شعار المتصنعين . إن للحزن آدابا يجهلها أكثر الناس ، ومن آداب الحزن أن يصدر عن عاطفة لا عن تصنع ، وأن يأخذ وقوده من الإحساس لا من الخيال ، وأن يردنا إلى الصدق فيما نكتب وفيما نقول ، وأن يزيد في احترامنا لأهل الأفراح ، فهم إخوان أعزاء ، ولو نقلهم الفرح إلى آفاق الجنون . انظر إلى هذا التمثال وذلك التمثال !

قال الفتى المصري :

ونظرت فرأيت تمثالين : أحدهما لعامل مكدود ، وثانيهما لفتى تحتضنه فتاة بأسلوب يمنع من وصفه أدب أهل الشرق ، فقد ضمته إليها كما يضم الحبيب المحبوب ، وما أحب أن أزيد وهل أستطيع القول بأن ذلك التمثال أفصح عن أشياء ينكرها الحياء ؟ من بلايا الزمن أن الكاتب لا يملك من الحرية ما يملك المثّال !

كان هذان المنظران المتباينان يمثلان السلامة الوجودية أصدق تمثيل ، فالعامل المكدود هو مثال الحزن الشريف ، واحتضان الفتاة للفتى هو مثال الفرح النبيل ، وليس من العيب أن نفرح أو نحزن بإفراط وإسراف ما دمنا صادقين . وهل تهجم الفتاة على الفتى إلا طاعة لغريزة كريمة هي سر البقاء ؟ وهل يجعد وجه العامل المكدود إلا في سبيل سعادة لأطفال يتمنى أبوهم أن يجهلوا معنى

الفقر في أيام الشتاء : شتاء الزمان ؟

ثم عاد الحوار بعد لحيظات :

ـ حدثتك عما قرانا لأناطول فرانس ، فهل تذكر ما سمعنا لعهد الطفولة في سنتريس ؟

ـ لا أذكر من سنتريس غير أطياف بددتها أحلام باريس ؛ فماذا تريد ؟

ـ كان أهل سنتريس يقولون : «لما يخضرّ التوت ، البرد يموت» .

ـ وما معنى ذلك ؟

ـ معناه أن الأوراق هي الوقاية من البرد !

ـ وإذن ؟

ـ وإذن تكون العواطف هي الوقاية من شتاء الزمان .

ـ وما حال الشجرة التي لا ينخلع عنها الورق في أي وقت ؟

ـ هي شجرة سعيدة أعاذها القدر من اختبار الأحباب ، ومزية هذه الشجرة أنها تتذوق ما في الأرض والهواء من حيوية عارمة لا تلتفت إلى تغير الفصول إلا في أندر الأحايين !

ـ وهل في مقدورنا أن نكون مثل تلك الشجرة ؟

ـ إذا تخلقنا بأخلاقها .

ـ وكيف ؟

ـ في الأسبوع الرابع من آذار تظهر تباشير الورق الجديد فوق غصون الأشجار التي عانت آلام العري في الشتاء ، وتنظر فنرى الأشجار الصغيرة أورقت قبل الأشجار الكبيرة ، فنفهم أن للشباب يداً في سرعة الإيراق ؛ وقياساً على ذلك يكون الشباب الدائم هو الذي يحمي بعض الأشجار من سقوط الورق في الشتاء .

ـ أيكون لهذا الملحظ دخل في تقديس شجرة «الجميز» عند قدماء المصريين؟

ـ ليس هذا التخريج بغريب ، وقد يضاف إليه أن لشجرة الجميز ميلاً إلى البر بالجيران ؛ فهي تمد فروعها لتمتعهم بالثمار والظلال بلا انتظار للجزاء !

ـ أراك تهرب من الجواب !

ـ وأراك لا تفهم المعاريض !

ـ أنا أحب أن أعرف كيف أحتفظ بالشباب .

ـ إذا احتفظت بالعواطف .

ـ وكيف أحتفظ بالعواطف ؟

ـ وكيف أحتفظ بثورة من أعدائها الليل والنهار ؟

ـ أنت أقوى من الليل والنهار ، إن أردت ؟

ـ وكيف ؟

ـ إجعل الليل والنهار من خدامك .

ـ كيف ؟ كيف ؟

ـ لا تضيع لحظة واحدة بلا عمل نافع ، فالعمل الموصول فن من السيطرة على شباب الزمان ؛ ألم تسمع بأخبار نوح ؟

ـ وما أخبار نوح ؟

ـ عاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا .

ـ وهل يعيش الإنسان ألف سنة إلا خمسين عاماً ؟

ـ بقليل من الفهم تدرك أن عمر نوح لا يرجع إلى الكمية الصورية ، وإنما

يرجع إلى الكمية المعنوية ؛ وقد استطاع نوح باختراع «السفينة» أن ينقذ الإنسانية من «طوفان» الفناء ؛ فالعشرات من أعوامه تعد بالمئات . فاصنع صنع نوح ، لتعيش عمر نوح !

قال الراوي :

ثم رأيتني أهتف بقول أحد الهائمين :

ولو أن عمري عمر نوح وبعته بساعة وصل منك قلت كفاني

فالله وحده هو الذي يعلم قصة الورق والدوح . وهو الذي يعلم ما أعاني من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد . وهو الذي يعلم كيف أفر من التصريح إلى التلميح ، لينجو «الورق» من الافتضاح .

إن عاد الربيع ، إن عاد ، فسوف نعقد «معاهدة ودية» لا ينقضها خريف ولا شتاء .

وشبابي ، شباب الجسد والروح يحدثني بأن الربيع إلى معاد ويلطف الله بمن يقول :

لنجواك أستبقي شبابي فعاطني كؤوس الهوى قبل ابيضاض المفارق

بين آدم وحواء[1]

كثر الكلام في هذه الأيام عما كان بين آدم وحواء لعهد الجنة وعهد الأرض . وقد تورط صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم فأقحم خياله الروائي في شؤون فصل فيها التاريخ من أجيال طوال ولم يبق موجب لذلك التورط بعد حكم التاريخ ، فهذا الصديق يعرف أن آدم من الأنبياء والتزيدُ عليه لا يجوز وإن احتال فزعم أنه يكتب باسم الفن لا باسم التاريخ .

وهل يستطيع بفنه الروائي أن يخلق من الصور مثل ما سجل المؤرخ شيث بن عربانوس ، طيَّب الله ثراه ؟

ولكن ما حديث ذلك المؤرخ المجهول ؟

لم أكن أعرف عنه شيئا قبل سنة 1933 ، وإنما أهداني إليه أستاذنا المرحوم أحمد زكي باشا بعد أن انتهى ما كان بيني وبينه من خصومة وصيال .

فإن سألتم كيف ابتدأت تلك الخصومة وكيف انتهت فأنا أدوِّنها في سطور ثم أمضي إلى ترجمة شيث بن عربانوس بإيجاز ، تمهيداً لشرح آرائه في آدم وحواء بإطناب :

كانت وزارة المعارف قررت إقامة حفلة تأبين للشاعر أحمد شوقي ، حفلة يشترك فيها أقطاب الأدب في البلاد العربية ، وكان منهاج الحفلة يوجب أن يتكلم الضيوف في الأوبرا الملكية تكريماً لمَقْدمهم الحميد . أما أدباء مصر فيتكلمون في

(1) الرسالة : 24 فبراير 1942 .

الحفلات التي تقام بكلية التجارة ، وهي حفلات دامت ثلاثة أيام ، وكانت أشبه بسوق عكاظ ، فقد اتسع فِناء الكلية للمئات أو الألوف ممن يسرهم أن يستمعوا كلمات الخطباء وقصائد الشعراء .

ومضيت لأشهد الحفلة الأولى بكلية التجارة فهالني أن أسمع خطيباً يتنحنح بعنف ، مع أني لم أكن اجتزت عتبة الكلية ، فسألت نفسي كيف يصل صوت التنحنح برغم تلك الأبعاد الطوال .

وبعد لحظة فهمت أن الحفلة أقيم لها ميكروفون ، وأقيم لذلك الميكروفون مسامع في جميع الأركان . فمن السهل أن يسمع صوت الخطيب جميع المارة بشارع «قصر العيني» أو شارع «أفراح الأنجال» ، ولا تسأل عما تصنع النحنحة وقد ضجت بها مسامع ذلك المذياع ؟

ونظرت فإذا الخطيب أحمد زكي باشا . فكيف غاب عنه وهو عالم علامة أن الميكروفون سينقل إلى الجيران وجيران الجيران نحنحته القوراء ؟

أما كان في مقدوره أن يدير وجهه أو يدير الميكروفون قبل أن يقترف ذلك الصوت ؟

أضحكني أن يقع شيخ العروبة فيما وقع فيه فأخذت أترصد له غلطة أدبية أو تاريخية لأهجم عليه في جريدة البلاغ ، ثم اتفق لحسن الحظ أن قال كلاما غير صحيح ، وهو يتكلم عن مدح الرسول في «نهج البردة» ، وكنت يومئذ مشغولا بتأليف كتاب «المدائح النبوية» فوجدت عندي من المحصول الأدبي والتاريخي ما يكفي لإفحامه بلا عناء .

وما كادت تظهر كلمتي فيه حتى اندفع الرجل لمصاولتي على صفحات البلاغ بأسلوب ساحق ماحق ، وكان رحمه الله آية في الكرّ والفرّ ، وكان لا يهجم على باحث إلا تركه كالرفات ، بفضل اطلاعه الشامل وذكائه الوهّاج .

كنت يومئذ بين نارين : نار الخوف من التطاول على شيخ جليل خدم اللغة

والأدب والتاريخ ، ونار الخوف من الهزيمة أمام القراء ، وأنا محرر الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ .

وفي تلك المعمعة قدم الباشا للبحث عني في الجريدة ومعه الأستاذ عبد الرحمن بك عزام فحدّق في وجهي وقال : أما تستحي من شتمي وأنا أستاذك ؟

فتماسكت قليلا ثم قلت : وأنت يا باشا . أما تكفّ شرك عن تلميذك ؟

فابتسم عبد الرحمن بك وقال : لا موجب للجدل بعد هذا العتاب اللطيف !

ولكن زكي باشا لم يسكت عني ، ومضى يلاحقني بإيذاء لم يفضّه غير الحادث الآتي :

كانت حوادث فلسطين وصلت إلى آلام وجراح ، فأرسل زكي باشا إلى الحاج أمين الحسيني برقية مطولة كلفته أحد عشر جنيهاً ، وكان ينتظر أن يصل إليه جواب رقيق ، ولكنه لم يتلق أي ردّ من الحاج أمين ، فكتب إليه يسأل عن سر ذلك السكوت فكان الجواب أن البرقية وصلت ، ولكنها لم تكن بإمضاء «زكي باشا» وإنما بإمضاء «زكي مبارك» !

وامتشق زكي باشا قلمه وأنشأ مقالا أخذ أربعة أنهر من جريدة الأهرام ، وكان في مقاله أن عامل التلغراف حرّف الإمضاء ، فإن كان من مصر فإلى «الليمان» وإن كان من فلسطين فإلى «البحر الميت» وأعلن زكي باشا أن التحريف مقصود ، وكانت حجته أن «زكي باشا» قد تُحرّف إلى «زكي الإبراشي» بسبب «الشين» ولكنها لا تحرف إلى «زكي مبارك» .

وامتشقت قلمي فكتبت رداً وجيزًا نشرته الأهرام في أول نهر من الصحيفة الأولى ، وكان الرد يتلخص في أن «زكي باشا» هو نفسه الذي أمضى باسم «زكي مبارك» ، وحجتي أن الباشا مشغول بمناوشتي على صفحات البلاغ ، فأنا ملء قلبه، ومن السهل أن ينسى اسمه ويذكر اسمي ، ورأي زكي باشا ان التعليل مقبول، فذهب إلى إدارة التليغراف وطلب أصل البرقية ، ثم ابتسم حين شاهد أنها

باسم زكي مبارك ، وبخط الباشا الظريف ؟

لم يكن بدّ من أن يدرك زكي باشا أن الأقدار أرادت أن تطوقه بالخطأ ليكفَّ عني أذاه . فاتصل بي تليفونياً ليدعوني إلى العشاء وإمضاء عقد الصلح ، فأجبت بالقبول .

دخلت على الباشا العالم العلامة «العالم حقاً والعلامة صدقاً فزكي باشا طراز وحيد من العلماء ، وليس من السهل أن يجود بمثله الزمان» . دخلت على الباشا فوجدته في ثياب البيت وهو يلعب الشطرنج مع الدكتور «أحمد عيسى» ؛ فأشار بعد السلام إلى أن أنتظر لحظات ، فسيغلِبُ الدكتور أحمد عيسى ثم يلتفت إلى واجب الترحيب !

ومرَّت ساعة وساعة والخلائق تتقاطر بميعاد وبدون ميعاد ؛ فعرفت أن العشاء في بيت زكي باشا ليس لمن دُعِي إليه ، وإنما هو لمن تداعوا إليه !

ثم مُدَّ السماط على الطريقة العربية ، وأقبل خادمٌ فقدَّم إلى الباشا ورقة مطوية فمحا الباشا كلمة وأبقى على كلمة . فماذا محا ؟ وماذا أثبت ؟

كان التفاضل بين نوعين من الشراب : أحدهما عصير الشعير وثانيهما منقوع الخروب . وقد رأى الباشا أن يكرم ضيفه المتخرج في السوربون فاختار الشراب الأول وهو شراب أصهب يُستطاب في ليالي الصيف !

لم أكن دخلت «دار العروبة» من قبل ، ولا كنت عرفت كيف ظفرت بذلك اللقب الطريف ؛ كان مبلغ علمي أن صاحبها يتحدث عن العروبة كل يوم ؛ فهي دار العروبة لأنه شيخ العروبة ، والألقاب لا تعسر على أحد في هذا الزمان !

وفي تلك الليلة عرفت ما لم أكن أعرف : عرفت أن زكي باشا يسير سيرة العرب القدماء ، فبيتُه مفتوح للجميع ، ومن حق أي إنسان أن يحضر وقت الغداء أو وقت العشاء بدون احتياج إلى استئذان ، على شرط أن يترك للباشا حرية التصرف في وقته بعد رفع السماط .

والحق أن زكي باشا كان ينوب عن مصر في مهمة من أصعب المهمات ؛ فقد كانت داره مثابة الوافدين من الشرق، ولم يكن يحق لأي ضيف أن يتهم مصر بالبخل وزكي باشا موجود . وإنما نصصت على هذا الجانب من شمائل زكي باشا رعايةً للتاريخ ، وأملاً في أن يقتدي به من يسرهم إكرام من يفد على مصر من أهل الشرق . فمن العيب أن يذهب السخاء العربي إلى غير معاد وكانت له مواسم في هذه البلاد !

وقد سمعت عن كرم زكي باشا في سره وعلانيته أخباراً لا يصدقها العقل ، جزاه الله عما صنع خير الجزاء ، وحفظ اسمه بين الكرماء ، كما حفظ اسمه بين العلماء .

ثم أرجع إلى الغرض من هذا الحديث فأقول :

جلست أسامر زكي باشا بعد العشاء تمهيداً للصلح المنشود ، فقد كنت في سريرة نفسي أؤمن بأن التطاول على مثل ذلك الرجل قد يعرضني لغضب الله . وأنا أخاف الله أشد الخوف لأنه حماني من أن أخاف أحداً سواه ؛ فمن المخاطرة أن أُشجع في موطن لا تكون فيه الشجاعة من رضاه . وكذلك عزمت على أن أتلطف ما استطعت لأظفر من زكي باشا بالصفح الجميل .

ـ هذه أول مرة تأنس فيها «دار العروبة» بزيارة الدكتور مبارك .

ـ ليست هذه أول مرة أتشرف فيها بزيارة «دار العروبة» أعزها الحب !

ـ ما هذا الكلام ؟ وما رأيتك هنا قبل اليوم !

ـ سمعت أخبار دارك ، أيها الشيخ الجليل ، وكنت أشعر أني شرحت بالقلب لكل من يفد عليها من أهل الشرق ، وما غاب عني كرمٌ تؤدي به فرض الكفاية عن بلادنا الغالية ابتسم زكي باشا وقال :

ـ ما كان ضرّك لو قلت هذه الكلمة وأنت تلاحيني على صفحات البلاغ ليخف عتبي عليك!

ـ سأقولها يا مولاي لجميع الناس ، وسأملأ بها مسامع الأرض والسماء .

ـ اسمع ، يا مبارك ، اسمع ، إن أدبك في هذه اللحظة يستأهل جائزة سنية ، جائزة تذكرني بها طول حياتك ، وقد تكتشف لك عن أشياء من غوامض التاريخ القديم ، وهو التاريخ الذي أرادت شراستك أن تجعله ظنوناً في ظنون !

ـ أعظم جائزة أتلقاها من أستاذي هي رضاه عني .

ـ الجائزة العُظمى لمن كان في مثل أدبك أن تُهدى إليه النسخة الوحيدة من كتاب شيث بن عربانوس . أما رضاي عنك فهو مضمون .

ومضى الباشا لإحضار الهدية ، ثم عاد ومعه كتاب في أكثر من خمسمائة صفحة بالخط الكوفي ، وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدُور العاديّات [1] .

أقبلت على الكتاب بلهفة وشوق ، ثم لاحظت أن منزلتي عظُمت في قلب زكي باشا حين رآني أقرأ الخط الكوفي بلا عناء ، وعندئذٍ تذكرت جناياتي على نفسي وعلى مصيري في هذا الوجود .

وما تلك الجنايات ؟

سأتكلم بصراحة لأخدم قرائي ، فقد يكون فيهم من انحرف عن طريق النفع كما انحرفت .

يعرف الناس أني مثال الحرص على طلب العلم والأدب ، وتعرف مكتبتي أني صديق يزورها في كل يوم ، ويعرف قلمي أني أخلو إليه في كل ليلة ساعة أو ساعتين.

فكيف تخلفت مع ذلك الحرص ؛ وكيف جاز ، أن أكون واحداً من الناس ، وكفاحي يوجب أن أكون أوحد الناس ، لو نجوت من ذلك الانحراف ؟

(1) صفحات هذا الكتاب غير مرقمة وما قدرتها بخمسمائة إلا على وجه التقريب ، ولو كان للعدد أهمية لعددته صفحة صفحة قبل أن أكتب هذا الحديث . (زكي مبارك)

يرجع التخلف الذي أعانيه إلى أني أقبلت على علوم وفنون يقبل عليها أكثر الناس ، ويصعب فيها الادّعاء لأن عليها رقباء يعدّون بالألوف .

أردت التفوق في علوم اللغة العربية فوصلت إلى أشياء ، ولكن علوم اللغة العربية مبذولة لجميع الطالبين ، وليس من العسير أن يكون لي نظراء في كثير من البلاد .

وأردت التفوق في الدراسات الجامعية فنِلت إجازة الليسانس مرة وإجازة الدكتوراة مرات ، ولكن الدراسات الجامعية لم تَعُد من الأسرار فمن السهل أن يكون لي فيها منافسون .

وأردت أن أكون من كتاب اللغة العربية وشعرائها وخطبائها فكان ما أردت ، ولكن هذا الميدان محفوف بالأخطار في كل صباح وفي كل مساء بسبب نشاط الزملاء .

وأردت أن أتفوق في اللغة الفرنسية فبلغت ما أريد ، ولكن اللغة الفرنسية يجيدها ألوف أو ملايين ، فأين مجال التفرد والازدهاء ؟

آه ، ثم آه !!

كان الرأي أن أقصر جهودي على اللغات الميتة ، وهي لغات يدّعيها من شاء وكيف شاء ، بلا رقيب ولا حسيب . ألم تسمعوا أن في الناس من يزعم أنه يجيد عشر لغات من لغات القدماء : كاللاتينية واليونانية والديموتيقية والسريانية والبابلية والحبشية والسنسكريتية والفهلوية ، إلى آخر ما تعرف الأنظمة الاجتماعية ؟!

من الذي يحاسب مدرس اللغة اللاتينية إذا أخطأ ؟ ومن الذي يجادل مدرس اللغة الديموتيقية إذا انحرف ؟ ومن الذي يراجع مدرس اللغة البابلية إذا حاد ؟ ومن الذي يتقدم فيردع من يخلط بين النصوص الحبشية والحميرية ؟

عرفت فيمن عرفت رجلاً يعجز عن كتابة صفحة سليمة باللغة العربية ، مع

انه من أبويين عربيين ، ولم يمنعه ذلك الضعف من أن يكون أستاذ اللغة البابلية في إحدى الجامعات الأمريكية!

وعرفت فيمن عرفت شخصا يتصدر لتدريس إحدى اللغات الميتة في كلية تحيط بها حديقة بالقرب من نهر له مكانته في التاريخ ، وهو شخص لا يجيد لغة قومه الأحياء ، فكيف يسهل عليه فهم لغة مات أهلها منذ أزمان ؟

لو أني أتلفت إلى هذه الناحية لأرحت نفسي من منافسات لا تطاق .

كان من السهل أن أتعلم الأبجدية من إحدى اللغات الميتة ، فالأبجدية تكفي للتفوق في اللغات البوائد !!

وهل فُضح فلان لأنه أخطأ عشر مرات في خمسة سطور كتبها باللغة العربية إلى عميد إحدى الكليات بأحد البلاد ؟

هو متخصص في اللغة الأكادية ، أو اللغة القنقلية ، فكيف يطالب بإجادة اللغة العربية ؟

وهل يستطيع أحد أن يطالب الدولة بمحاسبة هؤلاء وهو يعرف أن الدولة تريد أن تسامي الأمم الأوروبية والأمريكية في الحذلقة الجامعية ؟

الدولة على حق والشاهد الآتي يؤكد ذلك الحق :

قال فلان : القنقلون كلمة آرامية ، وهي الكنكلون في السريانية ، والفنكلون في البابلية ، والكنفلون في الآشورية ، ومعناها القنقلون ، والوصف منها متقنقل ومتكنكل ، ومتفنكل ، على خلاف في صياغة الأوصاف .

ومن أجل هذا العلم الغريز تنفق الدولة ما تنفق لإحياء لغات ماتت في بلادها الأصلية بسبب انعدام الحيوية ، وعلينا نحن أن ننفض عنها أتربة القبور ، لأننا موكلون ببعث الأموات .

الأوروبيون يدرسون اللغة اللاتينية واللغة اليونانية ليعرفوا أصول لغاتهم

ولينقلوا ما في هاتين اللغتين من نفائس الآداب .

وقد عرفت اللغات الحية في أوروبا خير ما أثر عن اللاتينية واليونانية ، ونحن لن ننقل تلك الآثار إلى لغتنا إلا عن الفرنسية أو الإنجليزية ، فما الموجب لقتل الوقت في درس لغات ميتة لن ننقل عنها أي حرف ؟

يضاف إلى ذلك أن الشواهد تنطق بأن الشبان الذين قهرناهم على درس اللغات الميتة قد ضاعوا على مصر وعلى أنفسهم من الوجهة العقلية ، وإن كانوا أساتذة محترمين ، وكيف لا نحترم من يعرف من أسرار القنقلون ما لا نعرف ؟

أتريدون الحق ؟

الحق أن مصر تبتدئ من حيث انتهى الناس .

والحق أن مصر تحاول أن تخلق من الدراسات الجامعية لوحة إعلانات عن قربها من العقلية الأوروبية ، وكأنها لم تسمع أن أوروبا بدأت تنفض يديها من التعصب للأموات .

لو أن ما أنفق على درس اللغات الميتة كان أُنفق على ترجمة ما أثر من تلك اللغات لظفرنا بنفائس تزيد في ثروتنا الذوقية والأدبية ، ولكننا أطعنا الوهم فأضعنا أموال الدولة وأعمار الطلبة في شؤون قليلة النفع والغناء ، مالي ولهذا ؟

أنا أضعت الفرص السوانح في درس أبجديات تلك اللغات ، وهي فرص لن تعود ، فما تستطيع الأمة بعد اليوم أن تنفق درهماً فيما لا يفيد ، إن صحّ أن الأمة صَحَتْ من غفوتها فأدركت الفرق بين ما يفيد وما لا يفيد !

إن زكي باشا طرب حين رآني أقرأ الخط الكوفي بلا عناء ، فكيف يكون حاله لو نظر فرآني أقرأ الخط السنسكريتي ؟

وهل أجهل الخط السنسكريتي ؟

أنا أعرف منه ما لا يعرف فلان ، فليجادلني فيه إن استطاع !

افتحوا أعينكم يا بني آدم من أهل هذه البلاد ، واعرفوا أن الحذلقة الجامعية لن تنفعكم في كثير أو قليل ، وتذكروا جيداً أن العلم الصحيح هو علم هذا الزمان، وستأثم الجامعة المصرية إن شغلت عنه بأوهام التاريخ .

اسمعوا قبل أن لا تسمعوا ، فأنا أخاف عليكم أشياء لا تخطُر لكم في بال ، وهذا نذيرُ من النُذُر الأولى يصوّبه إلى عقولكم كاتب يبغض المداهنة والرياء .

(للحديث شجون)

2ـ حديث المؤرخ المجهول[1]

أرجع ثانية إلى الغرض من هذه الأحاديث فأقول :

كتاب شيث بن عربانوس يؤرخ عهد آدم في الجنة وعهده في الأرض ، وكان ذلك لأن المؤلف قريب الزمن نسبيا من هذين العهدين ؛ فقد ولد في العام الثاني بعد انحسار الطوفان ، وإذن فهو أقدم نسل حفظته الأرض بعد نجاة من نجا من قوم نوح ، وأول عقلية علمية في ذلك العهد البعيد ، إن صح أنه شخصية حقيقية من شخصيات التاريخ .

ولكن ما قيمة هذا الكتاب ؟ وما وزن حديثه عن آدم وحواء ؟

عرضته على دار الكتب المصرية وعلى مكتبة وزارة المعارف وعلى مكتبة الجامعة المصرية فلم أجد من يعترف بقيمته التاريخية ، وإن كان مكتوبا بالخط الكوفي ... وهل كنت أجهل أن الطعن في صحته من الممكنات ؟ إنما كان همي أن أنتفع بثمنه ، وأن أمكَن الجمهور من الاطلاع على ما فيه من مقاصد وأغراض ، ولكن الأمل في الانتفاع بثمنه أمسى خيالاً في خيال ، ولو ثبت أنه نسخة قيمة من نسخ الإنجيل ، وهل زكّتني سفارة غربية أو شرقية حتى أبيع من المخطوطات ما أشاء ...؟ أنا مصريٌّ وآبائي مصريون ، فكيف أنتفع من مصر باسم العلم والأدب والتاريخ ؟

ألم تسمعوا حديث الأجنبيّ الذي استمصَر في سنة 1937 ؟

(1) الرسالة : 2 مارس 1942 .

كان أحد الأجانب يدرّس إحدى اللغات الحية بالمدارس الأميرية وبالمرتب الذي يتقاضاه الأجانب من المدرسين ، ثم لاحت لـه فرصـة للتجـنس بالجنسـية المصرية ، فأسرعت وزارة المعارف وردّته إلى «الكادر» الذي تعامل به المدرسين من المصريين ، كأنه انتقل من الهدى إلى الضلال ؛ وكان الظن أن تـراه انتقـل مـن الخوف إلى الأمان !

وإذا كانت المتاعـب تلاحـق مـن يستمصـر مـن الأجانـب ، فكيـف تصـنع بالمصري الأصيل ؟!

إلى الله يشـكو المصـريون شـقاءهم وعنـاءهم مـن التغاضـي عـن حقهـم في الانتفاع بثمرات البلاد!

إلى الله نشكو الغربة في الوطن الغالي ، ومنه نستمد العون على مكاره الزمان !

ما لي ولهذه الخـواطر المزعجـات ؟ وهـل قلـت المتاعـب الجديـدة حتـى نؤزّرها بمتاعب قديمة تأخذ وقودها من الذكريات ؟

أرجع إلى الغرض مرة ثالثة فأقول :

قبل الشروع في تلخيص كتاب شيث بن عربانوس أسجل أني غير مطمـئن إلى انه ألف في العصر الذي تلا الطوفان ـ وما أقول بأن ذلك مستحيل ـ فقد يكون مـن الممكن أن ننظر إلى الطوفان من وجهة معنوية ، فنعده مرحلة من مراحل الغفوات الروحية في الحياة الإنسانية ، ونعدّ العصر الذي تلاه عصر يقظة ونهضـة وإحيـاء ، وعندئذ يصبح من السهل أن نفترض أن ذلك العصر يصلُح لما صدر عن شيث بن عربانوس من أفكار وآراء .

ولكن هنالك عقبة تمنع من ذلك الافتراض ، وهي إجماع الكتب الدينية عـلى أن الطوفان وقع بالفعل ، وإنه لم يبق من السلالة الإنسانية إلا ما حفظتـه سـفينة نـوح ... ومن الواضح أن تلك البقايا كانت في شغل بتدبير حياتها المعاشـية ؛ فمـن العسـير أن نتصور أنها عرفت التأليف والمؤلفين إلا إن توغلنا في شعاب الفروض !؟

يضاف إلى ذلك أن المصادر التي تحت أيدينا لم تتحدث عن شيث بن عربانوس ؛ ولم نسمع أن اسمه ورد في كتب المستشرقين ـ وهم حجة فيما يتصل بمجاهل التاريخ في الشرق ـ وقد يعرفون منه ما يجهل الشرقيون !

فأين وجد أحمد زكي باشا ذلك الكتاب ؟

كان في النية أن أوجه إليه هذا السؤال ، ولكن المنية عاجلته فقضت بأن تطول الحيرة في مصدر ذلك السفر الغريب .

وفي الحق أني غير مصدق لكتاب لغته العربية مع أنه ألف بعيد الطوفان .

وهنا أذكر حادثة في نهاية من الغرابة ، ولكنها وقعت على مسمع من جمهور كبير في أروقة السوربون يوم أديت امتحان الدكتوراه في الخامس والعشرين من إبريل سنة 1931 ؛ فقد حاجني المسيو ماسينيون حِجاجا عنيفا حين رآني أنكر أن تنشأ اللغات بالتوقيف .. وإن عادت الدنيا إلى ما كانت عليه ورأيت المسيو ماسينيون بعافية فسأراجعه في هذا الحِجاج ؛ فما يستطيع ذهني أن يسيغ فكرة التوقيف ؛ وإنما أعتقد أن اللغات ظاهرة إنسانية يصنع بها التطور ما يصنع على اختلاف الأجيال .

المهم أن أسجل أني مرتاب في كتاب شيث بن عربانوس ، ولن أقبل نسبته إلى العهد البعيد ، العهد الذي تلا الطوفان . وأين نحن من الطوفان وهو صورة حائرة لم يبق من ملامحها غير أطياف ؟

فمتى أُلف هذا الكتاب ، إن صح ذلك الارتياب ؟

إن لغته مزيج من القرشية والحميرية ، فهل أُلف قبل أن تصير لغة قريش لغة التخاطب والتأليف في أشتات الجزيرة العربية وفيما خضع لسلطانها الأدبي من الممالك الإسلامية ؟

ألا يكون مؤلفه صنع ذلك عمداً على سبيل التضليل ؟

الله وحده هو الذي يعلم ما مرّ بهذه الوثيقة التاريخية من تمحّل واحتيال .

المشكلة الأساسية

أترك الكلام عن صحة كتاب شيث ، وأنتقل إلى تشريح ما فيه من معاني وأغراض فأقول :

يقع الفصل الأول في صفحات تصل إلى الخمسين ، وفي هذا الفصل نقض للنظرية التي تقرر أن آدم استكان لحواء ، فتركها تعصي الله كيف تشاء ، فالمؤلف يقرر أن آدم كان تعب من الإقامة في الجنة ، وكان يتمنى لو استطاع أن يخرج منها بأي حال وعلى أي أسلوب ليتنسم روح الوجود ، لا روح الخلود ، فقد كان يعرف بفطرته أن الخلود إنما يأخذ صورته من الوجود[1] .

وثورة آدم على الجنة لها أصل : فقد كان يرى أنه لا يليق بالإنسان أن يأكل طعامه بلا جهاد ، وكان يرى من الضعة والمهانة أن يُترك المرء بلا متاعب ولا تجارب ، وهو لم يخلق إلا للكفاح والنضال .

وزاد في همّ آدم أن حواء كانت في الجنة بلا ضرّة ، فلم تقهرها الغيرة على التسابق إلى مواقع هواه ؛ بدليل أنها كانت تنساه أو تتناساه عامًا أو عامين ، بلا تلهف ولا تشوّف ، لأنها تعلم أنه لن يكون لسواها من النساء ، ولو أضمر من ضروب الخيانة ما يريد خياله الحبيس ، وإلا فكيف جاز أن تقضي في الجنة أعواماً بلا تبرجّ ولا اختيال ؟

وفي هذا المقام نقل شيث أبياتًا عزاها إلى آدم عليه السلام ، وهي من النظم الركيك ، فلا موجب لإثباتها في هذا التخليص ، ويكفي أن نشير إلى معناها لجودته

(1) نحن لا نوافق شيث بن عربانوس في كل ما رواه ، والغرض هو تقديم صورة جديدة من آراء لم تكن معروفة من قبل . (زكي مبارك)

(الرسالة) : ونحن نقول مرة أخرى إن الدكتور مبارك كاتب معدود فعليه وحده تبعة ما في رأسه من آراء ، وما في مكتبته من كتب .

وصدق مغزاه ، وهو يقول بعبارة صريحة إن حواء لم تكن تفرق بين البلادة والعقل، ولم تكن تعرف أن التودد إلى الرجل والترامي عليه في رقة ودلال لا ينافي الأدب والحياء .

كذلك قال آدم في رواية شيث . وعلى فرض أن الرواية صحيحة فإنه مخطئ ـ وأنا أريد آدم الرجل لا آدم الرسول ـ وإنما أخطأ لأنه يصف أن التلطف يجب أن يصدر أولا عن المرأة، والتلطف هنا معناه الفتن وهو من جانب المرأة الدلال ، ومن جانب الرجل صيال .

إذا كانت حوّاء أجرمت في ترك آدم عامًا أو عامين فآدم أجرم أيضا بسكوته عن تلك الظبية النفور بشكل من الحب العارم والوجد العَصوف .

وهنا تظهر مفاجأة من أغرب المفاجآت ، فشيث ينقل عن تأملات آدم خطرات تبدد ما وجهنا إليه من اعتراض .

وسأنقل تلك الخطرات بعبارة سهلة تقربها من أذهان القراء بعض التقريب «لأنها في لغة شيث لا تخلو من غموض والتواء» ثم أنقدها برفق رعاية لمكانة ذلك الجد الجليل .

كان جلوس آدم على شطّ الكوثر من وقت إلى وقت يوحي إليه أفكارا في غاية من الطرافة النسبية ، لأنه أول إنسان شهد الوجود ، على أرجح الفروض [1] .

كان يعرف ان الجنة في غاية من العَرض والطول ، بحيث تتسع لسكان الأرض والسموات [2] فكيف جاز أن لا يكون فيها غير نهر واحد ؟

كذلك قال آدم في رواية شيث ، وهو قولٌ خاطئ ، فوحدة النهر في الجنة لها مغزى جميل ، لأنها ترد أهل الجنة إلى مزاج متقارب في فهم الأشياء . وهل يختلف سكان الأرض إلا باختلاف الطعوم فيما يأكلون وما يشربون ؟ لو اتحد مذاق

(1) لهذه الإشارة معنى سنرجع إليه حين يجيء مكانه من هذه الأحاديث .

(2) هل كانت عند آدم فكرة عن الأرض والسموات ؟

الطعام والشراب بين جميع سكان الأرض لقل بينهم الخلاف . ألم تروا كيف تختلف الطبائع بين الحيوانات اللحمية والحيوانات النباتية ؟

إن القط في صورة الأسد ، ولكنه ليس في صولة الأسد ، لأن معدته لا تأخذ من اللحم إلا عُشر معشار ما تأخذه معدة الأسد ؛ وهو يروّع الكلب الضخم بأقل إشارة ، لأن الكلب لغفلته قد يكتفي بالأطعمة المكونة من عناصر نباتية !

وما أقول بأن اللحم أفضل من النبات في جميع الأحوال ، وإنما أقرر أن اختلاف الأغذية هو السبب الوحيد في اختلاف الطبائع . وكذلك أقول في اختلاف الفصول ، وهل كان اطراد الجوّ في الجنة على نسق واحد إلا بشيرا بما سيكون بين أهل الجنة من وفاق وصفاء ؟

وكانت غيبة حواء عن آدم توحي إليه التفكير في منافع الأعضاء . كان يتأمل فيرى أن الله خلق للإنسان عينين وأذنين ولساناً واحداً فما سر ذلك ؟

يجيب آدم ـ فيما روى عنه شيث ـ بأن الله أراد أن يكثر زاد الإنسان من المرئيات والمسموعات ، ولا بأس بأن يقل نصيبه من المنطوقات ؛ لأن الرؤية والسماع من ضروب الانتهاب ، أما النطق فمن صنوف الإعطاء فهو تسليم وانسحاب .

وقد ابتسمت حين قرأت هذا الكلام . فعنه أخذ الشاعر الذي سجل أن المرء يقبض يده عند الولادة ويبسطها عند الموت ، وإن جهل التعليل على وجهه الصحيح .

وتحرير هذا المعنى أن المرء عند الولادة مقبل على الحياة ، فهو يقبض يده ليشير إلى أن وظيفته هي الأخذ والنهب ، وهو يبسط يده عند الموت ليشير إلى أن التبذير من صور الفناء .

ثم يمضي آدم في تأملاته فيقول : كيف يقنع من رُزق بعينين باصرتين بوجه واحد : وهو وجه حواء ؟ وكيف يقنع من رُزق أذنين واعيتين بصوت واحد : هو

صوت حواء ؟

من هذا التأمل العارم كان ضجر آدم من وحدته في الفردوس ويظهر أن آدم كان وُهب فكرة الاعتراض والجواب ، فقد خطر له أن حواء لها أيضا عينان وأذنان ، وأن من حقها ان تفكر في مثل ما فكر فيه ، إن أقيم للعدل ميزان .

ثم يجيب آدم بان تساوي الجوارح بين الرجل والمرأة ليس دليلاً على التساوي في المواهب ولا دليلاً على التساوي في الإحساس . ويبلغ غاية الشوط فيقرر أن المرأة كانت بعينين وأذنين لأنها أخذت من ضِلع الرجل فهي من صوره الوجودية ، أو هي الشكل الذي يرضيه أن تكون عليه ليتم بينهما الانسجام في حدود الإمكان .

وأقول إن هذا الكلام هداني إلى كثير من المعاني :

فالحوَل يكثُر في النساء ويقلّ في الرجال ، ومعنى ذلك أن للذكر مثل حظ الأنثيين ، حتى في القوة البَصرية[1] .

وإذا وُجد العَور في إحدى السلالات فالطفلة ترثه قبل الطفل .

وإذا كان أحد الأبوين غبياً دميمًا وثانيهما ذكيًا جميلاً فالغالبُ أن يرث المولود الذكر ما عند أبويه من الذكاء والجمال [2] ويؤيد هذا أن الديك أجمل من الدجاجة ، وأن الجواد أجمل من الفرَس ، وهذا الحُكم مطّرد في أكثر المخلوقات ، وهو يظهر واضحا في أشجار التوت ، بغض النظر عن ظهوره في سائر الأشياء .

وإذا صدقنا رواية شيث بن عربانوس عما كان بين آدم وحواء فلن يفوتنا أن نسجل أن آدم هو الذي نطق قبل أن تنطق حواء ، وهل كان لتلك المرأة تاريخ في الجنة غير انصياعها لدسيسة الحية ، وعن الأنثى تنقل الأنثى أصول الفساد ؟

الظاهر أن للذكورة خصائص لا تصل إليها الانوثة بأي حال . والظاهر أيضًا

(1) سنرجع إلى هذا المعنى بشيء من التفصيل .

(2) واللون يرثه أيضا الذكر قبل الأنثى .

أن الرجال لن يزالوا بخير ما فطِنوا لمكر النساء . وهل انخدع آدم بحيلة حواء أو حيلة الحية إلا في لحظة من لحظات الضعف [1] .

وأستطرد قليلا فأقول :

وقع في هذه الأيام حادثٌ فظيع ، هو اصطدام أحد كبار الموظفين بسيارة يقودها أجنبيٌ سكران ، وعُلَق الموظف بمقدم السيارة ، ومضى السائق ينهب الأرض لينجو من العقاب . وتنبهت لخطر الحادثة الفادحة سيدة مثقفة ، فمضت بسيارتها في ملاحقة ذلك الجاني الأثيم ، ولكنها فوجئت بإشارة مرور فوقفتْ !!

وهنا الشاهد الذي أريد : فلو كان في سيارتها رجل لداس إشارة المرور في سبيل الواجب ؛ ولم يترك ذلك الجاني الهارب بلا اقتناص أو افتراس .

هي امرأة وإن نالت إجازة الحقوق ، وطاعة إشارة المرور هي في نفسها الصورة الحرفية لطاعة الواجب ، أما تشريح هذه الدقائق فهو من خصائص الرجال ، والرجل هو الذي يدوس جميع الأنظمة في سبيل الإعزاز لما يؤمن بأنه حق .

وجملة القول أن سخرية آدم من مواهب حواء لم تكن طغيانا في طغيان ، وإنما اعتمدت على قواعد وأصول . ولم تقع من آدم إلا لأنه كان يستوحي الفطرة والطبع، ولو أن الجنة لعهده كان فيها مدارس وكليات لكان من المرجح أن يكون حديثه عن حوّاء مُغلَّفاً بالرياء !

ثم تجيء عقدة أغرب وأعجب ، وهي تفكير آدم في مسألة النسل ، وهي مسألة لم يفكر فيها آدم إلا بعد تأمله لما في الجنة من فصائل الطير والحيوان ، ولم يكن فطن إلى أنها مسألة تلحق عالم النبات ، وقد تمس عالم الجماد .

ومن كلام شيث نفهم أن تفكير آدم في مسألة النسل لم يصر من المعضلات

(1) سيجيء لهذه النقطة توضيح في كلام شيث .

النفسية ، وإنما يعتاده من حين إلى حين ، ثم ينصرف عنه بالانشغال بمداعبة حواء، كأن يرميها بنواة من نوى الجوز ، أو يقذف بها في «الكوثر» على حين غفلة ، أو يدوس شعرها الذيّال .

والحق أن عقم آدم في الجنة يحتاج إلى تأويل .

أليس من العجب أن يكون كل ما في الجنة خصباً في خصب ونماءً في نماء ، إلا فيما يتصل بآدم وحواء ؟

كان الشجر والزهر والنبات والطير والحيوان ، كان كل أولئك في حيوية مخصبة لا يعتريها ضعف ولا خمود ؟ وكان ثرى الجنة ينبت الأفانين من الألوان كل يوم : وكان هواؤها يتجدد في كل لحظة بأسلوب يدل على أن الهواء مخلوقٌ له روح ، وكانت أسماك الكوثر تجتمع وتفترق بأريحية ودلال ... كان كل ما في الجنة على جانب من الذاتية ، ولو كان من صغار الدوابّ والحشرات ، أو ضعاف الذباب والبعوض ، ولجميع الخلائق في الجنة مكان .

ازدهرت الجنة في أغلب مناحيها وأثمرت ، وخُصَّ بالعُقم آدم وحواء ، فما هي الأسباب ؟

لم يفكر شيث بن عربانوس في تعليل هذه الظاهرة الغريبة . ونحاول تعليلها فنقول :

كان سبب ذلك العُقم فيما نفترض ان حياة آدم وحواء في الجنة كانت حياة دعة وهدوء واطمئنان وأمان ، وهذا اللون من الحياة يخمد الحيوية الجنسية والمعنوية ، ويحوّل الرجل والمرأة إلى حيوانّيْن جامدين لا يفكران في التسلح لدفع عوادي الوجود .

والذي يقرأ ما أُثِر من الآداب الفطرية يلاحظ أن النسل لم يكن يُبتغى للزينة ، وإنما يبتغى للدفاع والحفاظ ؛ ومن هنا كانت قلة النسل من خصائص الأمم التي يقل خوفها من العدوان أو تقل رغبتها في السيطرة والاستعلاء ؛ ومن هنا أيضاً كان

الناس يفضلون البنين على البنات ، لأنهم لا يبتغون من الذرية غير القدرة على مكافحة الباغين والعادين من الخصوم والنظراء .

ولم يكن لآدم في الجنة نصيبٌ من الخوف ، فقد كان ينام حيث يريد بكل اطمئنان ، كان يتفق له أن يجعل صدر الأسد الرابض وساده الرفيق ، وقد طاب له مرة أن يطوّق «حوَّاء» بعقد مؤلف من أفراخ الثعابين .

ومع هذا لم يكن «آدم» يدرك ما في هذه المظاهر من غرابة وشذوذ ، فما كان سمع ولا عرف أن في الوجود أشياء فيها إيذاء .

وأقول : إن ذلك الأمان الموصول هو الذي أخمد عواطف «آدم» وأغناه عن التسلح بالنسل ، وحبّب إليه طعم القرار والهدوء والخمود . وكذلك صنع الأمان «بحواء» ، فغفت عواطفها الجنسية ، واستنامت إلى العُقم ، وهو مرض لم تلتفت إليه إلا حين رأت إحدى الظبيات تباغم رشأها الوليد في بعض غياض الفردوس .

ويؤيد هذه النظرية أن «آدم» لم ينجب إلا حين هبط الأرض ، فقد شعر بالخوف ، وأدرك أن لا بد له من أنصار وأعوان من الأبناء .

ومعنى ذلك أن الذرية ضرب من الفاعلية الحيوانية ، وهي تصدر عن الرجل كما يصدُر السم عن ناب الثعبان .

وفي هذا المقام نشرح ظاهرةً لم تُشرح من قبل ، وهي ما يلاحظ من قلة النسل عند العبقريين ، فما التعليل الصحيح ؟

يرجع السر إلى أن السلاح الماضي في يد العبقري هو مواهبه الذاتية ، فهو يحارب بالفكر قبل أن يحارب بالنسل ، وهواه لا يقف عند إخضاع الخصوم من الأهل والجيران ، وإنما يمتد إلى إخضاع الألوف والملايين من سكان الشرق والغرب والشمال والجنوب .

والنسل الحِسّيّ عند الجاهل سلاحٌ موقوت يخلقه الخوف ؛ أما النسل

المعنوي عند العالم ، فهو سلاح موصول تخلقه الرغبة في السيطرة الدائمة على الأفكار والعقول .

ولهذا السبب كانت ذخائر الأمم من الذرية لا تصل عن طريق العبقريين ، لأن هؤلاء لا يشعرون بالانفعال الحيواني شعورا يكفي لأن تصدر عنهم الأنسال الكثيرة ، وإنما يتجه انفعالهم إلى جانب آخر هو الرغبة العاتية في غزو العالم عن طريق الفكر والبيان .

وهل فطن أحدٌ إلى المعنى المطوي في قول كُثيِّر :

بُغاثُ الطير أكثرها فراخاً وأُمّ الصقر مِقلاتٌ نَزُورُ

فما معنى ذلك ؟ معناه أن أم الصقر لا تحتاج إلى حماية ، فهي لا تكثر من الذرية . ومعناه أن ضعف البغاث يوحي إليها بالإكثار من الأفراخ لتقاوم خصومها بالقوة العددية في حدود ما تطيق.

والمشاهد أن المرأة الدميمة في الأغلب ولود ، كما أن المرأة الجميلة هي في الأغلب عقيم ، وكان ذلك لأن الدمامة تحتاج إلى حماية من الذرية ؛ أما الجمال فهو في ذاته قوة وسلطان .

وللملائكة في أذهان الناس صورة مجردة من النسل ، لأن الملائكة مؤيدون بقوة ربانية تغنيهم عن الاعتزاز بالأبناء .

والله عز شأنه «لم يلد ولم يولد» لأنه منزه عن الضعف تنزيها خاليا من الشوائب ، وهذا لا يمنع من أبوّته الروحية لجميع ما في الوجود ، إن صح التعبير بالأبوّة في الدلالة على رفق الخالق بالمخلوق .

وصفوة القول أن عقم آدم في الجنة له أصل ، فقد كان أكرم من في الجنة ، وكان المنطق يوجب أن يعيش بلا أسندة من الذرية غناه عن الكفاح والنضال .

ولكن ... ولكن الأقدار أرادت غير ما يريد ، فنقلته من الجنة إلى الأرض ، ليشعر بالخوف ، وليحتاج إلى معاصم من الأبناء ، وليذوق طعوما من الأفراح

والأحزان لم تكن تخطر له في بال .

والواقع أن الله كان أراد بآدم أشياء ، حين خلق له حوّاء ، فقد شغلته عن التكبير والتسبيح والتهليل ، وزيّنت له الثورة على ما في الجنة من أنظمة وقوانين .

وشيث يحدثنا أن آدم كان صدرُه ضاق بالجنة بسبب ما لها من أسوار وجدران تجعل من المستحيل أن يسلم من تعقب حواء ، وتفرض عليه التفكير في طلب النجاة ولو بالارتماء في أحضان الأرض ، مع أن بين الجنة والأرض فراغا لا يعبره الهابط إلا في أعوام أطول من أعمار الأشجان . وسنرى فيما بعد أنه لم يفق عند هبوط الأرض إلا بعد أزمان وأزمان .

هل كان آدم سعيداً في الجنة ؟

الظاهر أنه كان من السعداء ، ولكن شيث بن عربانوس يحدثنا أنه طفح الدم في الجنة بسبب صحبة حواء . فكيف وقع ذلك البلاء ؟!

وقع من عدم التكافؤ الروحي بين الرجل والمرأة ، فهما مخلوقان مختلفان إلى أبعد حدود الاختلاف . وزاد في النفرة أن آدم كان يميل إلى طاعة الله ، وأن حوّاء كانت تشتهي الخروج على طاعة الله . وتعليل ذلك سهل : فأسرع الناس إلى المخالفة عن أمر الحق هم الضعفاء .

صبرَ آدم ما صبر إلى أن وقع «حديث السِّدرة» ، وهو حديث سجله شيث بن عربانوس بأمانة ونزاهة وإخلاص . فما ذلك الحديث ؟!

3- حديث السدرة [1]

كانت حواء تعبت من عقل آدم ، وكان آدم تعب من جهل حواء ، وكان جوّ الخلاف ينذر بأن صاعقة ستنقض على رأسيهما بعد حين ... ولذلك الخلاف المزعج تفاصيل في كلام شيث بن عربانوس ، فما تلك التفاصيل ؟

كانت الأوامر والنواهي ثقُلت على آدم وحواء (لحكمة يعلمها الله) وكان آدم مع ذلك يتذرَّع بالصبر الجميل ، فيراعي الحدود بقدر ما يستطيع . أما حواء فكانت تتمرد من حين إلى حين ، وإن كان شيث يؤكد أن تمردها لم يكن في جوهره إلا فنًّا من فنون الدلال .

ويظهر من كلام شيث أن حواء لم تكن تدرك أن النعيم قد يزول بالعصيان ، فما دار في خَلَدها أن في الوجود مكاناً غير الفردوس يُنفى إليه العصاة والمتمردون، ولا جاز في وهمها أن ينقل الإنسان من دار إلى دار بسبب الثورة على الأدب والذوق . وكيف تدرك حواء هذا المعنى وقد ولدت في جنة دانية القطوف، ولم تسمع بأخبار الأرض إلا بعد أن قضى الله في أمرها بما أراد ؟

ويظهر أيضا من كلام شيث أن آدم كان يخاف الله أشد الخوف ، وكان يدرك بفطرته أن النعيم قد يزول بالعصيان ، وأن لا بد من تأديب حوّاء إن تمادت في الضلال .

كان آدم يفهم جيداً أن الله لا يتأذى بجهل الناس ، وإنما يوقع العقاب

(1) الرسالة : 9 مارس 1942 .

بالجاهلين لخروجهم على نظام الوجود ، وهو نظام يتأثر باليسير التافه من الانحراف ، لأنه غاية في الدقة والترتيب ، ولا يحتمل الثبات على الاعوجاج .

وكان آدم يقسم لئن رأى حواء ليذيقنها العذاب على ما اعتزمت من قُرب شجرة التين [1] ؛ ولكنه كان يتخاذل حين تُقبل عليه بجسمها الفينان ، وثغرها الرشوف ، فقد كانت ثناياها أحب إليه من حَبّ الرمان ، وكان قدها الرشيق نهاية ما يتصور من روعة الخطرات .

كان آدم يشعر بأن عزيمته تتحلل إلى أوهام حين يرى جسم حواء ، وكان يعجب من أن يكون في الأوامر والنواهي ما يضع حدوداً لسيطرة تلك الظبية العصماء.

والظاهر أن الجسد الجميل يزيغ البصائر والعقول ، وينقل الرجل من حال إلى أحوال ، ويضيف الحليم إلى طوائف السفهاء ، ولا عاصم للرجل من فتنة الجمال إلا أن حمته وقاية الله .

وكان قدّ حواء من القدود السمهرية ، وكانت لها مِشية تزلزل القلب والوجدان ، وكان لها في الضوء لون وفي الظل لون ، وكانت ظلال الأهداب توهم أن على خديها زغباً يشبه زغب الخوخ ، وكان غضبها أحلى من الرضا ، وقطيعتها أطيب من الوصال، وكان تثنِّيها وهي تتخطّر فوق شط الكوثر غريبة الغرائب في السحر والفتون.

وكان آدم أضعف من أن يقاوم حواء ، فقد كان في فورة الشباب ، والشباب جهل ، وكان أعجز من أن يرجع على نفسه بالتأديب والتهذيب وهو يعاقر الجمال لأول عهده بالوجود ، وأخطر الحب هو الحب الأول ، ولكل آدم في الدنيا حواء .

كان آدم يقسم ويُقسم ثم يقسم لئن رأى حواء ليقطعنها إلى قطع صغيرة حقيرة ثم يقدمها إلى ما في أرباض الجنة من ثعالب وذئاب ، جزاءً بما تقترف من التفكير في قرب شجرة التين ، ولكنه كان يُصعق حين تُشرف عليه بقدها المرهف

(1) اختلفت الأقوال في «الشجرة » فقال قوم : هي الكرمة ، وقال قوم : هي شجرة التين ، وشيث لا يذكر غير الشجرة الثانية .

وطرفها النشوان .

كان يبدأ بالزجر ، ثم ينتقل إلى العتاب ، ثم ينتهي بالاستسلام ، وذلك مصير الغرماء لأمثال حواء .

دعاها مرة إلى أحد الأدغال ليقتلها في خفية ويستريح ، فحماها منه جسمها المجدول بأسلاك الكهرباء ، فارتدّ وهو هائم حيران ، وعرف أن الهوى فرضُ على من وهبه الله نعمة الشعور بعبقرية الجمال .

كان آدم رجلاً وكانت حواء امرأة ، وإذا تلاقي رجل وامرأة فلا مجال لغير الغيِّ والضلال ، وقد غوى آدم بطاعة حواء فقضى الله في أمره بما سجل التاريخ .

جسد حواء صنع به ما صنع . جسد حواء غفر جهل حواء . جسد حواء فعل بآدم الأفاعيل ، فزيّن له الخضوع لهواها الأثيم .

كان آدم يضطرب ويرتعد ، حين تختال أمامه حواء بقدها المؤلف من الأحلام والأهواء ، وكان لا يعرف أين يضع قدميه وهي تساوره بعينين غافلتين عما تصنعان بقلبه المأخوذ ، وعقله الموقوذ، وهل يبقى لمن يصارع الجمال قلبٌ أو عقل ؟

جسد حواء صنع بآدم ما صنع ، ولكنه تماسكَ في إحدى اللحظات وقد جالسها تحت السّدرة فدار بينه وبينها ما سجل شيث من هذه الأحاديث :

ـ أين كنت يا حواء ؟

ـ وما أنت وهذا السؤال ؟

ـ من حقي أن أسأل .

ـ وليس من واجبي أن أجيب !

ـ إذن نفترق ؟

ـ وإلى أين تذهب ، وللجنة أسوار أمنع من الجبال ؟

ـ السور الحصين هو أنت يا شقية ، فإذا نجوت منك فقد نجوت من جميع المهالك والحتوف

ـ أنت تنجو مني يا آدم ؟ أنت تنجو مني ؟

«ونظرت إليه بعينين نجلاوين فخشع واستكان وهمّ بأشياء»

ـ كل ما فيك جميل يا حواء ، إلا التفكير في قرب شجرة التين ...

ـ والموت أهون من الصدوف عن شجرة التين

ـ هي محرمة بأمر الله

ـ وكيف وقد رأيت ظبية تعطو إلى أوراقها منذ لحظات بلا تهيب ولا تخوُّف ولا احتراس ؟

ـ الظبية حيوان

ـ ونحن من الحيوان

ـ ولكن التكاليف تجعلنا أعظم من الحيوان

ـ وما قيمة التكاليف ؟

ـ التكاليف لا توجه إلا إلى الحيوانات الراقية .

ـ وأنت حيوانٌ راقٍ يا آدم ؟

ـ لأني في صحبة حواء !

«وهنا وقع اشتباك بين خلقتين فطريتين لم يؤهلهما التهذيب لمراعاة الأدب في النضال والصيال»

ـ كان الظن أن تعرف ما نعاني من الظلم في الفردوس

ـ وماذا نعاني يا حواء ؟

ـ نعاني الخضوع للأوامر والنواهي ، وتلك أول مرة أفهم فيها المراد من وصف الله بأنه صاحب العزة والجبروت

ـ وهل يظلمنا الله يا حواء ؟

ـ انعدام المساواة من صور الإجحاف

ـ أتريدين أن نكون أشباهاً لما في الجنة من طير وحيوان ؟

ـ وما المانع من ذلك ؟

ـ المانع أننا ارتقينا ؛ وللرقيّ تكاليف

ـ وما حظنا من الرقيّ المقيّد بواجبات وفروض ؟

ـ وهو حظٌّ عظيم ، يا حواء

ـ وكيف ؟

ـ لأنه يجعل لنا إرادة ذاتية .

ـ ومعنى ذلك أنه يبيح لي أن أصارعك فأصرعك ؟

«وتصارع آدم حواء فانصرعتْ حواء »

ـ لا تنزعجي من الهزيمة ، أيتها الشقية !

ـ أحب أن عرف ماذا تأكل حتى صرت أقوى مني

ـ طعامنا واحد ، ولكن الروح مختلف

ـ يظهر أنك تأكل من شجرة التين [1]

ـ قوتي الحقيقية ترجع إلى الانتهاء عن أكل شجرة التين ، وطاعة الله هي أعظم سلاح يتسلح به الرجال

(1) في هامش الكتاب عبارة تفيد ان حواء كانت تتوهم أن آدم يأكل خفية من شجرة التين وأن ذلك سبب قوته العاتية (زكي مبارك)

ـ والنساء ؟

ـ الطاعة قوة ينتفع بها جميع الخلائق ، حتى الشجر والنبات .

ـ نحن إذن خُلقنا للمتاعب ، فالطاعة لا تتم إلا بجهاد عنيف

ـ الجهاد الصادق رزقُ نفيس ، يا حواء ، ولا يكون إلا بتوفيق ، فهو يستحق الشكران .

ـ أتريد أن أجاهد نفسي فأبتعد عن شجرة التين ؟

ـ ليتك تفعلين !

ـ اسمع يا آدم ، فعندي فتوى تنفعك

ـ أنتِ تُفتين يا حواء ؟

ـ دع اللجاجة ثم اسمع ... حدثتني الحية أن النهي عن شجرة التين نهيُ تنزيه لا نهيُ تحريم

ـ وإذن ؟

ـ وإذن يجوز قرب الشجرة بلا تعرض لغضب الله ، وإن تعرضنا للعتاب [1]

ـ اسمعي يا حواء واعقلي ... أنا لا أعرف الفرق بين نهي التنزيه ونهي التحريم . إنما أعرف أن الله نهي عن الشجرة ، وأعرف أن الطاعة واجبة ، وأنا أخشى عواقب العصيان

ـ قلت لك إن الحية حدثتني ...

ـ أنت في نعيم يحتاج إلى حراسة ، فاحترسي من الدسائس يا شقية !

ـ كل شيء جائز ، إلا أن تكون في الجنة دسائس ، فهذب كلامك يا آدم !

ـ الدسيسة لا تلاحق غير السعداء بالعيش الطيب والمواهب السامية .

(1) لم نر هذا الكلام في غير كتاب شيث . (زكي مبارك)

وستعرفين يا حواء صدق ما أقول إن استمعت كلام تلك الرقطاء

ـ قلت لك إن قرب الشجرة لن يعرضنا لغضب الله

ـ ولا يعرضنا للعتاب ؟

ـ عواقب العتاب هينة ، وهو في الأغلب يتوج بالإعتاب

ـ المهم في نظري أن نقف حيث وقفتنا الإرادة الربانية ، بلا تخريج ولا تأويل، فكل خروج عن الطاعة يترك في القلب حفرة ، والحفرة قد تتحول إلى هاوية ، وإذا تذوق المرء أو المرأة طعم الجموح فعلى الأخلاق العفاء

ـ أنا لا أفهم معنى النهي عن شجرة التين ، ولها ثمر معسول

ـ من حق الله أن ينهي عن الطيبات

ـ لأي غرض ؟

ـ ليختبر قدرتنا على ضبط النفس ، فلا قيمة لترك الأشياء الكريهة ، وإنما القيمة في ترك الأشياء الشهية حين يوجّه إليها النهي ، ولو عن طريق التنزيه ، كما أفتت الحية الباغية

ـ لا تذكر الحية بسوء فهي صديقتي

ـ آفة من الآفات أن تكون للمرأة صديقات !

ـ هل يغيظك أن يكون لي في الجنة رفيقة أسكن إليها من وقت إلى وقت ؟ أنت إذن لا تحبني

ـ أحبك حبا لا يطاق ، ولهذا الحب عواقب ستعلمين أنباءها بعد حين !

ـ قبلني إن كنت تحبني

ـ ستقبّلك الحية فهي أقرب إليك مني !

«وفي تلك اللحظة سُمع فحيح هو دعوة الحية ، فجرت إليها حواء ، وتركت آدم لمصارعة ما في صدره من آراء وأهواء ».

فماذا قال آدم لضميره وهو يحاوره تحت السدرة بعد انصراف حواء ؟

من كلام شيث نفهم أن آدم زلزل بعد ذلك الحوار ، فقد تأهبت نفسه لمناقشة الأوامر والنواهي ، وصح عنده أن لكل مسألة وجهين ، وأن من حقه كمخلوق مفكر أن يدرس ما يعرض لذهنه من حقائق وأباطيل .

بدا له أولاً أن الطاعة أفضل ، وأن الهيام بالتخريج والتأويل قد يكون من نزعات الشياطين ؛ ثم رجع فرجح أن النهي قد يكون ضربًا من الإغراء ، فليس بمعقول أن تكون ثمرة التين من الخبائث وهي فيما يظهر طيبة المذاق .

والتفت مرة ثانية فرأى من الحمق أن يخالف الرجل عن أمر الله من أجل امرأة.

ثم عاد فرأى أن تلك المرأة هي رفيقه الأول والأخير في الفردوس ، فما ارتاحت نفسه لرؤية الأشجار والأزهار إلا وهو مأهول الروح بهوى حواء .

هي امرأة لا تخلو من هوج وطيش وسخف ، ولكنها من ذوات المعاني ، فقد كانت تعرف كيف تصيره جذوة من الصبوة حين تشاء ، وكان آدم لا يتمتع بإشراق الفكر إلا في لحظات الصبوات .

ومن عجيب أمره أنه كان يتمثلها حين تغيب ، فقد كانت ذاكرته تعي الأصوات والألوان والحركات إلى الحد الذي يسمح بأن يعانق حواء وبينه وبينها فراسخ وأميال .

ولكن... ولكن الله نهاه عن الشجرة ، فماذا يصنع ؟ توجّه إلى الله بهذا الدعاء :

«يا خالق الكوثر ، ويا فاطر الأعناب والنخيل ، بك أستجير من ظُلم الجمال!

يا مبدع العيون الكحيلة ، والخدود الأسيلة ، بك استغيث من سحر الفُتُون !

أنت سويتني بيديك من جسد وروح ، وأنا بالروح أطيعك وبالجسد أعصيك، فهل ترى عدالتك أن الحسنات يُذهبن السيئات ؟

إن كنت ترى أن شجرة التين شجرة مسمومة فاصرف عنها حواء ، فلم تعد لي طاقة على مقاومة حواء ؛ ولطف صنعتك هو الذي جذبني إلى تلك الهوجاء .

وإن كنت ترى أن الهاوية تترقب من يعصيك فجرّد حواء من سحرها الفتّان لأملك من أمري ما لا أملك ، ولأستطيع الصبر عن ثغرها الرشوف ، فأنت يا مولاي تعلم أني بها من الهائمين .

أنا عبدك وحواء أمَتُك ، فاقض في أمرنا بما تشاء ، يا أحكم الحاكمين ».

وانتظر آدم أن يغيّر الله ما بنفسه بعد هذا الدعاء الصادق ، ولكن الأقدار سكتت عنه فظل مخلوقاً من جسد وروح ، أو من طين وماء .

وفي لحظة من لحظات الضجر عزم على المعصية ليعرف مكانه من الوجود .

في تلك اللحظة ظهرت حواء فهتف :

ـ إلى شجرة التين ، يا حواء !

ـ هل غيّرت رأيك ، يا آدم ؟

ـ بعض الشيء !

ـ أنت إذن تحبني ؟

ـ ومن أجل هذا الحب أتعرّض لمكاره وخطوب ، فقلبي يحدثني بأننا مقبلون على بلاء !

ـ لا تحزن فأنا معك

ـ من موجبات الحزن أنك معي ، يا حمقاء !

فكيف انتهت بهما الأمور تحت شجرة التين ؟

(للحديث شجون)

4- تحت شجرة التين[1]

جاهد آدم نفسه في حدود ما يطيق ... وماذا يطيق المرء وهو يجاهد النفس في أهواء تسوقها امرأة ؟ سينتهي أمره إلى الهزيمة ، إلا أن تؤيده قوة ربانية تصرف عنه السوء وترده إلى الاعتصام بالعقل . ولحكمة يعلمها الله ضعف آدم عن مقاومة حواء ، ودعاها إلى التلاقي تحت شجرة التين .

وهنا يذكر شيث في كتابه أن حواء تلكأت في الاستجابة لذلك الدعاء ، ولزمت مكانها تحت شجرة الطلح ، كأنها تريد أن تحمله على الإلحاح فيكون البادئ بالعصيان .

ولو تأمل شيث قليلاً لذكر تعليلاً غير هذا التعليل ، فالرأي عندي أن حواء توهمت أن لآدم رغبة في شجرة التين ، وأن تمنّعه لم يكن عن صدق ، وإنما كان يريد أن يحمّلها تبعة العصيان .

والحوادث تؤيد هذا الافتراض ، فما كاد آدم يخبر حواء بأنه سيسايرها فيما تريد حتى فترت رغبتها في قرب الشجرة المحرمة ، وأعلنت اكتفاءها بما أحلّ الله من طيبات الفردوس .

فما معنى ذلك ؟ وما مغزاه ؟

معناه أن حواء تحب أن تسلك في جانب يغاير ما يسلك آدم من الجوانب ، فقد أحبت حواء التين حين ثار آدم عليه ، ثم زهدت فيه حين رأته من هواه ، وإلا

(1) الرسالة : 16 مارس 1942 .

فكيف جاز أن يدعوها فلا تجيب وهي التي قهرته قهراً على أن يذعن لما تريد من قرب شجرة التين ؟

وابتسم آدم حين رأى حواء تهدأ بعد ثورة وتلين بعد شِماس ، ثم حمد الله على انحسار الغمة وانجلاء الضيق ، وأخذ في الاستغفار من الذنب الذي اقترف . فقد حدَّثه الضمير بأنه أذنب بالفعل ، وإن لم يذق الثمر الممنوع ، لأن نية السوء لا تقل بشاعة عن السوء في نظر الأخلاق ، وكان آدم يعرف أنه يعامل الله ، والله يحاسب على النيات بأقصى مما يحاسب على الأقوال والأفعال ، لأنه يحب لعباده أدب الملوك لا أدب العبيد .

ثم نظر آدم فلم ير حواء ، فأين ذهبت ؟

فتش عنها في غياضٍ كثيرة ، وسأل عنها أسراباً من الطير والظباء فلم يظفر بجواب ، فأين ذهبت ؟ وكيف ضاعت ؟ وما السبيل إلى مكانها في الجنة الفيحاء ؟

أتكون غضبتْ من طاعة آدم وكانت تحب أن يتمرد ؟

لقد خطر لآدم هذا الخاطر ، فقد علمته التجارب أن حواء لا تتمتع بالصحوة الجسدية والروحية إلا في أوقات الخلاف . وهل ذاق آدم حلاوة حواء إلا في لحظات الثورة على الأوامر الربانية ؟

أمرُ هذه المخلوقة أعجب من العجب ، فهي لا تحلو ولا تطيب إلا عند النضال ، وهي تفقد كل قيمتها حين تتناول شؤون الحب في طاعة مجردة من الإحساس ، كالطاعة التي تصدر عن فتاة لم تبلغ سن الكيد، وكيدُ المرأة إثمٌ جميل !

فكّر آدم طويلا في غيبة حواء ، وانزعج حين خطر له أن تكون حُرمت الثورة على ما ترى وتسمع ، وأنها لذلك سكنت إلى العزلة في جُنَينة مهجورة يسقيها نُهَيرٌ مجهول من رواضع الكوثر وهي رواضع تُعد بالألوف [1] .

(1) الرواضع: هي النهيرات التي تأخذ زادها من النهر الأعظم، أما الروافد فهي النهيرات التي تمده بالسيول.

وعاد آدم إلى نفسه ليعرف حاله في غيبة حواء ، فصحّ عنده بعد التأمل أن العبادة الصحيحة لا تكون إلا بالجهاد ، ولا جهاد بدون أهواء .

يجب أن يكون في الوجود حرامٌ وحلال ، لنشعر بالذاتية في قرب هذا واجتناب ذاك ، وإلا صرنا خلائق تواجه الوجود بلا اكتراث ، وإذا انعدم الاكتراث فقد انعدمت الأخلاق . وقد يكون العصيان على نية أفضل من الطاعة بلا إحساس، لأن المهم أن نُدان حتى نعصى ، ونثاب حين نطيع ، ولا يتمّ ذلك بغير النية الواضحة فيما نباشر من مختلف الأعمال ...

أتكون حواء ترهّبت فلاذت بأحد الكهوف ؟

ذلك ما خاف آدم أن يكون ، فالترهب نذير الموت ، وهو يكره لحواء أن تموت .

وكيف يعيش آدم إذا غفا كيد حواء ؟

لقد أبدعته إبداعاً وأنشأته إنشاءً ، حين تولَّت إضرام الجمر المكنون في قلبه الوسنان ، وآدم رجل ، والرجل يحفظ الجميل .

ومرّ حين وأحايين وحواء لا تعود .

وشعر آدم بانعدام أسباب الثورة والهدوء فأيقن بقرب الفناء

وما حياة الرجل إذا خلت من الأحلام والحقائق والأباطيل ؟

ما حياته إذا حُرِم التنقل من ضلالٍ إلى هدًى ، ومن هدًى إلى ضلال ؟

قيمة الرجل بالجهاد ، ولا جهاد بدون أهواء ، وقد أمسى صدر «آدم» وهو جلمود أملس لا ينبت الأزهار ولا الأشواك ولا يثبت فوقه تراب ولا ماء .

والتفت «آدم» فرأى من الخير أن ينقطع للاستغفار ليتوب الله عليه ، وهل أذنب حتى يتوب ؟

إن كان كل حظه من المعصية أنه رضي مسايرة «حواء» ، وقد ذهبت «حواء» ولم يبق موجب للقنوت والابتهال .

الموت أفضل من حياة تخلو من مقارعة هوى النفس في كل يوم . والرجل الذي يواجه المعاني بقلبٍ أغلف شبيه بالرجل الذي يطالع سفر الوجود وهو معصوب العينين . وهل كان الموت فناءً إلا لأنه يصدنا عن صنع الخير واجتراح الآثام ؟

وما طعمُ الاستغفار على لسان من لم يذنب ؟ وما لونُ الطاعة في عين من لم يقاوم الأهواء ؟

لقد مات «آدم» وهو حي ، فلم يعد يدرك ما في الفردوس من سِحر وفُتون .

كان «آدم»يجد لذة في ضرب «حواء» ، فأين هي الآن ليتمتع بلطم خدها الأسيل ؟!

وكانت «حواء» تجر «آدم» إلى مآزق تُشعره بقوة الحيوانية ، فأين هو اليوم من تلك المآزق ؟ وأين سبيله إلى الفتك والجنون ؟

لقد خلت حياته من جميع المعاني بعد غيبة «حواء» ، وما كان يعرف أنها تملك من الروحانية الأثيمة ذلك الحظ العظيم .

وانطلق «آدم» يراود معاهد الحب ، عله يجد «حواء» مختبئة في بعض ألفاف البواسق ، على نحو ما كان يقع في الأوقات السوالف ، ولكنه لم يظفر بغير اليأس .

أين «حواء» ؟ أين «حواء» ؟

أين الصبية الجميلة التي أوحت إليه فكرة الثورة على الشرائع ؟

أين الخلقة الحلوة التي زينت له طعم العصيان ؟

كان آدم يشتهي جميع ما في الجنة من أطايب قبل أن تفارقه حواء ، ثم أمسى وهو موقوذ الشهية بسبب الفراق ، وهل تطيب الحياة لمن يعيش بلا أنيس موسوم بالصباحة والجمال ؟

ذلك نعيم ذهب ، وأمل ضاع ، فليقتل آدم نفسه إن شاء .

هي امرأة مخبولة ، ولكنها مشتهاة ، والشهوة رزق من الأرزاق ، وإن قيل في تجريحها ما قيل .

كان آدم يهز الشجرات المثمرات ليُطعم حواء ، وهو اليوم يرضى بما يسقط من الثمر المعطوب ، إن بقِي له شيء من نعمة الجوع ، والجوع نعمة لا يحسها غير الأصحّاء .

كان لآدم في الجنة تاريخ بسبب اللجاجة التي كانت تثور عن حواء من حين إلى حين ، فما حياته وقد أمسى مغسول القلب والروح والوجدان ؟

أيعبد الله بالاستغفار ؟ ومم يستغفر وهو مقتول الأهواء ؟

أيسبّح لله ؟ وكيف ؟ إن التسبيح تنزيه وهو معنًى لا يدرك بغير القياس ؟

لو عادت حواء لاستطاب آدم شجرة التين ، ولكن متى تعود ؟ لقد اكتفت الشقية بأن تطمئن إلى أنها مصدر ضلاله وهداه ؛ وكذلك رأت أن تتركه في حيرة دامية عددا من الأعوام العجاف ؛ وبغيُ المرأة لا يحتاج إلى برهان .

استيأس آدم فرضي بالانزواء في أحد الأدغال ، وعند ذلك شعرت حواء بالشوق إلى مصاولته من جديد ، والمرأة يؤذيها أن يهدأ الرجل ، ولو كان في المحراب .

ـ آدم ! آدم !

ـ حواء ؟

ـ نعم ، حواء ، ألا تراني ؟

ـ كنت حسبت أنك ذهبت إلى غير مآب

ـ قبل أن نأكل معاً من شجرة التين ؟ هذا مستحيل !

ـ وهل نعصي الله يا حواء ؟

ـ سترى أن المعصية طيبة المذاق (؟!)

وتنبّه آدم فرأى أنه مقبل على خطر جديد فدار الحوار بأسلوب جديد .

5- شروق العقل [1]

أفاق آدم من غفوته على قدوم حواء ، وكان المنتظر أن يتلقاها بالضم والتقبيل، ولكنها عاجلته بضربة قاصمة هي تذكيره بشجرة التين ، فغام قلبه بعد صفاء ، عاد فانطوى على نفسه كما يصنع الأرقم في ليالي الشتاء .

ـ آدم ، ما لي أراك شارد اللب ؟

ـ من الفرح بقدومك بعد طول الغياب !

ـ أُنظر ، أُنظر ، ألا ترى أني صرت أنضر من أزهار التفاح ؟

ـ وأحلى من ثمار التفاح !

ـ إذن ما هذا الخمود الذي يغالب قواك ؟

ـ ما أنا بغافل عن واجب الترحيب بهذا الجسم الفينان ، الجسم البديع الذي أضلني وهداني ، ولكني تذكرت «صلاة الشكر» وهي صلاة لا تتم بلا اعتكاف ، فإن رأيت أن تتركيني وحدي لحظة أو لحظتين ...

ـ انتهابُ الجمال هو في ذاته شكران لواهب الجمال

ـ أبغضُ ما تكون المرأة حين تتفلسف ، فاتركيني لصلاتي ، وإلا مزجت الكوثر بدمك النجيع . انصرفي ولا ترجعي إلا إن سمعت ندائي .

«وخافت حواء عواقب هذه الغضبة فولت هاربة لا تلوى على شيء وتركت

(1) الرسالة : 23 مارس 1942 .

آدم للصلاة ، وهي ترجو أن تكون صلاته أقصر من الأمل في سيادة العدل»

فماذا وقع بعد انصراف حواء ؟

هل صلّى آدم ؟ وكيف تصح له صلاة وقلبُه يفور ، وعقله يثور ؟

أخذ آدم يفكر فيما انتهى إليه أمره وأمر حواء ، فقد كانا غايةً في الطاعة والخضوع ، فما الذي جدّ حتى أصبحا غاية في التمرد والعصيان ؟

أيرجع السبب إلى وسوسة إبليس ؟

ولكن إبليس كان يوسوس من أزمان ولم يصل إلى شيء ، فكيف وصل بعد اليأس ؟

هنالك أدرك آدم أن السر يرجع إلى النموّ الملحوظ في جسده وجسد حواء ، وأيقن أن اضطرام الأجسام يصنع ما تعجز عنه ألوف الأباليس ... وهل تنجح الغزوات الخارجية إن لم تصادف قبولاً من الأهواء الداخلية ؟

وزاد في اقتناع آدم بهذه النظرية ما كان يلاحظ على فصائل الطير والحيوان ، فقد كان يشاهد أنها لينة رقيقة في أول عهدها بالوجود ثم تغلب عليها القسوة والشراسة حين تصير إلى النضج والاستحصاد !

وإذن؟ وإذن يكون تطوّر الفاعلية الجسدية مصدر التطور في الفاعلية العقلية!

ثم ؟

ثم يكون في كل تطور جديد إبليس جديد

وعلى هذا يكون لحواء في طغيانها عذرٌ مقبول .

وما ذنبُ حواء ؟ ما ذنبها وقد استحالت إلى دوافع ونوازع وأهواء ؟

نظرت مرة إلى نهر الكوثر في لحظة سكون فرأت خيال وجهها الجميل وقد استدار في هالة من السحر والفتون ، فقدرت أن سيكون لها تاريخ ، وعجبت من

أن يتعامى آدم عن حسنها الفتّان ، كأنها تجهل أن آدم صار ألعوبة في زمامها المخبول .

وخلاصة ما قرأت في كتاب شيث أن آدم لا يقيم وزنًا لنزعات إبليس ، وإنما يرى أن الجسد هو الأصل ، وإن ألفافه مكوّنة من أباليس ، وان ثمر الشجرة المحرمة قد يزيده فورة إلى فورة وجموحا إلى جموح .

وهل غاب عن آدم أن ثمرات التين سريعة العطب والفساد ؟

لقد تأملها مرة ومرتين ومرات ، فعرف أنها معرضة لأخطر الجراثيم ، وأدرك أن سمها قد يؤرث ما في الأجسام من السم المكنون فتستشري وتهتاج [1] .

وإذا كان آدم عجز عن رياضة حواء وهي صحيحة ، فكيف يروضها وهي مريضة ؟

خطرت لآدم هذه الخواطر وهو يبحث عن السر في تمرد حواء ... لقد كانت طفلة وديعة ، فكيف صارت امرأة خبيثة ؟ تطور الجسد صنع بها ما صنع ، فأمست وهي أخطر من الحية النضناض ، ولن يكون إبليس بأمكر من حواء ، بعد أن تبلغ مبلغ النساء .

وكان آدم يعرف أنه يحمل الجانب الأخطر من المسؤولية ؛ فهو السبب الأصيل في تمرّد حواء ، وبفضل شبابه وصياله ذاقت أفاويق الضلال .

والذي ينتظر أن تهدأ المرأة وأمام عينيها رجل ، شبيه بالذي ينتظر أن تهدأ النار وقد ألقمت أكداس الحلفاء ... لقد كان آدم يطرد حواء ثم تعود إليه لتأنس بضربه الوجيع ، كما ترجع الفراشة إلى أقباس اللهيب .

المرأة تدرك ما في الرجل من المعاني ، ولو كان من الخاملين ، فكيف تصدّ عنه وهو من الأنبياء ؟

(1) تحرير هذه الفكرة أن الانحراف في الطبائع هو الأصل في انحراف الأخلاق . (زكي مبارك)

كانت حواء سمعت أن الله لم يخلق آدم إلا بعد أن دار بينه وبين الملائكة حوار طريف ، فكيف يفوتها أن تنتفع بشهرته ، وهي تعرف أن الشهرة مغنمٌ عظيمٌ، وإن اعتمدت على أضاليل وأباطيل ؟

وهل تقوم الشهرة بلا أصل ؟

إن آدم رجل ، والرجولة من أعظم الأرزاق ، فما زهدها فيه وهو من أمثلة العزة والجبروت ؟ وهل تنسى أنه صرعها فوق شط الكوثر ألوف المرات ؟

القوة هي سحر آدم ، والضعف هو سر حواء ، يقوم على أسس كثيرة ولكنها ترجعه إلى أساسين هما القوة والضعف ؛ والعشق العارم لا يقع إلا بين عاشقين مختلفين في العرض والطول ، والدمامة والجمال ، والقسوة واللين .

ومع هذا كان آدم هو البادئ بإعلان شوقه إلى حواء ، وكانت حواء تنكر شوقها إليه . وتفسير ذلك سهل : فأسرع الناس إلى الاعتراف بالحق هم الأقوياء .

ويزعم شيث بن عربانوس أن آدم قال وهو يحاور تلك اللعوب :

أما والله لو تجدين وجدي لطِرت إليَّ خالعة العذار[1]

وقد فات آدم أن حواء ضعيفة ، والضعف يتسلح بالرياء .

والقول الفصل أن آدم قد انتهى إلى حقيقة لا تحتاج إلى برهان ، وهي صدور الأهواء عن الأجساد قبل صدورها عن الأرواح ، لأن الجسد أداة الروح ، ولأنه يحفظ قواها كما تحفظ الكأس سر الرحيق .

ثم ماذا ؟ ثم التفت آدم إلى وحي النبوة فقال :

«لم أكن أدرك تكاليف النبوة حين أراد الله أن أكون من الأنبياء ، فقد فهمت

(1) كذلك ورد هذا البيت في كتب شيث ، ورواية الأغاني تخالف هذه الرواية في الكلمة الأولى من الشطر الثاني (زكي مبارك) .

أول الأمر أن النبوة لا تصح إلا لمن يقف موقف الراعي من الرعية ، وليس في الجنة جنود وأتباع يحتاجون إلى من ينظر في شؤونهم بعين المدبّر الحصيف ... ثم عرفت أن الله جعلني نبياً لحكمة سامية : فحواء شخصٌ فرد ، ولكنها مؤلفة من شخوص يعدّون بالألوف ، بفضل ما يصطرع في جسدها وروحها ، وقلبها وعقلها، من أشتات النوازع والأحاسيس ... هي شخص فرد ، ولكن أوقاتي تضيق عن الطب لأهواء ذلك الشخص الفرد ، فكيف أصنع لو أضيف إليها أفراد يحملون ما تحمل من أوقار النزق والطيش والجموح ؟ إنها تتعبني في الحوار ، وأكاد أوقن بأن كل كلمة من كلماتها ترمز إلى شيء ، فهذه الكلمة عتاب ، وتلك الكلمة اتهام ، وهذا اللفظ وعد ، وهذا اللفظ إغراء ، وذلك اللفظ تجريح ... ومن عجيب الأمر في سياسة هذه الشقية أن خطبها لا يهون إلا حين تنطق ، مع أن المفهوم أن نطقها في أغلب أحواله وعيد مخيف ... أخطر ما تكون حواء حين تصمت ، فعند ذلك أدرك أنها تضمر أشياء ، وأنا أخاف أشد الخوف من النذير الصّموت ... لو أن الله جعلني نبيا في أمة كثيرة العدد لخفَّ الخطب وهان ، فقد كنت أستطيع الاعتذار بالعجز عن رعاية الألوف من الرجال والنساء ، ولكن الله جعلني نبيا على مخلوق تحار في رياضته العقول ... من أي طرق أصل إلى اكتناه قلب حواء ؟ وكيف أؤدي الواجب في تهذيب تلك الشقية ؟ وهل نجحتُ في التخلق بأخلاق النبوة وأنا أروض تلك الفرَس الشَّموس ؟ الله يعلم أني لم أقصّر ولم أفرّط ، ولكن ما هذا البلاء الذي أعانيه ؟ واجب النبي أن يَهدي الجميع في حدود ما يطيق ؛ وقد يتلطف الله به حين يعجز عن هداية من يحب ، لأنه يعلم أن الأحباب هم في الحقيقة أعداء ؛ وهل يعرف مقاتل المحب غير الحبيب ؟ كان يكفي أن أعجز عن هداية حواء فأسلمها إلى الشياطين ، ولكن البلاء كل البلاء أن هذه المرأة لا تكتفي بنجاتها من يدي ، وإنما تريد أن تضلني فآكل معها الثمر الممنوع ، وبهذا يصبح الهادي وهو من الضالين ! إن نجحت حواء في اختتالي واختلابي فسأكون عِبرة لمن يأتي بعدي من الأنبياء ... وهل أضمن حفظ مكانتي في التاريخ ؟ إنْ تطاول الزمان فسيقول قوم إن آدم شخصية خرافية أريدَ بها تصوير انهزام الرجال أمام النساء . وهل

يؤذيني أن يقال ذلك ؟ أنا أول ضحية بشرية إن هزمتني حواء ، ومن حق من يجيئون بعدي أن يرتابوا في حقيقتي التاريخية . فالرجل الذي يعجز عن كبح المرأة لا يستحق شرف الوجود ... وأنا أعيذ من تصل إليهم هذه الأخبار أن يسيئوا الظن بجدهم المظلوم ، فليس عندي أوامر صريحة أتولى بها زجر حواء ، ولست أعرف المصير إن عاقبتها بالقتل ، فما لي صديق غير هذا المخلوق ، والصديق الواحد جدير بالاستبقاء وإن تردَّى بالعيوب . من أخصب تخيَّر ، وأنا في الصداقة مُجدب لا مخصب . فهل أُلام إذا استجزت المعصية طاعةً لمحبوب لا أجد غيره حين يضيع ؟ سأقرب الشجرة رعاية لحواء ، وليصنع الله بنا ما يشاء ... وماذا يريد الله ! أيريد أن نشاركه في السموّ المطلق ؟ أيريد أن نتنزه كما تنزه عن جميع الشُبهات ؟ أين نحن من الله وهو قوة أزلية لا يعتريها نقص ولا خمود ، بأمر الله سأعصي الله فأقرب الشجرة مع حواء . سأعصيه بأمره وإن كان نهاني ، فهو يعلم أن المخلوق المؤلف من أحلام وأهواء لا يعظم عليه العصيان »[1] .

وانخرط آدم في البكاء ، فلم يوقظه غير حواء .

ـ آدم ، آدم ، ماذا بك ؟

ـ حواء ؟

ـ نعم ، حواء ، هل فرغت من صلاتك ؟

ـ أي صلاة ؟

ـ صلاة الشكر ، ألم تحدثني أنك من أجلها أردت الاعتكاف

ـ لقد صليت صلاة لا تخطر لك في بال

ـ هل صليت كما تصلي الملائكة ؟

(1) هذه الوثيقة التاريخية تشهد بأن آدم ظل مدة طويلة في أسر القلق والخوف ، ومنها نعرف انه كان في عراك دائم بين عقله وهواه ، وأن حواء لم تفتنه إلا بعد أن بذل في جهادها فوق ما يطيق .

ـ أعظم مما يصلّون

ـ وكيف ؟

ـ ناقشتُ الله !

ـ من ناقشَ الله هَلَك

ـ قولي هذا لنفسك ، يا حواء !

ـ أحب أن أعرف كيف تكون المجادلات من ضروب الصلوات ؟

ـ حين تكون شاهداً على شروق العقل

ـ لا أفهم ما تريد أن تقول

ـ أريد أن أقول : إن الله يكره لعباده أن يلوذوا بالصمت والجمود

ـ ومعنى هذا أنه يحب أن نتكلم ونتحرك في كل وقت ؟

ـ إذا أشار العقل

ـ وما العقل ؟

ـ أن تسكتي إلى الأبد الأبيد !

ـ أتريد أن تتمتع بنعمة الكلام وحدك ؟

ـ لأنني أشقى بنعمة العقل وحدي ، ولأن الله لن يسأل غير «آدم» عن نزق «حواء»

ـ وما رأيك في شجرة التين ؟

ـ المرأة حين تولع بشيء لا تنفك تدور حوله ولو نهاها عنه الأنبياء

ـ وأنت نبيٌّ يا «آدم» ؟ لم يبق إلا هذا الزعم الطريف !

ـ إن صوت الله قرع أذنيك ولم تنتهي ، فهل تسمعين صوت النبيّ المسكين ؟!

ـ ومتى نهاني الله عن الشجرة ؟

ـ كيف نسيت يا حواء أننا سمعنا ألف مرة هاتفاً يصيح :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ـ هو نداء موجه إليك

ـ إليّ وحدي ؟ وكيف ؟

ـ لأنك رجل !

ـ وإذن يكون من حقي أن أقرب الشجرة وحدي

ـ لن تذوق ثمارها إلا من يديّ

ـ وهل أذوق من يديك غير العلقم والصاب ؟

ـ اسمع يا آدم ، اسمع : يظهر أنك أغلف القلب ، وأنك في احتياج إلى من يزيل الغشاوة عن عينيك . ما هذا التمرد على الله ؟ وما هذا العصيان ؟ مزيتك أنك رجل ، ورجولة آدم رهينة بشهادة حواء ، ولن أعترف لك بشيء إلا إن عصيت وغويت .

ـ ويقول الله : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ ؟

ـ ومن أنت حتى تصل إلى أن ينالك بالغمز والتجريح ؟

ـ اسكتي ، يا حواء !

ـ لن أسكت قبل أن أزلزل قلبك جزاءً بما احتكرت من دعوى الفضيلة والشرف والنبل ؛ كأن سلوكي معك رذيلةٌ وضعفٌ وإسفاف . أنت تصور نفسك دائما بصورة المظلوم وتنسى انك في أغلب أحوالك من الظالمين .

ـ ومتى ظلمتك ، يا حواء ؟

ـ حين تناسيت فضلي عليك ، فان أُضرم أهواءك لتشعر بعنفوان الرجولة

الحق ، وستموت حسيًّا ومعنويًّا يوم أعجز عن إغوائك . فيوم ذاك تعرف يا جاهل أن طيش حواء ليس بالمغنم القليل .

ـ كفى . كفى !

ـ لا ، لا ، لن أتركك أو تعترف بفضلي عليك

ـ أمِنَ الفضل أن تزيِّني المعصية ؟

ـ ما زيّنت لك شيئا غير جميل

ـ وشجرة التين ؟

ـ ما تهمني شجرة التين بالذات فسأحاول هدايتك إن امتنعت عن شجرة الجميز ، لأملك نقل قلبك من مكان إلى مكان ، لأطمئن إلى انك بعافية تجعلك في طليعة الفحول ، فما ينجو من كيد المرأة إلا العِنَّين أو المجبوب .

ـ أنت يا حواء شقية !

ـ وأنت يا آدم جهول !

***

ومرت لحظات صمت فيها آدم صمت الأموات ، ثم ثاب إلى صحوة فأيقن أن نجاته من كيد حواء أمل عزيز المنال ... ولكنه جمع قواه ليصدها عن الغواية بأسلوب لم يفكر فيه من قبل . فهل يصل إلى ما يريد ؟

للحديث شجون

6- قبل أن تثور القواصف فوق أثباج الكوثر [1]

ارتاح آدم إلى كيد حواء بعض الارتياح، وأدرك أن الرجل لا يعيبه أن يُفتن بالمرأة من حين إلى حين ، على شرط أن يظل في الحدود التي لا تجرح كرامة الرجال .

وفطِن إبليس ، لعنه الله ، إلى أن آدم أخذ يؤول كيد المرأة ويقسمه إلى أقسام فيها المكروه والمباح ... فطن إبليس إلى هذه الثغرة فجدد من نشاطه واستأنف الوسواس فهتف : «هل أدلكما على شجرة الخلد ؟ ... هل أدلكما على شجرة الخُلد ؟ ... ألا تسمعان ؟»

قالت حواء : سمعنا وسنطيع . وقال آدم : سمعنا ولن نطيع .

فغضبت حواء من جواب آدم واتهمته بالزهد في الخلود ، وهو زهدٌ دميم ، فما يليق بالرجل أن يضيع فرصة تنجيه من الفناء ، ولو ارتكب في سبيلها ما لا يليق.

وغضب آدم من سفاهة حواء فقال : من أين عرف إبليس أن شجرة الخلد هي شجرة التين ؟ وعلى فرض أن كلامه صدق في صدق ، فكيف يجوز أن نعصي الله لنظفر بالخلود ؟

(1) الرسالة 30 مارس 1942 .

اعلمي ، يا حواء ، أن الرزق والجاه قسمان : حرام وحلال ، وأنا لا أقبل أن نرزق الخلد عن طريق الحرام ... إن اللقمة المسروقة تقف في الحلق لحظة ، ثم تزدرد برفق أو بعنف . ومع هذا تبقى لها عقابيل تحزّ في القلب إلى آماد طوال ، فكيف نستجيز الظفر بنعمة الخلود عن طريق العصيان ؟ وكيف نرضى أن نعيش أبد الآبدين في أسر الحرام الممقوت ؟

ـ آدم ، أنت أحمق !

ـ لأني أزهد في الخلد المكسوب بالعصيان ؟

ـ لا ، بل لأنك تجهل ان الخلد أنفس وأثمن وأعز من أن تتقى في سبيله الشُّبهات

ـ النص صريح في تحريم الشجرة يا حواء

ـ التأويل يلحق جميع النصوص

ـ إذا وجدت الغاية التي تبيح الممنوع من التأويل !

ـ وأي غاية أشرف من الخلود ؟

ـ اسمعي يا حواء ، إن الخلد غاية شريفة ـ كما تقولين ـ ولكني أبغضه أشنع البغض ، لأنه يوجب أن أعيش في صحبة عقلك الأجوف إلى ما لا نهاية له من الآباد ... وإني ضَجرت ، ضجرت ، مع أن صحبتنا في الجنة قريبة العهد ، فكيف أصنع إذا كتب عليَّ أن أكون من الخالدين في جوارك يا حواء ؟

ـ تغضب مني يا آدم وأنا أدعوك إلى الخُلد ؟

ـ هو خُلدٌ حرام لا حلال ... وما يليق بنا أن نعامل الله في كرمه بغير الامتثال

ـ أتصف الله بالكرم وهو يبخل علينا بشجرة لا يساوي حطبها درهمين ؟

ـ ألم أقل : إن الله يختبر قُوانا النفسية بتحريم تلك الشجرة ؟ وإذا عجزنا عن كبح النفس في البعد عن شجرة لا يساوي حطبها درهمين ، فكيف يكون المصير لو

نُهينا عن شجرة مصوغة من عيون العذارى وخدود الملاح ؟ المعصية بغيضة يا حواء ، لأنها تضيفنا إلى أهل الكفران ، وما يجوز لمن يعيش في مثل هذا النعيم أن يفكر لحظة واحدة في عصيان المنعم الوهاب .

ـ الله منعم وهاب ، وهو يبخل بشجرة لا يساوي حطبها درهمين [1] ؟

ـ الآن عرفت أنك امرأة سليمة الأعصاب والحواس إلى أبعد الحدود .

ـ وكيف ؟

ـ لأنك تنكرين الجميل ، والمرأة لا تنكر الجميل إلا حين تكون في عنفوان الصحة والعافية

ـ وإذن ؟

ـ وإذن أعصي الله من أجلك يا حواء !

ـ فتأكل من شجرة التين ؟

ـ وأترك طبعات على هذه الخدود المقبوسة من جمر الوجود

ـ تحبني ، يا آدم ؟

ـ أحب المرأة الحلوة الجميلة التي زلزلت فؤادي . أحب المرأة التي نقلت قلبي من مكان إلى مكان . أحب الغادة اللعوب بالعقل والروح . أحبك يا حواء حبًا أمتن من الصدق وأروح من اليقين . أحبك يا حواء حبًّا سيُفسدُ ما بيني وبين ربي ، إلا أن تشاء إرادته السامية أن أتقرب إليه بعبادة الجمال ... ولعله يشاء !

ـ وإذا لم يشأ ، فماذا تصنع ؟

ـ آكل من شجرة الخلد ، لأحمي هذا الجبين من الأفول

(1) هل كان في جنة آدم وحواء دراهم ودنانير ؟ إن هذا يؤيد الطعن في صحة كتاب «شيث» . (زكي مبارك)

ـ بالعصيان ؟

ـ هنا المشكلة يا حواء ، فما يُسيغ ذهني أن ينهانا الله عن رعاية الجمال

ـ أراك اهتديت !

ـ وأراني ضللت !

ـ أفِق ، يا نشْوان

ـ إن جاز للموقوذ بسكر الجمال أن يفيق !

ـ تحبني يا آدم ؟ تحبني ؟

ـ أحب النار التي صهرت روحي ، ولن أطمئن إلا يوم أنهشك يا حواء لتعودي نقطة من دمي

ـ ما هذه الوحشية ؟

ـ أي وحشية ؟ ألم تؤخذي من ضلعي ؟

ـ أنا من ضلعك أخذت يا كذَاب ؟

ـ اسألي الملائكة ، فعندهم الخبر اليقين

ـ لهذا جئت جميلة ؟

ـ وأجمل من الأفعى الملتوية على الشجرة الزهراء !

ـ أراك تبغضني يا آدم !

ـ هو ذلك : فأنا أبغض العيون الجوارح ، وأبغض الجبين الوضاح ، وأمقت القد الرشيق ، وأستعيذ بالله من السحر المتموج فوق الثنايا البيض

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم أكره الصوت الذي يشبه وسواس الحُليّ فوق النحور ، والذي يفوق

غمغمة الكأس عند فورة الرحيق

ـ ثم ؟

ـ ثم أثور على التفاتة الجيد عند العتاب

ـ ثم ؟

ـ ثم أبغض حواء لأنها حواء !

وبعد الأنس بقبلتين محرقتين مضى آدم لشهود حفلة الطيران ، وهي حفلة موسمية كانت تقيمها الحمائم والبلابل والعنادل في «غابة الصنوبر» لتروض أفراخها على النهوض والتحليق . ويحدثنا شيث أن حفلات الطيران هذه كانت تجتذب جميع سكان الجنة بلا استثناء . وقد نص على أن السباع كانت تراها عجبا من العجب ، لأنها تشهد بتنوع المواهب ، وإلا فكيف جاز أن يقدر الطائر الضعيف على ما يعجز عنه الأسد الصوّال ؟

مضى آدم وحده لشهود حفلة الطيران ، وهو مبتسم جذلان ، فقد أعفى نفسه من الحيرة في قرب شجرة التين ، وأسلم مصيره إلى خالق الأنوار والظلمات ، فللأقدار أن تصنع به ما تشاء .

أما حواء فشعرت بحزن وانقباض حين رأت آدم لا يمانع في قرب الشجرة المحرمة ، ولهذا قلّت بشاشتها لشهود حفلة الطيران ، وكذلك آثرت الاعتكاف لتنظر فيما هي مقبلة عليه ... فما الذي تأذّت به حواء وقد بلغت من ختل آدم فوق ما كانت تريد ؟

نظرت حواء فرأت أن الشقاق حول الشجرة المحرمة كان فرصة لشغل آدم بزوجته شغلا غير مقطوع ، والمرأة يرضيها ويسرها ويشوقها أن يعيش الزوج وهو بها مشغول ، فكيف تكون الحال بعد أكل الثمرة الممنوعة حين يصبح جميع ما في الجنة حلالاً في حلال ؟

ونظرت فرأت أن الجدال حول الشجرة المحرمة ألان لسان آدم وعلَّمه الحوار بأساليب لا تخلو من البراعة والظرف ، وقد تصل إلى السِّحر في بعض الأحيان ، فكيف المصير إذا تساوت قِيمُ الأشياء واستغنى آدم عن الجدال ؟

سيكون الصمت من نصيب آدم حين تنعدم أسباب الخلاف ، فكيف تعيش حواء مع رجل صَمُوت ؟ وهل قلّ صمت آدم برغم ذلك الخلاف ؟ لقد كانت له تأملات طويلة ينسى بها ما حواليه حتى لتحسب زوجته أنه لا يشعر بأن لها من الوجود أي نصيب ، فأي بلاء ينتظر حواء يوم تنقطع موجبات اللجاجة مع فارسها الجميل ؟

في تلك الحومة كانت حواء تنتقل من المعصية إلى الكفران ، والعياذ بالله ، فقد جاز لها أن تعترض على نظام الجنة ، وأن ترى أنه لا يخلو من اختلال ، والثورة النفسية تحيل النعيم إلى الجحيم ، وذلك ما وقعت فيه حواء .

نظرت فرأت أن الجنة قليلة المحرمات ، فهي قليلة الطيبات ، وهل يستطيب الناس غير الممنوعات ؟

نظرت في هذا المعنى مليًّا ثم صرختْ :

أرى طِيبَ الحلال عليّ خُبثاً وطِيبَ العيش في خُبث الحرام

وهمّت باقتلاع شجرة التين لتحوّل الجنة إلى خراب يباب ، فما كانت الجنة في نظرها غير تلك الشجرة الممنوعة ، وإذا اقتلعت تلك الشجرة فسوف يرى الله أن عنايته بخلق الجنة ذهبت أدراج الرياح !

ولكن شجرة التين التي لا يساوي حطبها درهمين أعجزت حواء فلم تستطع اقتلاعها برغم ما بذلت من الجهد «المحمود» فنكصت على عقبيها وقد نال منها الإعياء ما نال .

وكان المفهوم أن تخجل من الهزيمة أمام شجرة التين ، وأن يزيد حقدها على الله ، ولكنها فرحت حين عرفت بالتجربة أن «شجرة الشرّ» قوية الجذور ، وأن

الأمل في اقتلاعها ضعيف ، وتمنّت أن تصبح الجنة وفيها لهذه الشجرة أمثال وأمثال .

ذلك ما كان من أمر حواء ، فما أمرُ آدم وقد ذهب وحده لشهود حفلة الطيران؟

رأى جميع المتفرجين يتحدث بعضهم من بعض ، وهاله أن يرى الثعلب يناجي أنثاه بجذل وانشراح ، كأنه يدرك الدقائق من طيران أفراخ العندليب ، ورأى الأفعى تخاطب الأفعوان بعبارات فهِمَ منها أن حفر الجُحر في أصل الشجرة لا يقل خطرا عن بناء العش في أعالي الأغصان.

أراد آدم أن يتكلم ، ولكن مع مَن ؟

لو كانت حواء حاضرة لحدثها عن ذكائه في استكشاف ما بين الخشب والماء، فقد اهتدى إلى أن من يمتطي الخشبة لا تهوله أمواج الكوثر في كثير ولا قليل ، وهل يكون امتطاء الهواء أوثق من امتطاء الماء ؟[1]

لو كانت حواء حاضرة لقال لها وقال ، ولكن أين حواء ؟

هنا أدرك آدم أن الحياة بلا رفيق لفظٌ بلا مدلول

ألم يكن يجرّد من نفسه شخصاً يحاوره حين يعتكف ؟

ألم تكن أشعاره تبدأ بعبارة «يا خليليّ» أو «يا صاحبيَّ» كأنه يرى بضوء البصيرة انه يحتاج إلى عدد من الأصحاب والخلان ؟

ألم يلاحظ أن الله حين اختصه بالنطق قد أوحى إليه أن حياته لن تكون بلا رفيق أو رفاق ؟!

أين حواء ليبادلها الأحاديث ؟ وأين ماضيه في الطيران بأجواء الحقائق

(1) من هذا نعرف أن آدم سبق نوحاً إلى اختراع السفينة ، وإن لم يسبقه إلى ربطها بالدسر والألواح . (زكي مبارك)

والأباطيل ؟

إلى حواء ، إلى حواء ، إلى حواء !!

فماذا يرى آدم، وماذا يسمع ؟

يرى فتاة خامدة بجوار شجرة التين ، ويسمع أنينًا يذيب لفائف القلوب .

ـ حواء !

ـ ...

ـ حواء ؟

ـ ...

ـ حواء ؟

ـ آدم ؟

ـ نعم ، آدم ، ماذا بك يا حواء ؟

ـ لا شيء ،ولكن أين كنت ؟

ـ كنت أشهد حفلة الطيران

ـ ورأيت عدل الله ؟

ـ في ماذا ؟

ـ في تزويد الطير بنعمة لن نظفر بها أبداً ، فهو يطير عن هذه الجنة حين يشاء !

ـ وهل مللت الثواء بالجنة يا حواء ؟

ـ أي جنة تريد ؟ أتريد هذا العيش الرتيب ، العيش الذي لا يحرّم فيه غير طعام واحد ؟ العيش المملول ، العيش الذي يقدِّم فيه التفاح بلا حساب ؟

ـ وما عيب هذا العيش يا حواء ؟

ـ عيب أنه حلال في حلال

ـ وماذا تريدين ؟

ـ أريد أن يكون لي جموح يُغضب الله

ـ وماذا تستفيدين من غضب الله ؟

ـ أريد أن أشغله بنفسي

ـ لك الويل ، يا شقية !

ـ لك أنت الويل ، يا بليد !

ـ حواء ، أنت حمقاء !

ـ الأحمق هو الذي يشهد حفلة الطيران ولا يستفيد

ـ وماذا يستفيد المرء من شهود حفلة الطيران ؟

ـ ألم تر مئات الأفراخ من الحمائم والبلابل والعنادل والصقور والعقبان وهي مجرَّحة بسبب العنف في التمرين على الطيران

ـ نعم ، رأيت ، ثم رأيت !

ـ تقول إنك رأيت ، فهل فهمت أن تلك الجراح هي سرّ القدرة على التحليق؟

ـ وإذن ؟

ـ وإذن نجرَّح مرة أو مرتين أو مرات ...

ـ لماذا ؟

ـ لنطير في أجواء الرشد والغيّ والهدى والضلال

ـ إن كنت تريدين شجرة التين فلن أقرب شجرة التين

ـ حدثني أحد الملائكة ...

ـ وتحدثك الملائكة يا حواء ؟

ـ وتحدثك أيضا ولكنك لا تسمع !

ـ وماذا قالت الملائكة ؟

ـ قالت إن الله أخبرهم أنه سيجعل في الأرض خليفة وأنهم كرهوا أن يجعل في الأرض من يُفسد فيها ويسفك الدماء

ـ وبماذا أجاب الله ؟

ـ قال : إني أعلم ما لا تعلمون

ـ ومعنى ذلك ؟

ـ معناه أننا سنصير إلى الأرض

ـ بعد هذا النعيم ؟

ـ وهل نحن في نعيم ؟

ـ اتقي الله يا حواء

ـ اتق الله أنت

***

ـ الأرض ، الأرض ، الأرض !!!

ـ الأرض ، الأرض ، الأرض !!!

كذلك دار ذهن آدم وحواء بهذه الكلمات ، واشتهى آدم واشتهت حواء رؤية ذلك العالم المجهول .

ـ إلى شجرة التين ، يا آدم

ـ إلى شجرة التين ، يا حواء

ـ ولكن احذر من أن تقول إني أغريتك !

ـ لم يغرني غير العينين النجلاوين ، والخدين الأسيلين ، والثغر المعطَّر بأنفاس الرحيق

ـ اعترف صراحة بأني ما أغويتك ولا أضللتك ولا زينت لك العصيان

ـ أعترف بأن حواء لا تُسأل عما يجني قدها الرشيق

ـ ولا خصرها الأهيف ؟

ـ ولا جيدها الأغيد !

ـ ولا ثغرها الرَّشوف ؟

ـ ولا طرفها الكحيل !

ـ ولا تثنيها وهي تتخطر فوق شط الكوثر ؟

ـ ولا سحر اللون الذي يتموج بساقيها حين تتمدد فوق الأعشاب !

ـ ولا بلؤمها حين تثور ؟

ـ ولا بكرمها حين تطيع !

ـ آدم ، آدم ، أنت مخلوق نبيل

ـ معاذ الله أن أكون كذلك ، فما يوصف الرجل بالنبل إلا حين يملك ما يأتي وما يدع . وقد قلت حيلتي في رياضتك يا حواء ، فأنا بفضل هواك من الهالكين .

ـ لن تهلك وأنا معك

ـ ولن أهلك إلا لأنك معي ، فالرفيق الفاسد يجرّ صاحبه إلى الهلاك

ـ الله قدَّر أن يكون مصيرنا إلى الأرض ، فما خوفُك وتلك إرادته السامية ؟

ـ للجنة أسوار وحدود وأنا أخشى أن تكون الأرض بلا أسوار ولا حدود

ـ عند ذلك تستطيع أن تفر مني حين تشاء

ـ أنا في الجنة مقهور على صحبتك بفضل الأسوار وسأكون في الأرض مقهورا على صحبتك بفضل الأهواء ، والفرق بين الحالتين بعيد

ـ لك أن تتحرر من هواي

ـ لو أصبحتِ تراباً يا شقية لكان من واجبي أن أستاف ذلك التراب

ـ تحبني يا آدم ؟

ـ أحب اللسان الذي يتلجلج بفم الحية النضناض

ـ أنت وقح !

ـ الوقاحة لن تكون إلا من نصيب الجمال النشوان !

ـ النشوة العارمة لم تعرف إهابًا غير إهابك

ـ ولهذا أخضع للشهوة وأطيع

ـ إذن تأكل من شجرة التين

ـ وأستبيح المعصية في سبيل الجمال

ـ خذ هذه التينة يا آدم

ـ ابدئي بنفسك

ـ هذه واحدة وثانية وثالثة ورابعة وخامسة ، فهل وقع شيء ؟

ـ لم يقع شيء !

ـ وإذن يكون التين من الثمر المباح

عند ذلك مد آدم فالتهم ثمرة التين وهو يرجو أن يكون مصيره مصير حواء ، ولكن الجنة زلزلت من جميع الجوانب فأدرك أن الله لا يقيم وزناً لغير هفوات الرجال.

7- أحزان الأسود وأفراح القرود
يوم فضيحة «آدم» و«حواء» [1]

سارت الأمور إلى ما شاء القدر أن تسير إليه ، وذاق آدم لأول مرة لذعة النـدم الأليم ، فقد كان يملك زجر حواء عن قرب شجرة التين ، لو قُدِّر لـه أن يتماسـك فلم يخضع لسلطان حُسنها الوهَّاج ...

وانزعجت حواء لما أصاب الجنة من زلزال ، فعرفت من أخطار الخطيئة مـا لم تكن تعرف ، وأدركت أن المزاح في تفسير الحرام والحلال عَبَثُ أطفال .

ـ آدم ، لا تبتئس ، فقد عجل الله بالعقوبة ، ولم يبق إلا أن نأنس بالاطمئنان .

ـ وما هي العقوبة التي عجّل الله بها يا حواء ؟

ـ هي ما أصاب الجنة من زلزال ، فقد هدأت العواصف والقواصـف ، وعـاد كل شيء إلى قراره المألوف

ـ الزلزال الخطر هو البلبلة التي تثور في صـدري ، ومـا أحسـبني سأسـتريح ، وهل أنت مطمئنة يا حواء ؟

ـ لا ، وإنما أردت أن أهوّن عليك وقْع ما نحن فيه ، فما زال قلبي يرتعـد مـن هول الصدمة ، وليتني متُّ قبل الخطيئة وكنت نسيا منسيّا !

(1) الرسالة : 16 إبريل 1942 .

ـ أرأيت يا حواء عواقب الإصاخة لأقوال المفسدين ؟ ألم أنهكِ عن صحبة الحية ؟ ألم أخوّفك من الاستماع إلى إبليس ؟

ـ ليتني أطعتك ! ليتني أطعتك !

ـ وهل تنفع شيئًا ليت ؟

ـ في ليت تعزيةٌ للخائبين ، فلنتعزّ بها إلى حين !

وفي أثناء هذا الحوار كان آدم يلاحظ أن أسراباً من الطير والحيوان تنظر إليه وإلى حواء ثم تنصرف ، فما الذي جدّ عليه وعلى حواء بعد الزلزال حتى يقع ذلك الاستغراب ؟

وحانت من آدم التفاتة فرأى سوأة حواء بادية ، وأطرق فرأى سوأته قد انكشفت والعياذ بالذوق ، وكذلك أدرك أن أسراب الطير والحيوان قد هالها أن يمسى آدم وحواء وهما في حال تسر العدو وتحزن الصديق .

كانت الفاجعة أعنف مما يتصوره الخيال ، فقد فُطر آدم على الحياء ، ألم يكن أول مخلوق ستر ذلك الشيء ؟ أما الكلام عن حياء حواء ، فهو حديثٌ مُعاد ، فما استطاع أحد من سكان الفردوس أن يتوهم صورة المنطقة المحرمة في جسمها الجميل .

ـ أتصنع المعصية كل هذا يا آدم ؟

ـ وأشنع من هذا ، فقد يعاقب العصاة بالقتل

ـ الفضيحة أبشع من القتل

ـ أنا لا أراها كذلك ، فالقتل أخطر وأعنف

ـ الرجل يُقتل بالسيف ، والمرأة تُقتل بالفضيحة ، فأنا وحدي المقتولة بعقوبة اليوم

ـ وما المخرج يا حواء ؟

ـ نخصف على هاتين السوأتين من ورق الجنة ، إلى أن يقضي الله في أمرنا بما يشاء .

***

لا موجب للإطالة في تصوير جزع آدم وفزع حواء مما صارا إليه ، فالوصف لا يحيط بصورة الحزن الذي يساور النفس النقية حين تسقط أول مرة ، فهي تتخيل أن شبح الفضيحة يلاحقها في كل طريق ، وأن الموجودات كلها عيون تنظر إليها باحتقار وازدراء ، ولا كذلك النفس الخبيثة ، فهي لا تتأثر بالفضيحة إلا بمقدار ما يتأثر الصخر الأصم بهبوب الريح .

كان آدم على فطرته الأولى يوم اقترف ما اقترف ، وكان وحيداً في بلواه ، فلم يجد من أصدقاء السوء من يهوّن عليه مصيبة العصيان .

وحواء ؟ وحواء ؟

كانت زهرة نضيرة لم تسمع بأن في الوجود لوافح ترزأ الأزهار بالذبول .

وهل كانت حواء تجدّ وهي تدعو رفيقها إلى قرب الثمر الممنوع ؟

إن شيث حدثتنا أن تمردها على الأوامر الربانية لم يكن إلا فنًّا من فنون الدلال. ولعل هذا هو السبب في أن الجنة لم تُصب بأذى بعد أكلها من شجرة التين، وإنما وقع ما وقع حين هفا آدم ، لأنه رُزق من العقل ما يكفي للتمييز بين المحرَّم والمباح .

وزاد في هم حواء عرفانُها بخطورة النزق بعد الذي كان ، فصارت تصرخ من وقت إلى وقت صراخاً يصل إلى مسامع سكان الفردوس بأعنف مما يصل صوت المظلوم إلى آذان القضاة العادلين ... وكذلك لطف الله بحواء ، فأمر ورق الجنة أن يكون عندما تريد ليحميها من فضول العيون .

لا موجب للإطالة بتلخيص الصفحات التي دوَّنها شيث بن عربانوس في هذا

المقام ، فما نطيق ولا يطيق القراء مواجهة ما انطوت عليه من أحزان وكروب ، فلننظر كيف تسامع سكان الجنة بفضيحة آدم وحواء في لحظات .

في لحظات ؟ وكيف ؟

كان جمهور أهل الجنة في ذلك الوقت جمهوراً قليل الأهمية من الوجهة العدَدية؛ وللجماهير الصغيرة محاسن وعيوب ، فمن السهل أن نكوِّن رأياً عاماً في الجمهور الصغير بخطبة أو خطبتين وأن نروضه على الفضائل المنشودة حين نشاء بأيسر عناء ، ولكن من الصعب أن نصدّه عن تسمعّ الأخبار السيئة ، فهو يُقبل عليها بشهية عجيبة ، وهو يجد لذة في مضغ أحاديث الإفك والبهتان ، وقد يتزيد فيضيف المآثم إلى الأبرياء ، ليظفر بالقوت المحبوب وهو الاغتياب ، فما يطيب للرجل الحقير أو الجمهور الصغير غير الخوض في الأحاديث التي تشوّه أقدار الأكابر من الرجال !

وعلى هذا وصلت أخبار آدم وحواء ـ أخبارهما المزعجة ـ إلى جميع سكان الجنة في لمحات معدودات ، وصار الحديث عن مصيرهما الفاجع زاد الألسنة في كل مكان .

فكيف تلقَّى الفردوسيون ذلك النبأ الفظيع ؟

انقسموا إلى فريقين : فريق الجازعين وفريق الشامتين

فمن الذي جزِع ؟ ومن الذي شمِت ؟

جزع الأسود ، وفرح القرود ، ولذلك حديثٌ يستحق التسجيل :

لم يكد يتسامع الأسود بفضيحة آدم حتى صاموا عن الطعام حزناً لبلية ذلك المخلوق النبيل ؛ ثم اجتمعوا في «غابة العَرِين» ليسمعوا خطبة كبيرهم غَضَنْفَلُوث، وقد خطبهم فقال :

«سجرائي وأشبالي

ترامتْ إليَّ وإليكم أخبار الفضيحة التي رُزئ بها آدم ، وقد جزعتُ لها كما جزعتم ، برغم اختلاف الجنس ؛ فنحن نمشي على أربع وهو يمشي على اثنتين ، وقوّتنا بالظفر والناب ، وقوّته بالقلب واللسان ؛ ولكن هنالك آصرة تجمع بيننا وبين ذلك المخلوق ، وهي الكرامة الذاتية ، فهو يأبى الضيم كما نأباه ، وهو يُزهى ويختال كما نُزهى ونختال . ولست أعرف قيمة شجرة التين حين أحكم له أو عليه، فنحن لحميُّون لا نباتيون ، ومن الصعب أن ندرك ما في التين من دواعي الاشتهاء ، وقد حلّ به ما حل ، وذاق من علقم الفضيحة ما ذاق ، وسيقضي الله في أمره بما يشاء ، فهل ترون من الجرأة على الله أن نعلن الحداد لمصيبة آدم المظلوم؟».

أحد الأسود : أنحزن لمصيبة مخلوق عصى الله ؟

غضنفلوث : إذا كان مخلوقاً كريماً ، وآدم مخلوق كريم ، فهو وحده الذي يستتر حين يلامس أنثاه ، ما رأيته أبدا في موقف ينافي الأدب والحياء .

أسدٌ آخر : وكيف نجيب إذا عد الله حزننا لآدم ضربا من العصيان ؟

غضنفلوث : الله أكبر من أن يستظهر على عباده المذنبين بشماتة حيوان .

أسد ثالث : العطف على المذنبين إغراءٌ بالذنوب .

غضنفلوث : هنا دقيقة تخفى عليك ، وهي أن العطف على المذنب يجتث من صدره بذور العصيان ، ويضيفه إلى أهل الطاعة والامتثال .

أسد رابع : نحن مع الله في التنكيل بالمجرمين .

غضنفلوث : ومن نحن حتى نشارك الله في الجبروت ؟

أسد خامس : نحن أسود .

غضنفلوث : والأسود تحفظ الأدب مع الله فتترك له التفرد بالثواب والعقاب.

أسد سادس : لا يجوز العطف على مخلوق خدعته أنثاه .

وهنا انبرت لَبّوْلوث زوجة غصنفلوث فقالت في زئير يوقظ الأموات :

«لعلكم تريدون التعريض بحواء ، فهل تعرفون حواء ؟ اسألوني أخبركم : لقد كانت تجيء من لحظة إلى لحظة تداعب الأشبال بأناملها اللطاف . وكنت أقدر أول الأمر أنها تفعل ذلك بسبب حرمانها من النسل ، ثم عرفت أنها مفطورة على الرفق والحنان ، وأنها لا تعيش إلا في ظلال الرفق والحنان ... ويلي عليك يا حواء ، فما رأيت أرخم منك صوتاً ، ولا أنضر وجهاً ، ولا ألطف مِشية ! كنت أنظر إلى نهديك الكاعبين فأعجب وأطرب وأشاق ، ما أجمل نهديك يا حواء ! وما أشد جزعي حين أتذكر انك لم تُرزقي طفلاً يباغم حَلَمَتَيْك في جذل وانشراح ! وهل أنسى أن حواء أرشق مخلوقة تمشي على اثنتين ؟ لقد كان تثنيها وهي تتخطر فوق شط الكوثر يخلع قلبي » .

غضنفلوث : حواء جميلة إلى هذه الدرجة ؟

لبولوث : وأجمل من الغزال المكحول بمرود السحر والفتون .

ـ عطف الأنثى على الأنثى معروف !

ـ وتحامل الذكر على الأنثى لا يحتاج إلى تعريف ... ويلي عليك يا حواء ! أأنت تُفضحين بين سكان الفردوس فضيحة جديدة ؟

ـ وهل كانت لحواء فضائح قديمة ؟

ـ من يومها وهي فضيحة الفضائح ، فمشيتها فضيحة ، ونظرتها فضيحة ، ونبرتها فضيحة ، ودلالها فضّاح فضّاح فضّاح . ويلي عليك يا حواء ، ويلي عليك يا أختي !

ـ يظهر أنك مفتونة بحواء !

ـ وكيف لا أفتن بأنثى تفردت بالجسم الأمثل إلا بعض شعرات ولو جازت

الغيرة على مثلي لأصبحت من الهوالك .

ثم تعكّر هذا الحوار الرقيق بأصوات غليظة وصل صداها البغيض إلى ساحة العرين ، فما تلك الأصوات ؟

تلك أصوات القرود وقد شمتوا بآدم وحواء ، فكانوا يثبون إلى الأشجار ثم ينزلون ، في انجذاب يشهد بأنهم صاروا من الفرح مجانين ، ثم بدا لهم أن يضعوا أخشاباً في الكوثر ليركبوها ، كما كان يصنع آدم وهو يداعب حواء .

وسمع الأسد الأكبر بهذا الضجيج فأقبل يعنّف شيخ القرود .

ـ ما هذه الضجة ، أيها القرد ؟

ـ نحن نحتفل بعدل الله

ـ وما ذلك العدل ؟

ـ هو الحكم على آدم بما هو له أهل

ـ ما خطر ذلك الحكم الذي استوجب أن تقيموا من أجله هذا الاحتفال ؟

ـ لقد كُشفت سوأة آدم ، ولله الحمد !

ـ إن سوأة آدم من أمام ، فهو يسترها بلا عناء ، وسوأتك من خلف أيها القرد ، وستظل إلى الأبد وأنت مفضوح ، لأنك شمتّ بآدم المظلوم

ـ كيف يكون مظلوماً وقد عصى الله ؟

ـ ذلك شرف لن تناله . لأنك ضعيف

ـ وهل تحتاج المعصية إلى قدرة ؟

ـ نعم ، ولأجل هذا سأعصي الله كما عصاه آدم

ـ فتأكل من شجرة التين ؟

ـ أي تين يا قرد ؟ إن لي في العصيان مذهباً لا يخطر للقرود في بال

ـ وما هو ذلك المذهب ؟

ـ هو أن أبطش بكم جميعاً في لحظة واحدة فأريح الوجود من وجوهكم القباح

ـ أنت إذن لا تخاف الله ؟

ـ وكيف أخاف من يسمح بأن تكون للقرود دولة ؟ أنا كافر بالله ، كافر ، كافر، إن جاز عنده أن تقوم دولة للقرود أو أشباه القرود ؛ ففضوا هذا الاحتفال السخيف، وعودوا إلى حظائركم صاغرين ، وإلا نكلت بكم أشنع تنكيل .

ـ وهل صنعت شيئا يعاب ؟

ـ إن الشماتة إثمٌ حقير وخسيس ، وهي لا تقع إلا من الأوشاب ، فانزووا أيها القرود قبل أن يحل عليكم غضبي ، فأنتم أحقر من أن تبوءوا بغضب الله ، ولعله منحني من الشراسة ما منح لأؤدب ما يجلّ عن تأديبه من القرود والثعالب والذئاب .

***

حين وقع الزلزال في الجنة نظر رضوان فرأى الحية تزحف بسرعة تفوق المألوف من زحفها الممقوت ، فأدرك أن عليها جانباً من المسؤولية ، فمنعها من الخروج إلى أن تنجلي الأمور . ونظر فرأى إبليس يهرول ليقتحم باب النجاة ، فردَّه على عقبيه إلى أن يأذن الله لأن يكون من الناجين .

ثم سُمع هاتفٌ يصيح :

ـ ماذا تستفيد يا آدم من الاختباء في تلك الألفاف ؟ [1]

ـ لأنجو من حسابك يا مولاي

(1) إشارة إلى ما جاء في كتاب «شيث» وما جاء في «التوراة» من أن آدم وحواء اختبئا في ألفاف الأشجار حياء من الله بعد انكشاف الستر عن السوأتين المجهولتين . (زكي مبارك)

ـ وكيف تنجو من حسابي ، وأنت جان أثيم ؟

ـ لك الأمر من قبل ومن بعد

ـ ولهذا أدعوك إلى الوقوف غداً في ساحة العدل ، فاحضر من تريد من الشهود، ومن تشاء من المحامين ، ليرتفع اللبس في تقدير ما لك وما عليك .

ـ أنت الشاهد وأنت الوكيل ، فاقض بعدلك ورحمتك ما أنت قاض

ـ هو ذلك ، ولكني أريد أن أقيم بنفسي أول محكمة في الوجود .

8- اجتماع الملائكة في مسجد الفردوس [1]

سمع الملائكة بما صار إليه أمر آدم ، وعرفوا أنه سيقدَّم للمحاكمة بلا تسويف ، وترامى إليهم أنه قد يتخذ منهم شهوداً على براءته من تهمة العصيان . فاجتمعوا بمسجد الفردوس ليتشاوروا فيما يليق بهم أن يصنعوه إن دُعي فريقٌ منهم للشهادة في ساحة العدل ... فما الذي دار من الأحاديث في ذلك الاجتماع ؟

قبل أن ندون هذا المشهد نذكر أن شيث بن عربانوس يدير كلامه على أساس يخالف ما تعارف عليه جمهور المؤرخين ، فهو لا يرى أن آدم صاحب حواء كان أول آدم ، وإنما سبقته أوادم تعد بالمئات أو بالألوف . وسنرى كيف يحدثنا أن آدم حين هبط الأرض وجد فيها جماجم بشرية تشهد بأن الأرض سُكنت قبله بأمم لا يعرف أخبارها غير علام الغيوب .

وقد هالني هذا الرأي ، فمضيت استفتى المؤلفات الإسلامية لأعرف حظه من الصحة أو البطلان ، فماذا وجدت ؟

رأيت من يحكم بأن في قول الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ دليلاً على أنهم رأوا قبل ذلك أجناساً آدمية تفسد في الأرض وتسفك الدماء . ورأيت من يجعل «الخليفة» في قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(1) الرسالة : 13 إبريل 1942 .

آدم جديداً يخلف الأوادم القدماء [1] .

ومع أن هذه الأقوال لا تستند إلى نصّ قطعيّ الثبوت والدلالة ـ كما قال أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ، رضي الله عنه وأرضاه ـ فهي تؤيد مذهب شيث بن عربانوس ، أو تجعله مذهباً لا يتأثم الباحث من الاعتماد عليه وهو يقص أخبار آدم الرسول .

والحق أن عبارة القرآن وعبارة التوراة صريحتان في أن آدم صاحب حواء هو أبو البشر . وعبارة القرآن أصرح في هذا المعنى ، فالمألوف في أسلوب القرآن أنه ينهي كل نبي عن الوقوع فيما وقع فيه من سبقوه . ولو أن آدم كان سُبق بأمم بائدة لقص الله عليه أخبارها كما صنع مع سائر الأنبياء ، فلم يبق إلا أن نعدّ شيث بن عربانوس مسؤولاً عن القول بأن آدم صاحب حواء ليس أول إنسان شهد هذا الوجود .

ويظهر أن كتاب شيث بن عربانوس كان معروفا في بعض البيئات الإسلامية قبل أزمان طوال ، فقد رأينا أبا العلاء المعري يقول :

جائزٌ أن يكون آدم هذا ... قبلهُ آدمٌ على إثْر آدم

ويقول :

وما آدمٌ في مذهب العقل واحداً ... ولكنه عند القياس أوادمُ

ويقول في شيء من الخُبث :

قال قومٌ ولا أدينُ بما قا ... لوه : إن ابن آدم كابن عرسِ
جَهِلَ الناس من أبوه على الـ ... ـدهر ولكنه مسمَّى بحرس
في حديثٍ رواه قومٌ لقوم ... رهنِ طرس مستنسخ إثر طرس

(1) آدم في هذه العبارة ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل ، فسنرى بعد قليل أن هذه اللفظة عربية الأصل . (زكي مبارك)

ولعل «الطرس» الذي عناه أبو العلاء هو كتاب شيث بن عربانوس واسمه «تاريخ البشرية» وإن لم نجد فيه ذلك الاستهزاء البغيض .

وقد أسرف أبو العلاء في الغض من شأن آدم حين يقول :

قالوا وآدم مثلُ أوبرَ ، وابنُهُ كبناته ، جَهِلَ امرؤٌ ما أوبرُ

وهو قول لا يعتمد على بينة ولا برهان . وأسخفُ منه زعم فريق من قدماء الهنود بان آدم كان عبداً من عبيدهم ثم هرب إلى الغرب ، ولم يَعد إلا حين أثقلته تكاليف الأبناء !

وبهذه المناسبة أقول : كان المرحوم مصطفى كمال زعم أن آدم وحواء من أصل تركيّ ، وقد أزعجني هذا الزعم الفظيع ، فكتبت إليه خطاباً أثبتّ فيه أن آدم وحواء من أصل عربيّ ، بشهادة الاشتقاق ؛ فآدم على وزن أفعل ، من الأُدمة وهي السُّمرة المشبعة بالسواد ، وحواء على وزن فعلاء ، من الحوّة وهي سمرة الشفتين، ثم رجحت أنهما من أهل نجد ، بدليل ما في أشعار آدم من الإقواء . وقد انتظرت أن يجيبني مصطفى كمال ولكنه لم يفعل . فسألت بعض الأتراك المقيمين بالقاهرة فأخبروني أن مصطفى كمال لم يكن يقبل الاطلاع على خطاب مكتوب بالحروف العربية بعد أن فرض على قومه جميعاً أن يكتبوا بالحروف اللاتينية .

ما لي ولهذا ؟

إنما أريد أن يعرف قرائي أن كتاب شيث يقوم على أساس القول بأن آدم سبقته أوادم ، ليعرفوا كيف اشتجر الملائكة وهم ينظرون فيما صار إليه بعد العصيان .

في مسجد الفردوس

تنادى الملائكة للاجتماع في مسجد الفردوس ، فحضر فريق وتخلّف فريق ، وكانت حجة من تخلفوا أنهم أبدوا رأيهم في آدم قبل أن يُخلق ، فهم لا يحبون التدخل في أمر مخلوق شرس لا يرضيه إلا أن يكون الوجود منادح شقاق ونضال

وصيال . وقد خلقه الله برغم رأيهم فيه فليصنع الله به ما يشاء . فهو المنتقم وهو الغفور !

ورأى الذين حضروا أن يصلّوا قبل الكلام في قضية آدم ، لتزداد نفوسهم صفاءً إلى صفاء ، فيسلموا من أوضار التطاول والإسراف ، فما يجوز أن يجلس أحدٌ مجلس القضاء إلا بعد الصلاة والقنوت ، وبعد التحرر من شوائب الأهواء !

أحد الملائكة ـ هل ترون أن يكون لهذه الجلسة رئيس ؟

ملك آخر ـ إنما هلك الآدميون بسبب الرؤساء .

ملك ثالث ـ كنت أحب أن تقول بسبب استبداد الرؤساء . أو تناحر الرؤساء ، فالرياسة مأخوذة من الرأس ، وهو في العرف مجتمع العقل ، فمن الواجب أن يكون لكل جماعة رئيس !

ـ ولكن ما حاجتنا إلى رئيس ؟!

ـ لينظم الكلام عند اشتجار الجدال

ـ لا يحتاج المتكلمون إلى رئيس إلا حين تغلب عليهم شهوة الثرثرة ... إن وجود الرئيس هو في ذاته شهادة بضعف المجتمع الذي يحتاج إليه ، ولو أدّى كل مخلوقٍ واجبه تأديةً صحيحة لتساوت أقدار المخلوقين . ولن تنجح أمة إلا حين يصبح كل فرد من أفرادها وهو مرءوس لعقله ورئيس علي هواه . وقد حمانا الله من الأهواء فلن نحتاج إلي رئيس . وعلى هذا أرجو أن يدور الكلام بلا ترتيب ولا تنسيق ، علي أسلوب الغابات لا أسلوب البساتين .

ـ ماذا تريد ؟

ـ أريد أن يكون كلامنا طبيعيًّا على نحو ما تكون الغابة ، ولا أريد أن يكون منسقًا على نحو ما يكون البستان ، فالفطرة في الغابات أقوى من الجمال المصنوع في البساتين .

ثم دار الحديث على الصورة الآتية بلا تمييز بين الآراء [1] :

ـ أرأيتم كيف صحت فِراستنا في آدم فعصى ربَّه وغوّى ؟

ـ تريد الرجوع إلى التاريخ القديم يوم حاورنا الله في خلق «آدم» ؟

ـ هذا ما أريد

ـ ولكن فاتك أن مضغ حوادث التاريخ عملٌ ضائع ، فآدم خُلق بالفعل، وهو شرٌّ موجود ، أو خيرٌ عتيد ، والمهم هو أن نحدد موقفنا بالنسبة إليه .

ـ نحن من نور وهو من طين

ـ ولكنه أحدث في الجنة زلزلة لن نستطيع مثلها أبداً ، وستجعل له مكانة في التاريخ

ـ تحسده على ذلك ؟

ـ ومن أحسد إذا لم أحسد آدم ؟ نحن جميعا موكلون بعدّ ما له وما عليه ، مع أنه خُلِق من طين ، فهل تكون للطين فاعلية يخفى علينا سرها المكنون ؟

ـ إن تحقير الطين بدعةٌ أذاعها إبليس اللعين ، ويكفي الطين شرفًا أنه أصل آدم .

ـ وآدم مخلوقٌ شريف ؟

ـ بالتأكيد

ـ وبرغم العصيان ؟

ـ أي عصيان ؟

(1) معنى ذلك أن الحوار لن يكون دائما بين شخصين ، وإنما هو حوار مرسل يقول فيه كل ملك ما يريد ، ومجموع أقوال الملائكة يصور في جملته آراءهم المختلفة في نكبة آدم الجديد . (زكي مبارك)

ـ الأكل من شجرة التين

ـ إنما أراد الله أن يأكل من الشجرة المحرمة لنجد عملاً ، ولو نزَّه الله آدم عن المعاصي لبقينا بلا أعمال . وهل يعيش القضاة والمحامون والشهود إلا بفضل انحراف الناس عن سواء السبيل ؟

ـ إن رأسي يدور من هول ما تقول

ـ وهل قلت غير الحق ؟ إن آدم هو مصدر الفاعلية في جميع أرجاء الوجود ، ومن أجل ضلاله وهداه تُنصب الموازين

ـ نحن مقبلون على متاعب جديدة بسبب آدم الجديد

ـ وهل أنت راض عن الراحة التي عانيناها بعد انقراض آدم القديم ؟

ـ شكرا لك ، أيها الرفيق ، فقد خطر في بالي مرةً أن الله قد يسرِّح جيوش الملائكة بعد انقضاء مهمتهم في مراقبة السلالات الآدمية .

ـ أخطأت أخطأت ، فما كنا جنود شرطة ولا جنود استطلاعات ، وإنما خُلقنا للتسبيح والتقديس .

ـ خُلقنا للتسبيح والتقديس ؟ يظهر أنك لم تفهم السخرية الملفوفة في قوله تعالى : ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ .

ـ وكيف سَخِر الله منا بهذه العبارة ؟

ـ حين عقّب بها على قولنا : ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فهو لا يرى التسبيح والتقديس أفضل من الإفساد وسفك الدماء ، بدليل انه سكت عما اتهمنا به الطبيعة البشرية .

ـ تأدبْ أيها الملك ، فأنت في غفلة عما يعنيه صاحب العزة والجبروت ، ولو قضيت دهْرك في الاستغفار لعجزت عن محو هذا التطاول الممقوت .

ـ أريد أن أعرف كيف لا يكتفي الله بالتسبيح والتقديس ؟

ـ وما حاجة الله إلى التسبيح والتقديس من أقوام لا تعتلج في صدورهم معاني الكفر والإيمان ، والشك واليقين ؟ إنما يرضى الله عن تسبيح من يهتدي بعد ضلال ، ويؤمن بعد كفران .

ـ إن رأسي يدور من هذا التخريج .

ـ سَلِم رأسك إن كان لك رأس ، أيها الشرطيُّ الذي يريد الإقامة بمنطقة ليس فيها خلائق .

ـ أتفهم من هذا أن البشر أفضل منا ؟

ـ لك أن تذكر أن الله يعاقبهم بالانقراض ، ثم يتلطف فيخلقهم من جديد ، لحكمة سامية ، وكيف يغيب عنك المعنى الذي استوجب خلق آدم الجديد في الفردوس ؟

ـ كنت أحب أن أعرف هذا السر العجيب .

ـ خلقه الله في الجنة ليأخذ فكرة عن النظام والترتيب والعدل ، وليكون له مثلٌ أعلى يدور حوله حين يقيم مملكته الجديدة على الأرض . ولو أن الله أنشأ الأوادم القديمة هذه النشأة لقلّ بغيُ بعضهم على بعض وسلموا من آفة الانقراض .

ـ غضبة الله عليهم ، فما كانوا إلا وحوشاً في ثياب ناس !

ـ هل تذكر بعض أعمالهم القباح ؟

ـ أعمالهم القبيحة تفوق العد والإحصاء ، ولكني أرجح أن الله لم يعاقبهم بالهلاك إلا حين عاملوه بما لا يليق .

ـ وكيف ؟

ـ كانوا يضيفون إليه أوامر ونواهي لم ينزل بها وحْي ، ولا صَدَرَتْ عن شرع ، ليسوموا رعاياهم سوء العذاب ، باسم الله وهم كاذبون .

ـ كما صنع آدم الجديد ؟

ـ آدم الجديد لم يصل إلى ذلك الدَّرَك ، فقد عصى الله عن جهل .

ـ إنما عصاه عن حذلقة .

ـ وما حذلقة آدم الجديد ؟

ـ قال الله : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فترك ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ بعينها ثم قرب شجرة من ذات الجنس ، وهو يتوهم أن في هذه الحذلقة ما ينجيه من العقاب .

ـ إن آدم حيوان لئيم !!

ـ وبلا عقل ، فلو كان يعقل لأدرك أن الله لا تخفى عليه خافية من حِيل الفقهاء ، وسنرى كيف يدافع غداً عن إثمه في ساحة العدل .

ـ لا يَبعُد أن يرضى الله عن بلاغته وهو يصوّر الدميم بصورة الجميل .

ـ الجمال في نظر الله هو الحق ، وذلَّ من يزعم انه يستطيع مخادعة الله ، هلك آدم القديم بسبب الحذلقة الفقهية ، وسيهلك آدم الجديد بسبب الحذلقة الفقهية . وسنقول فيه كلمة الحق والصدق إن دُعينا للشهادة في ساحة العدل .

ـ تذكر أنه صاحب حواء !

ـ ماذا ؟

ـ آدم الجديد هو صاحب حواء .

ـ لا أفهم ما تريد أن تقول .

ـ أريد أن أقول أن آدم لن يهبط الأرض إلا ومعه حواء .

ـ وتظن أننا نزور الشهادة من أجل حواء ؟

ـ أنا لا أدعو إلى تزوير الشهادة ، وإنما أدعو إلى الترفق بمن يملك امرأة جميلة .

ـ بهذا هَلَك بنو آدم الأول ، فقد كان فيهم من يحالف أمةً تعادي أمته من أجل وجهٍ جميل ، والجمال سهم يصيب صدر الأسد الرابض في حمى العرين .

ـ وما رأيك في المَلك الذي نظّم باقةً من أزهار الفردوس ليتحف بها حواء ؟

ـ كان ذلك بوحي الله .

ـ إنما كان ذلك بوحي الجمال .

ـ هذا تخريج لا أرضاه .

ـ إنما هو حساب يساق إليك .

ـ الآدميون الأغبياء يهيمون بالجمال ، فكيف يعاب علينا أن نهيم بالجمال ؟

ـ ومن أجل الجمال عصى آدم ربه طاعة لحواء ، أفلا يستحق العطف ؟

ـ سأنظر في هذه القضية .

ـ العجيب أن تُخلق بلا شهوات ثم تهيم بحواء ، فما حال آدم المظلوم في حب حواء وهو مخلوقٌ موقّر بأوزار الشهوات ؟

ـ نهاه الله عن الانخداع لحواء وما نهاني .

ـ كان الظن أن تفهم أن النهي لا يوجه إلا لمن تغيب عنهم دقائق الأدب الرفيع .

ـ أتتّهم الملائكة بالغباوة ؟

ـ اتهمك وحدك .

ـ أنا ملكٌ مِثلك .

ـ لن تكون مثلي إلا حين تعترف اعترافاً صريحاً يزيغ البصائر والعقول .

ـ ولن أعترف إلا إذا سمح جمهور الملائكة بان أتهم الله بالغَرَض .

ـ ماذا تريد ، يا زنديق ؟

ـ أريد القول بأن الله خصّ حواء بأشياء .

ـ لتحلو في عيني آدم ، لا في عينيك .

ـ أمركم عجّبٌ من العجب ، أنتم تعرفون أن الجمال في ذاته شريعة أزلية ، ولا ينظر إليه إلا أصحّاء القلوب ، كالشمس لا ينظر إليها إلا أصحاء العيون ، ونحن مطالبون بالنظر إلى جميع ما في الوجود ، لنزداد يقينًا إلى يقين ، فكيف يجب النظر إلى زهرة نضيرة ولا يباح النظر إلى وجه جميل ؟

ـ أُترك هذه الفلسفة وحدِّد رأيك في آدم .

ـ هو من المذنبين .

ـ لأنه غريمك في حواء ؟

ـ غريمي في حواء ؟ كيف ؟ وهل جُنِنْتُ حتى أهيم بمخلوقة لا تملك غير عينين نجلاوين ، ولا تعتزّ بغير قدها الرشيق وأنا أعرف أنها سرقت سواد عينيها من عيون الظباء ، ونهبتْ مرونة قدها من أعواد البان ؟ أنا أحب مخلوقةً مقتولة اللحظ مبحوحة الصوت ؟

ـ هي سبب نكبة آدم فلتهبط معه إلى الأرض .

ـ يهبط وحده ، وتبقى حواء ، فما عددت عليها ذنباً يستوجب العقاب .

ـ هذا ما أردنا أن نصل إليه ، فقد زعم خصومك أنك لم تراع الأمانة في عدّ أعمال حواء .

ـ اسمعوا ، أيها الملائكة ، اسمعوا ، هل تظنون أن الله يحتاج إلى من يعدّ على عباده الذنوب ؟ إنه عزّ شأنه يعلم من سرائر القلوب ما لا نعلم ؛ وهو لم يوكّلنا بعدّ الأعمال إلا ليختبر ما نحن عليه من الأدب والذوق ، فهو يبغض أن نكون

جواسيس ، وهو يرجو أن نتخلق بأخلاقه فنتغاضى عن أشياء .

ـ وهل يتغاضى الله عن أشياء !!

ـ لو حاسبَ الله مخلوقاته بالعدل الحاسم لأهلك طوائف من الملائكة والناس .

ـ من الملائكة ؟

ـ نعم ، من الملائكة ، الملائكة الذين يتعقبون رفيقاً من رفاقهم فيأخذون عليه أنه قدَّم باقةً من الزهر إلى حواء !

ـ لا تنس أنهم الملائكة الذين يرجون أن تتناسى ذنب آدم كما نسيت ذنوب حواء !

وهنا وقف أحد كبار الملائكة وصاح :

«أيها الرفاق المصطَفَوْن :

«لا أحب أن نحترب في شأن آدم أكثر مما احتربنا ، فلنا مع أسلاف هذا المخلوق تاريخ ، وستكون لنا معه تواريخ ، وأنا أدعوكم إلى الرفق به إن دعيتم إلى الشهادة غداً في ساحة العدل ، فالصدق في الشهادة يُطلب في حالة واحدة ، هي الحالة التي يقضي فيها كتمان الشهادة بضياع الحقوق ، والترفق بآدم لن ينتصر به باطل ، ولن ينهزم به حق ، وأنا أخشى أن يغضب الله علينا إن أدينا الشهادة تأديةً حرفية . وهل يحتاج القاضي العالم بالسرائر إلى شهود ؟!

ـ ونُذنب بالكتمان ؟!

ـ قد يكون الكتمان في بعض الأحوال أشرف من البلاغ[1] !!!

ـ أوضِحْ ، أوضح .

(1) البلاغ من معانيه الوشاية ، ومنه : «قدم فلان بلاغًا إلى النيابة العمومية» . (زكي مبارك)

ـ آدم متهم بالعصيان ، ولهذه التهمة إن صحّت عواقبُ سود ، فعلينا أن نقف في صفه صادقين أو مرائين .

ـ وماذا يقول الله ؟

ـ سيقول إن سَتْر العيوب فضيلة لا يتحلى بها غير الملائكة والأنبياء !

(للحديث شجون)

9- قبل اليوم المشهود [1]

قضى آدم في صحبة حواء ساعات وهو ينتظر اليوم المشهود في ساحة العدل ، وهي ساعات كانت أطول من الدهر وأثقل من الجبال .

وزاد في كروب تلك الساعات ، إن آدم لم يكن في حقيقته إلا خِلقة فطرية يُعوزها الصقل والتهذيب ، فكان يبدئ ويعيد في حكاية شجرة التين ، بعبارات محمَّلة بعُنجهية الملامة وفظاظة التريث ؛ وكانت حوّاء تصبر على أذاه في حين ، وتثور في أحايين ، وكذلك كانت تلك الساعات أعنف وأفظع من الحساب المرتقب في ساحة العدل .

ـ آدم ، هل وصلت إليك الأنباء الأخيرة ؟

ـ أيّ أنباء ؟

ـ لقد اختصم الأسود والقرود

ـ ثم ؟

ـ ثم اختصم الملائكة المقرَّبون

ـ وفيم اختصم أولئك وهؤلاء ؟

ـ في أمرنا بعد العصيان

ـ وما قيمة ذلك ؟

(1) الرسالة : 20 إبريل 1942

ـ لقد فهمت مما سمعت أن الرأي العام يعطف على قضيتنا كل العطف

ـ الرأي العام كله ؟ كل سكان الجنة ينظرون إلى قضيتنا برفق ؟

ـ ليسوا جميعاً سواءً ، وإنما عطف علينا الأكابر من أولئك السكان

ـ والأصاغر ؟

ـ هم دائما أصاغر ، ولا قيمة لضجيجهم الصخّاب

ـ ليس في هذا ما يزيل مخاوفي ، يا حواء ، فما خشيت يوماً أن يصيبني أذى من أكابر الخلائق ، ولا جاز في وهمي أن تُصدر كلمة الإفك عن مخلوق جمّله الله بالقوة أو بالعقل ، وإنما الخوف كل الخوف من الأصاغر ، فهم الذين يذيعون الصحيح والعليل من أخبار السوء ، وهم الذين يطمسون محاسن الأكابر بالإفك والإرجاف ، ليقال إن الوجود ليس فيه فاضل ومفضول.

ـ لا عليك من هؤلاء ، فلن يسمع أحدٌ ما يأفكِون ... وهل ضعفت العقول حتى تُسيغ أقاويل المرجفين ؟

ـ لو كانت العقول تَنقُد كل ما تسمع ، وفي كل وقت ، لرجوت ان تسقط أراجيف الكاذبين ، ولكن العقول لا تَنقُد كل ما تسمع ، ولا تنصب ميزانًا لكل ما يقال ، وسترين يا حواء أن أصحاب العقول أقلية ضئيلة وهم مع ذلك لا يشغلون أنفسهم بإنصاف المظلومين ، وليس فيهم من يترك أعماله ليرفع الشبهات المفتراة من طريق المروَّعين بالبهتان .

ـ ألم تسمع أن الأسود غضبت من تطاول القرود ؟

ـ سمعت ، ولكني أعتقد أنها غضبة وقتية ، فستجد للأسود شواغل تصرفهم عن تأديب أولئك الأنذال .

ـ وقد غضبت البلابل أيضاً

ـ أعرف ذلك فقد سمعتها تقول إن آدم هو المخلوق الوحيد الذي يطرب

لصوتها الرخيم ، وإنه إن خرج من الجنة فلن تهش للتغريد ... ولكن من يضمن أن يدوم هذا العطف ؟ نحن شجعنّا البلابل والعنادل على الغناء ، وأقمنا لهم دولة ، ونبّهنا الخلائق إلى ما يملكون من جواهر السجع والرنين . فهل يذكرون هذا الفضل بعد أن نخرج من الفردوس ؟ أنا أخشى أن تصفق لهم الضفادع فيرون النقيق من صور الثناء !

ـ هل بلغك ما قالت الببغاوات ؟

ـ نعم سمعت أنها قالت «إن مخارج الحروف عند آدم سهلةٌ لينة ، وأنها تحاكيه في النطق بلا عناء ، فهو بذلك أجمل مخلوق » وأنا من هذا أخاف يا حواء .

ـ وكيف ؟

ـ ستستطيع الببغاوات أن تزعم أنها خلائفُ

ـ خلائفُ مَنْ ؟

ـ خلائف الحيوان الناطق .

ـ خلائف آدم ؟

ـ إي ، إي ، أليست تنطق كما ينطق ؟

ـ ولكنها لا تفقه شيئًا مما تنطق ؟

ـ من حق الببغاوات أن تدّعي لأنفسها ما تشاء ، حين يغيب أهل العقل والبيان .

ـ ولكن أهل الجنة سيذكرون دائماً انك وحدك الشاعر والخطيب .

ـ أهل الجنة لن يذكروا شيئا ، وسوف تعلمين .

ـ خبلتني ، خبلتني !

ـ إن كنتِ في حاجة إلى تزيد من الخبال ، أيتها المخبولة الحسناء ... اسمعي .

ـ إنك تُرعبني حين تقول اسمعي .

ـ اسمعي يا حواء ، ثم اسمعي ، المجد يحتاج إلى حراسة ، والأصدقاء يحتاجون إلى حراسة ، وقد تكون رعاية الغنم أسهل من رعاية الأصدقاء ، ولن يحفظ عهدَنا أحدٌ حين نغيب .

ـ ولا الظبي الذي ربيناه منذ أسابيع ؟

ـ سيجد ذئبًا يرعاه ، وسيأنس بالأنياب الحداد ، أضعاف ما أنس بالأنامل اللطاف .

ـ هي أناملي ، لا أنامِلُك .

ـ حتى في أوقات الكرب الماحق لا تنسى المرأة أنها مخلوق لطيف !

ـ ترتاب في جمالي ؟

ـ أستغفر الله !

ـ ولا تستغفر الحب ؟

ـ وأستغفر الحب وأتوب إليه !

ـ صِدق ، صِدق ؟

ـ وهل كذبتُ عليك يوماً يا حواء ؟

ـ أنا إذن جميلة وأنت تحبني ؟

ـ ما أحببتُك يوماً ، ولا رأيتك جديرة بالحب ، لأن عقلك أصغر من عقلي ، والحب تفاهم بين عقلين ، قبل أن يكون تلامسًا بين جسمين ، ولكن صوتًا يزعجني يا حواء .

ـ وما ذلك الصوت المزعج ؟

ـ هو الصوت الذي يصرخ بأن لا بد لآدم من حواء .

ـ تقول هذا وأنت الذي يُشغل عني بما في الفردوس من شجر ونبات وطير وحيوان ؟

ـ أنا شُغِلت عنك بتلك الخلائق ؟ هيهات ثم هيهات ! كنت أتأمل الأشجار لأعانق الغصن الذي يشبه قدك النشوان ، وكنت أداعب الأزهار لأرى فيها شمائل من خدك الوهاج ، وكنت ألاعب الأطيار لأسمع سجعاً يذكّر بصوتك المقتول ، وكنت أناغي فصائل الحيوان لأعرف أن لك صوراً في عيون الجآذر وأجياد الظباء. حبك يا حواء أذواني وأضناني وأبلاني ، وستسمعين من أخباري ما تكرهين .

ـ عَدَتْك العوادي ، أيها الفارس الجميل !

ـ سأصبح فارساً بلا فَرَس .

ـ أنت ؟

ـ نعم ، أنا ، فقد حدثني أحد الملائكة أن الله لا يقيم وزناً لهفوات النساء ، فإن القضاء الذي سيقام في ساحة العدل سيجعلني المدين .

ـ وحدك ؟

ـ وحدي !

ـ وإذن ؟

ـ وإذن أهبط الأرض وتَبْقَيْنَ في الفردوس .

ـ مع من ؟

ـ مع جميع هذه الخلائق من شجر ونبات وطير وحيوان ومع نهر الكوثر ، ومع الملائكة المقرَّبين .

ـ أهذه خلائق ؟

ـ بالتأكيد ، وفيها الكفاية لمن يحتاج إلى أنيس .

ـ وأصير كالدَّجاجة الحائرة عند غياب الديك ؟

ـ كيف تحارين وأنت بين المهتدين ؟

ـ هداية حواء في غيبة آدم هي أقبح صورة من صور الضلال .

ـ سيقضي الله في أمرنا بما يشاء .

ـ الله سيقضي بأن تعيش المرأة بلا رجل ؟

ـ سيقضي الله بالعدل ، فالرجل أذنب والمرأة لم تذنب ، والعقاب لا يحق على غير المذنبين .

ـ تخرج من الجنة وأبقى وحدي بحجة أنك المذنب ؟

ـ بالطبع !

ـ وهذا عدل ؟

ـ هذا هو العدل .

ـ والله يريد ذلك ؟

ـ يقال !

ـ آدم ، سترى أنني أشجع منك ، وأوفى منك !

ـ من السهل أن تكوني أشجع مني ، ولكن من الصعب أن تكوني أوفى مني .

ـ المرأة لا تعتصم بالدلال إلا في أوقات الصفاء ، وهي عند الخطر فداء الرجل من جميع الأسواء . ألم تسمع حديث الصائد ؟

ـ وما حديث الصائد ؟

ـ إذا ساور الصائد أسداً ولَبُؤة ، كان عليه أن يقتل اللبؤة قبل أن يقتل الأسد .

ـ ولماذا ؟

ـ لأن الأسد ينسحب بعد انصراع اللبؤة ، أما اللبؤة فتقاتل بعد انصراع الأسد إلى أن تموت .

ـ وأنا سأجادل الله يا آدم .

ـ وتجادلينه يا حواء ؟

ـ أنا أفصح من جميع المحامين ، والمرأة تحارب بالدمع حين تعجز عن المحاربة باللسان .

ـ ولكن الله أكبر من أن ينخدع بدمع المرأة ولسانها .

ـ أنا أعرف الله أكثر مما تعرف .

ـ كل شيء جائز إلا أن تصل المرأة إلى معرفة الله على الوجه الحق .

ـ أنت لا تعرف خطر المرأة حين تصرخ وتولول .

ـ أو ينزعج الله عزّ وجل شأنه بالولولة والصراخ ؟

ـ سترى كيف أصنع ، سترى ، سترى ، سأقيم مناحة في ساحة العدل ، وسيبكي معي جميع الإناث من الطير والحيوان .

ـ والنتيجة ؟

ـ النتيجة معروفة منذ هذا الوقت ، فسيصفح الله عنك ، ليريح اهل الجنة من الولولة والصراخ .

ـ ويقول التاريخ إن آدم نجا من العقاب لأن امرأته بكت في ساحة العدل ؟

ـ ما قيمة التاريخ ، وهو لفظٌ بلا مدلول ، ولا يعتزُّ به غير الضعفاء ؟

ـ وتقولين كلما اختصمنا إنك سبب نجاتي !

ـ هل يؤذيك أن تعترف بفضلي عليك ؟

ـ تمنّين عليّ قبل أن يقع الفضل المزعوم ؟ أنت السبب فيما أعاني من البلاء

مع هذا تطالبين بالثمن لدفع نكبةٍ جناها عقلُك المنخوب !

ـ أنا أعقل منك !

ـ لأنك أغريتني بالأكل من شجرة التين ؟

ـ وهل في الجنة شيء اسمه شجرة التين ؟

ـ تكذّبين الواقع الملموس ؟

ـ واقع ملموس ؟ ما هذا الكلام الأجوف ؟

ـ شجرة التين ، يا حواء ، شجرة التين .

ـ قلت لك إن الجنة ليس فيها شيء بهذا الاسم الغريب .

ـ ولم نقع في العصيان ؟

ـ أي عصيان ؟

ـ العصيان الذي أوجب أن نفتضح ، يا حواء .

ـ وكيف افتضحنا ، يا آدم ؟

ـ بظهور السوأتين .

ـ الطير والحيوان لا تعرف السوأتين ، فأرح نفسك من هذا العناء .

ـ أترين أن أواجه الله بهذا القول ؟

ـ واجه الله بما تشاء ، ولا تخف من غضبه عليك !

ـ وكيف ؟

ـ لأنه لن يصنع بك أشد مما صنع .

ـ ماذا ؟ ماذا ؟

ـ لقد خلق لك ضميراً ، ثم خلق لك ضميراً ، لتقضي حياتك في عذاب !

ـ وإذن ؟

ـ وإذن تكفر بالله وتثور عليه .

ـ لأصير ...

ـ لتصير حيواناً سعيدًا كسائر أصناف الحيوان .

ـ الفضيحة الأبدية ، ولا هذا المصير ، يا حواء .

ـ ماذا تريد بنفسك يا آدم ؟

ـ أريد أن أكون أول مسؤول أمام الله في هذا الوجود .

ـ وما غنيمتك من هذه المسؤولية ؟

ـ هي أن أتشرف بالثواب والعقاب .

ـ الله قد يعاقب ولا يُثيب .

ـ يهمني أن أُعاقب ولا يهمني أن أُثاب .

ـ لأنك ...

ـ لأني رجل ، وسعادة الرجولة في احتمال التبعات .

ـ وبهذه العقيدة ستلقَى الله في ساحة العدل ؟

ـ نعم ، نعم .

ـ وإذن يكون من حقي أن أقول إني في صحبة رجل هو أشجع الرجال وأشرف الرجال !

10- في ساحة العدل [1]

قبل أن أمضي في الكلام عما وقع في «ساحة العدل» أذكر أن فرصة جميلة أتاحت لي مقابلة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر «محمد مصطفى المراغي» فتلطّف ـ حفظه الله ـ وقدَّم إليَّ ملاحظات سديدة على بعض ما مرَّ من الآراء في هذه الأحاديث ؛ وكان من كلامه ما نصُّه بالحرف :

«أنت متجه إلى إلقاء تبعة المعصية على حواء ، وفاتك أن تذكر أن عدم تماسك آدم هو السبب في تمرُّد حواء » .

والواقع أني طفت بهذا المعنى في «حديث السِّدرة» . ولكن عبارة الأستاذ الأكبر دقيقة جدًّا ، وهي من الإيجاز النفيس ، ولعل فيها ردًا على من غضبوا جاهلين يوم دعوناهم إلى الحزم في معاملة النساء .

سريرة آدم

ضاق صدر آدم بما وقع من قرب الشجرة المحرَّمة ، وفاض كربه حين تذكر أن حديث الله مع الملائكة كان مقصوراً عليه فقد قال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ولم يذكر حواء ، وكذلك سكتت الملائكة عن حواء ، فكيف يفوته ان يلتفت إلى هذا التفرد بالتكليف وهو غاية في التشريف ؟

ثم تذكّر أن الله عرض الأمَانة على السموات والأرض والجبال فأبَين أن

(1) الرسالة : 27 إبريل 1942 .

يحملنها ؛ وتشجَّع آدم فحملها وهو لا يدري أن شجاعته لم تكن إلا ضربا من الظلم والجهل .

لو كان آدم يعلم الغيب لأعلن عجزه عن حمل الأمانة بعد نكوص السموات والأرض والجبال ، ولكن شبابه فتنه وأغواه فتوهم أنه يقدر على حمل جميع الأثقال.

سيقف آدم في ساحة العدل وهو نادم خَزْيان ... ألم يضيِّع الثقة بمواهبه السامية ؟ ألم ينهزم أمام امرأة أعظم أسلحتها البكاء ؟

في ساحة العدل ستحتشد الخلائق من الملائكة والطير والجن والحيوان ، وذلك أول معرض يعرفه التاريخ . ولن يكون آدم متفرجا في هذا المعرض ؛ ولكنه مع الأسف الموجع سيكون مَسْلاة المتفرجين . والويل كل الويل لمن يصبح فرجةً لأهل الفضول ، ولو كانوا من الأشراف ، إن جاز لأهل الشرف أن يشهدوا موقفاُ يتأذّى به رجل شريفٌ .

سيقف آدم متهماً ، آدم الذي اصطفاه الله ، ولم يسمع فيه أقوال الملائكة المقربين ؛ فبأي وجهٍ يقف في قفص الاتهام ، وأمام القاضي الذي منَّ عليه بنعمة الوجود ؟

جهنم أروح من الوقوف في ساحة العدل بالفردوس .

كان آدم يتمثل من لمحة إلى لمحة شماتة الشامتين ، ثم يخفّ كربه كثيرا أو قليلا حين يتذكر أن الذين اعترضوا على خلقه هم الملائكة ، والشماتة لا تجوز من أصحاب الأرواح النورانية .

ولكن الجنة فيها سكان لا يمتّون إلى النور بعِرق ، ومن حقهم أن يشمتوا في المخلوق الذي يفوقهم بمراحل أبعد مما بين الأرض والسماء .

أتستطيع المعصية وهي حقيرة وخسيسة ودميمة أن تمنح الأنذال فرصة التعالي على الأبطال؟

لو كان آدم يعرف أن المعصية ستجعل من حق الحشرات أن تتسابق في الزحف على البطون لتشهد موقفه في ساحة العدل ... لو كان آدم يعرف أن إبليس المطرود سيتبجَّح بأنه أغواه بلا عناء ... لو كان آدم يعرف أن الله يحبه ، وأن استهانة المحبوب بأوامر الحبيب من علائم الخذلان ... لو كان آدم يعرف أن الموت في الطاعة أشرف من الحياة في العصيان ... لو كان آدم يعرف ، لو كان آدم يعرف !!

طافت هذه الخواطر بآدم وهو في الطريق إلى ساحة العدل فكاد يُصعق من هول الموقف . وكاد يتمنى لو تحول إلى حيوان أعجم لا يفقه كنه التكاليف . وهل يستطيع مع المعصية أن يقول إنه أشرف من أي حيوان ؟

لقد عصى ربّه فغوى ، فما استعلاؤه وقد هوت به المعصية إلى الحضيض ؟

المعصية إثمٌ موبق ، لو جازت على الجبل لحوَّلته إلى هباء . عصى آدم ربه فغوى ، فليستعد آدم لحمل جريرة العصيان . وكيف يعصي الله من يعرف أنه خالق الأنوار والظلمات ؟ وكيف يعصي الله من يعرف أنه واهب القدرة على العصيان ؟ وهل تكون الشهوة الأثيمة أعذب مذاقاً من العلقم الذي يجترعه من يصد نفسه عن الآثام ؟ إن حرمان النفس من أهوائها في سبيل الطاعة له طعم شهيٌّ جداً ، فكيف غابت هذه الحقيقة عن آدم ؟ وكيف رضي أن يضام بسبب هواه في مسايرة حواء ؟ لو كان يملك محو هذه الخطيئة بأي ثمن لكانت روحه أول مبذول ولكنه لا يملك محو ما وقع ، وسيؤدي ثمناً أعظم من الروح ، هو سمعته بين سكان الفردوس ، فسيشهدون جميعاً أنه مَدين ، وأن عقله لم يعصمه من الانحراف عن جادة الرشاد . وسيرى بعينيه وجوهاً لا تعيش إلا من اغتياب الأحرار ، وهو الذي قدّم الزاد بنفسه لتلك الوجوه الشوهاء .

جَلْجَلتْ هذه المعاني في صدر آدم فجلس يستريح تحت إحدى الشجيرات وهو يتمنى لو ضلّ الطريق إلى ساحة العدل ، وخطرت له فكرة الهرب ولكن إلى

أين ؟ وهل من عدالة الله مهرَب ؟

ثم تشجع فجأة لخاطر جميل طاف بنهاه ، فما ذلك الخاطر الجميل ؟

تذكر آدم أن الله يعاقب مرة واحدة ثم يصفح لأنه عظيم ، أما الذين يعاقبون على الهفوة الواحدة مرات كثيرة فهم صغار الخلائق . وما على آدم بأس من عقوبة تمر وتمضي ثم يواجه أعماله من جديد وقد تطهَّر بالعقاب.

وقاضي اليوم هو الله ، والعدل مضمون مضمون ، ولا خوف من التزيد والإسراف ، فليمض آدم إلى المحكمة وهو ثابت القدم رابط الجأش ، فما في كل وقت تكون المحاكم إلى ذلك الجبار الرؤوف ... وفي أثناء الطريق ثارت نفسه فدمدم :

«إن الله لا يحكم على آثم إلا بعد أن يتيح له الألوف من فرص المتاب . فكيف يعاقبني لأول هفوة تبدُر مني ؟»

فهتف هاتف : تأدب يا آدم ، واذكر نعمة الله عليك ، فما عاجَلك بالعقوبة إن كان سيعاقبك إلا ليؤكد كرامتك الذاتية بين الخلائق .

ـ التعجيل بالعقوبة مزية ؟

ـ مزية عظيمة ، لو كنت تعرف .

ـ أحب أن أعرف .

ـ العقوبة حكمٌ لك لا عليك .

ـ لم أفهم شيئًا ، أيها الهاتف .

ـ ستفهم بعد لُحَيْظات ، وستندم على أنك لم تأكل شجرة التين بفروعها وجذورها .

ـ أرجعُ فآكلها أكلاً لَمًّا ؟

ـ احترس ، ثم احترس ، فأنت نبيّ ، والأنبياء يراعون ظواهر الشرائع قبل أن يراعوا بواطن الحقائق ، ترفقًا بمن يغيب عنهم إدراك اللباب من أسرار الوجود .

ـ إذن كان من حقي ...

ـ لا حق لك في شيء ، فامض خاشعًا إلى ساحة العدل .

ـ بدون خوف ؟

ـ بأعنف صورة من صور الخوف ، لأن الله يبغض الآمنين أشد البغض .

ـ وكيف ؟ كيف أيها الهاتف ؟

ـ لأن الشعور بالأمان بداية الخذلان، والله لا يرضى لك أن تسير إلى الانحلال.

سريرة حواء

رأت حواء بجزع وارتياع أنها لم تُدْع لحضور «ساحة العدل» إلا مع الشهود ، فما معنى ذلك ؟ معناه أنها لم ترتق إلى منزلة العقاب ، معناه أن منزلتها في هذه القضية منزلة ثانوية ، ومعناه أنها لم تجترح غير الإغواء ، وهو ذنبٌ مقسَّم على ثلاثة شخوص: الحية وإبليس وحواء ... ثم صرختْ:

ـ أنا الجانية ، أنا الجانية ، وآدم لم يأكل ثمرة التين إلا من يدي .

ـ فهتف هاتف ، لن يُنصب للمرأة ميزان ، وهي التي تفرّق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه ، ولن يغفر الله للمرأة أنها لا تدخل بيتاً إلا شطرته إلى شِيعَ وأحزاب ، وقد كانت وستكون أول مصدر للنزاع والشقاق .

ـ لعلك تريد حواء الأولى ، أيها الهاتف ؟

ـ حواء الأولى لم تعرف التبرّج .

ـ وأنا متبرجَة .. أنا ؟؟

ـ نعم ، فقد شهدتُك تَنْظمين من حبوب البسلة عِقداً تزيّنين به جِيدك الأغيد ،

ورأيتك تعصرين الزهر بين كفيك ثم تمسحين بعصيره أجزاء من جسمك البديع لتظهر عليه خطوط وردية أو عسْجَدِية .

ـ وما العيبُ في ذلك ؟

ـ العيب أنك لا ترضين بما قسم لك الله من الحظوظ .

ـ وماذا أعطاني الله ؟ ماذا أعطاني ؟

ـ كل امرأة تقول هذا القول ، وما رضيت امرأةٌ عن نصيبها أبداً .

ـ وما نصيبي ؟ وهل كان لي من النعيم نصيب ؟

ـ لك آدم يا حواء .

ـ آدم الذي يريد أن يتمتع وحده بجريرة العصيان ؟

ـ تريدين أن تقاسميه أعباء الجريرة ؟

ـ هي جريرتي وحدي ، وأنا صاحبة الحق الأول في الوقوف جانيةً «بساحة العدل» .

ـ وترين موقف الجناية من مواقف التشريف ؟

ـ هو فرصة لأن يصبح الجاني على ألسنة جميع الخلائق .

ـ إن كان هذا ما تريدين فاطمئني ، فلن تقع جريمة في شرق أو غرب إلا قيل «فتِّش عن المرأة» . ولن يتنسّك عابد ، أو يترهب زاهد ، إلا طلبًا للسلامة من كيد المرأة . ولن تخلو شريعة من التحذير المخيف ، التحذير من حبائل النساء . ولن يرتفع مرتفع أو ينخفض منخفض إلا وفي خياله أن امرأة نصحتْه فارتفع ، أو خدعته فانخفض . ولن يبرع أديبٌ أو فنّان إلا وهو مَدين لمخلوقة سفيهة أو حليمة من بناتك يا حواء . لن ينبغ كاتب أو شاعر إلا بوحي يُوحى إليه من إنسانة عليلة الطرف أو صحيحة الفؤاد . ولن يخلو كتابٌ من اسم المرأة ، ولو كان شريعة تتلقاها الأرض عن السماء .

ـ أرَحْتني ، أرحتني ، أيها الهاتف .

ـ إنما نريح مصدر التعب لنستريح !

جلسة علنية

صدر القرار بان يحاكم آدم في جلسة علنية يشهدها جميع سكان الفردوس ، فكان على الملائكة أن يهيئوا ساحة العدل تهيئة تسمح بأن يشهدها أولئك الخلائق بلا عناء .

وكيف تحضُر جميع الخلائق ؟

في الطيور طوائف من الحواضن ، والطيور الحواضن لا تترك البيض المحضون ولو تعرضت للموت من الظمأ والجوع ، فمن المستحيل أن تترك أعشاشها لتشهد محاكمة آدم صاحب حواء .

وفي الأنعام بهائم تأكل الطعام وهي مطعونة بسهم الموت ، فلا أمل في أن تتحرك لشهود القضاء في ساحة العدل .

وهنالك الحمير ، وهي لا تعلن عن سرورها بغير النهيق ، فمن الخير ألا تحضر مجلس القضاء وصوتُها أنكر الأصوات .

وفي الوجود خلائق لها أبصار ، وليس لها بصائر ، فمن الحزم أن تُراح من شهود جلسة لا يستفيد منها غير أرباب القلوب .

ثم اتفقت آراء الملائكة على أن المراد بعلنية الجلسة إعطاء الفرصة لمن يستطيع الحضور ،وليس المراد أن تحضر الخلائق جمعاء ، وهل يتيسر لأسماك الكوثر أن تشهد محاكمة آدم وهي تُعرَّض للموت إن طال ثواؤها بالعَرَاء ؟

والحق أن الملائكة لم يشهدوا في ماضيهم القديم أصعب من ذلك الموقف ، فقد كان عليهم أن يراعوا في تهيئة ساحة العدل طبائع الطير والحيوان والحشرات ، فمن الطير أنواع تستريح إلى الأرض ، أمثال الحَجَل والكروان والهداهد والطيور المائية ،

ومن الطير أنواع لا تستريح بغير الوقوف فوق أعواد ، فكيف تُعدّ الساحة لأولئك وهؤلاء؟ إن ذلك لا يتم بغير متاعب ، والجلسة مستعجلة، ولا يمكن طلب التأجيل .

وعرضت للملائكة مشكلتان في غاية من الخطورة : المشكلة الأولى مشكلة النزاع الذي ثار بين الأسود والقرود بعد فضيحة آدم وحواء ، وهو نزاع قد يثور من جديد إن قضى الله على آدم بما يشرح صدور القرود .

أما المشكلة الثانية فهي الخوف على الطيور المغردة من عدوان الطيور الجارحة، فالصقر يشتهي الطير المغرد شهوة عارمة ، ويكاد يتوهم أن لحم الطير المغرد أطيب من خدود الملاح ، وتلك الطيور لن تسكت عن التغريد ، لأنها مفطورة على حب الغناء ، ولو في حضور الشواهين ، والجمال قد يجني على الجميل .

قال أحد الملائكة : ولكن نحن في الجنة ولا خوف من بطش الأقوياء بالضعفاء .

فقاله له صاحبه وهو يحاوره : كنا في الجنة !

ـ كنا ؟

ـ نعم ، كنا ، وما فات مات .

ـ أوضِحْ ، يا رفيقي . أوضح .

ـ كانت الجنة جنة .

ـ فصارت ؟

ـ فصارت كما ترى ، ألا تعرف أن آدم عصى ربه فغوى ؟

ـ وما خطرُ ذلك ؟

ـ هو خطرٌ فظيع فظيع ، وأنا أخشى أن تكون معصيته قدوة سيئة لجميع سكان الفردوس ، فسيقول قائلهم : إن ما جاز صدوره عن الكبار يجب صدوره عن الصغار .

ـ وآدم كبير ؟

ـ هو كبير الكبراء ، وستعرف صدق ما أقول بعد حين .

ـ وإذن تكون معصيته شرًّا مستطيراً ، وأغلب الظن أن الله سيطرده من الجنة بلا إمهال .

ـ برغم منزلته العالية ؟

ـ خفضته المعصية ، فلينزل إلى الحضيض ، إلى الأرض التي لا يعرف فيها السعادة غير الديدان ، فهي وحدها التي تُرزق في الأرض بغير حساب .

ـ والنتيجة ؟

ـ والنتيجة أن جلسة اليوم تحتاج إلى حزم ، وهي تجربة قاسية ، فلنحاول تقسيم الحاضرين إلى طوائف تَفْصِل بينها حواجز ، لنأمن الثورة المرتقبة من هياج الغرائز الغافية في صدور الطير والحيوان . ولهذا اليوم ما بعده يا رفيقي ، فإن نجحنا في تنظيم هذه الجلسة إلى أن تمر بسلام ، فسنكون أهلاً للثقة التي تمنحنا الحق في أن نكون عل جميع الخلائق رقباء .

اليوم المشهود

كان سكان الجنة تسامعوا بأخبار حواء ، ولم يرها منهم إلا الأقلون ، بسبب احتجازها بين البواسق ، وبسبب نفرتها من أهل اللغو والفُضول ، وبفضل ما فُطرت عليه من الدلال المدوف بالكبرياء .

والفرصة الوحيدة لأن يروها أجمعون هي حضور محاكمة آدم في ساحة العدل، فمن المؤكد أنها ستحضر لمواساة فارسها الجميل .

خفَّ سكان الفردوس لمشاهدة حواء ، ولم يختلف إلا من صدَّته الرعاية الواجبة للأفراخ أو الأشبال .

من كان يظن أن الأسماك رحَّبَتْ بالموت لتقضي ساعة أو ساعتين في

مشاهدة حواء ؟

وتقدم غضنفلوث لتمتطي حواء ظهره المنيع ، فدخلت الساحة في عِزة لا يظفر بمثلها الملوك.

فكيف كانت حواء في ذلك اليوم ؟

كانت وكانت وكانت :

كان طرفها الكحيل يعد ويخلف في اللمحة الواحدة ألوف المرات ، وكأنه جذوات تقتتل في هدوء وسكون .

وكان أنفها في ملاحته يتموج تموجاً نورانياً في حدود يوحي بها لحنُها الرنّان .

وكان صوتها ـ صوت حواء الجميلة ـ يشهد بان حناجر البلابل والعنادل أودعت حلقها الرخيم .

وكان نحرها ـ نحر حواء ـ مرمراً ينطق . وما أخطر المرمر الذي ينطق !

وكان لثناياها بريق يفوق بريق الحَبَب عند فورة الرحيق .

وكان لذراعيها استدارة فنية تهتف بأن الله يزيد في الخلق ما يشاء .

أما جسم حواء في جملته بلا تفصيل ، فهو الوجود في جملته بلا تفصيل .

كانت أرقّ من الأزهار في آذار ، وأعذب من الأعناب في آب .

كانت أحلى من وسوسة الأماني في الصدر المكروب ، وأشهى من جلجلة المعاني في القلب الموهوب .

وكان تثنّيها يوهم بأن قوامها أُلِّف من خطرات تفوق العدَّ والإحصاء .

في المكان المحدود من جسمها البديع ألوان وألوان ، فكأن كل جزء من أجزاء ذلك الجسم قصيدة تحترب فيها القوافي والأوزان ، والألفاظ في الشعر الرائع تشبه الأوصال في الجسم الفينان .

كانت حواء في ذلك اليوم ... كانت وكانت وكانت .

فكيف كانت ؟ كيف لا كيف ، ألم يكف أنها حواء ؟

قال الصقر : لو كانت هذه أنثاي لنذرت الصوم عن لحوم الكنار شكرا لله على هذه المنحة الغالية .

وقال الأسد : لو كانت هذه أنثاي لشكرتُ الله بالصفح عن القرود .

وقال البلبل : لو كانت هذه أليفتي لابتدعت لحنًا يسكر سكان الفردوس .

فهتف هاتف : حواء لآدم ، وآدم لحواء ، وليس في الإمكان أبدع مما كان . فغضُّوا أبصاركم عن حسنٍ هو عزاء آدم في بلواه ، وهو حجته في استباحة العصيان .

محكمة ، محكمة !!

ونظر آدم فرأى جلال الله يسيطر على الموقف ، ورأى أنه سيحاسب أمام جميع الخلائق .

ـ رباه ، أجِرني !

ـ وكيف أجيرك وأنت مذنب ؟

ـ أحب أن يكون الحساب في جلسة سرية .

ـ لماذا ؟

لأدافع عن نفسي بحرية ، فعندي كلام لا أحب أن يسمعه القرود ولأني أخاف أن تنصعق حواء من شماتة الشامتين ، وهي أرق من الوهم الذي يساور القلب الأوَّاب .

ـ لك يا مخلوقي الأثير ما تريد على شرط أن تكتم ما سيدور في الجلسة السرية ، فأنا أعلم أنك ستفوه بأقوال تزلزل عزائم الآساد في رعاية الأشبال .

11- محاكمة «آدم» و «حواء» في جلسة سرية[1]

بين المحسوس والمعقول

سنجد في حديث اليوم أن الله ظهر «لآدم» و «حواء» بصورة حسية ، وذلك يخالف العقيدة الإسلامية ، فكيف نقبل تلك الصورة مع تنزيه الله عن أن تراه الأبصار ؟

الحل سهل : فنحن نلخّص كتاب شيث بن عربانوس ، وهو كتاب وُضعت أصوله في عهود فطرية لا تُدرك المعقولات إلا عن طريق المحسوسات ، فهي لا تتمثل الله إلا بصورة حسية تراها العيون .

وما وقع في كتاب «شيث» وقع مثله في النسخة الموجودة بين أيدي الناس من «التوراة» ، فعبارة التوراة الصريحة في أن الله ظهر لآدم ، وان آدم وامرأته اختفيا بين أشجار الجنة حياء من ملاقاة الله وجها لوجه بعد العصيان .

وعل فرض أن التوراة الموجودة بين أيدي الناس هي التوراة الحقيقية ، وأنها لم تُصّب بتحريف ولا تبديل ، فمن الممكن أن نرجع نصوصها إلى الاستعارة التمثيلية ، كما صنع المفسرون حين وجدوا في القرآن ألفاظاً لا تساير الروح الإسلامي إلا بعد التأويل .

(1) الرسالة : 4 مايو 1942 .

والواقع أن الإنسانية في عهودها الفِطرية جسَّمت جميع المعاني ، فقد جعلت لله وجها ويدين ، وصورته بألوان لا نراها اليوم ، بعد أن ارتقت العقول فصار من السهل أن نؤمن بان الله ليس كمثله شيء ، وانه فوق ما تتصور الأوهام والظنون .

وما سُقنا هذا التمهيد لقراء (الرسالة) وهم من الخواص ، وإنما أردنا أن نحرر الموقف تحريرًا يرفع من طريقنا جميع العقبات لنصل إلى الغرض بسلام وأمان .

الجلسة السرية

انزعج فريق من الذين حضروا الجلسة حين طلب آدم أن يحاكم في «جلسة سرية» وأخذ منهم الغيظ كل مأخذ حين انطوت إجابة الله على ما طلب ، فقد كانوا يشتهون أن يُشبعوا ما انطوت عليه جوانحهم من شهوات الفُضول ، وكانوا يتوقون إلى معرفة ما سيدافع به آدم عن نفسه في ذلك المقام الرهيب ، وربما كان فيهم من تسوقه ثائرة الحقد إلى رغبة التشفي من آدم وهو مأخوذ بجريرة العصيان .

جزع آدم

كان الخوف من شماتة القرود هو الذي حمل آدم على طلب الجلسة السرية ، وفاته أن يذكر أن لعلنية الجلسة حكمة عالية ، فهي تدعو القاضي إلى التلطف في الاستجواب ، ترفقاً بمن يحاسب أمام جماهير لا تخلو من أعداء وأغبياء ، وفاته أيضا أن يذكر أنه سيقف وحده أمام قاضيه ، وللوحدة رهبةٌ تُزيغ البصر وتعقل اللسان .

آدم يقف وحده أمام الله في جلسة سرية ؟

وأين المحرّضون على المعصية وهم ثلاثة شُخُوص : إبليس والحية وحواء ؟

فإن كان الله يريد إقامة العدل فليطلب حضور المحرّضين ليلقوا جزاءهم على التحريض .

وما كاد هذا الخاطر يطوف بقلب آدم حتى صاح الهاتف :

ـ آدم ، لا تجمع بين المعصية والجهل .

ـ أنا من العُصاة ولست من الجاهلين .

ـ إن اعتراضك على الله هو الغاية في الجهل .

ـ أنا لا أعترض على الله ، ولكني أطلب إقامة العدل .

ـ وما العدل عندك ؟

ـ هو أن يحاسب المحرضون قبل أن أحاسب .

ـ ومن هؤلاء المحرضون ؟

ـ الحية وإبليس وحواء . ومهما يكن فلا أقل من أن يحاكم إبليس اللعين .

ـ اترك إبليس في غفوته ، يا آدم ، ولا توقظ الشر الوسنان .

ـ لا بد من محاكمة هذا اللعين على التحريض .

ـ إبليس لعين ؟

ـ بشهادة الله .

ـ وكيف انخدعت بأحابيله وأنت تعرف أن الله شهد بأنه لعين ؟

ـ تلك هفوة أوقعني فيها الجَدُّ العاثر .

ـ آدم ، لا تجمع بين المعصية والجهل .

ـ أراك تكرر هذه العبارة ، أيها الهاتف ، فماذا تريد ؟

ـ أريد القول بأن الله لم يعلن غضبه على إبليس إلا لحكمة سامية .

ـ وما تلك الحكمة ؟

ـ هي أن يرفع الغشاوة عن أصحاب الغرور والغفلة والانخداع .

ـ أوضح ، أيها الهاتف .

ـ إن الله سخّر إبليس لامتحانك ، يا آدم ، وشاءت رحمتُه بك أن يعلن أن إبليس شيطانٌ رجيم ، لتنقطع حجتك في الانخداع أو لتأخذ الحيطة لنفسك فتحترس من ذلك الناصح الظنين ... فإذا استطاع إبليس على سوء سمعته أن يجرّك إلى العصيان ، فكيف تكون حالك لو كلّف الله بامتحانك أحد الملائكة المقرَّبين؟

ـ آه ، آه ، آه ، صعقتني أيها الهاتف !

ـ ما صعقتك ، ولكنني نصحتك ؛ فاترك إبليس في غفوته ـ ولا توقظ الشر الوسنان .

ـ وماذا يقول إبليس لو ألححتُ في محاكمته على تهمة التحريض ؟

ـ سيصمتُ صمت الأموات .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه على رأسه الشُّرطة السرية .

ـ هو إذن جاسوس ؟

ـ إن كانت هذه اللفظة تشفي غليلك فاملأ بها مسامع الأرض والسماء !

ـ أراك تعطف على إبليس مع أنه شاقَّ الله بعناد وكبرياء .

ـ لا يستطيع مخلوق أن يشاق الله ، ثم يترك له الله أي فرصة للتمتع بنعمة الوجود .

ـ أيرضى الله عن نزعات إبليس ؟

ـ لو أعلن رضاه لضاعت الفرصة في امتحانك .

ـ إن رأسي يدور من هول هذا المنطق .

ـ كنت أنتظر أن يدور رأسك من هول ما صنعت بنفسك .

ـ وماذا صنعتُ بنفسي ؟

ـ انخدعت بنصيحة مخلوق كتب الله عليه اللعنة إلى يوم الدِّين ، فكيف يكون حالك لو خدعك مخلوق غير ملعون ؟ إن إبليس فضح نفسه حين قَصَر دعوته على العصيان ، وكان في ذلك ما يكفي لرفع الغشاوة عن عينيك .

ـ آه ، آه ، آه ، صعقتني ، أيها الهاتف !

ـ وسأصعقك مرة ثالثة فأقول : إنك شهدت على نفسك بالغفلة والحمق حين انخدعت لمخلوق مفضوح ، فقد أعلن على رؤوس الأشهاد أنه سيزيّن لك ولذريتك وأنه سيغويكم أجمعين ، فما دفاعك عن نفسك وقد صلصل الناقوس بأن إبليس غريمك وأنه سيصرعك حين يستطيع ؟ ما دفاعك وقد وضعت قدميك فوق أشواك سمعتْ أخبارها أذناك ورأتها عيناك ؟

ـ وترى أيها الهاتف أن أسكت فلا أطلب محاكمة إبليس على التحريض ؟

ـ ذلك ما أراه ، فأنا أخشى أن يظهر لسكان الفردوس أن إبليس أشرف منك .

ـ أشرف مني ؟ وكيف ؟

ـ لأنه خادعٌ وأنت مخدوع ، فإن لم يكن أشرف منك فهو أقوى منك ، والقوة من علائم التشريف .

ـ وألقي الله وحدي وجهاً لوجه في هذا المقام الرهيب ؟

ـ كما لقيته وحدك وجهاً لوجه حين عصيته .

ـ أكان الله يراني عند العصيان ؟

ـ ألم تكن تعرف أنه يراك ؟ إن أوزارك بالجهل أوزارٌ ثقال !

ـ يظهر أني سأخسر القضية في ساحة العدل .

ـ لا خسران في ساحة العدل ، فستفوز بأعظم ربح وهو التأديب .

ـ اترك الحية واترك إبليس ، واكتفي بحضور حواء .

ـ لتحاسب ؟

ـ لتشهد محاسبتي ، فقد يرى كرم الله أن يعفيني من الذل فما تكرم امرأةٌ زوجها إلا إذا كان من الأعزّاء ، وما أحسب الله يريد أن أهان .

يوم الحساب

ـ من أنت يا هذا ؟

ـ عبدُك آدم .

ـ وما تلك بيمينك ؟

ـ أَمَتُك حواء .

ـ وفيم حضرتما ؟

ـ لنقول : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

ـ من علَّمكما هذا الأسلوب من المتاب ؟

ـ هو بعض ما تلقينا من فيض هدايتك الربانية .

ـ وما الذي كان يمنع من إعلان هذا المتاب بحضور سكان الفردوس ؟

ـ منع من ذلك الخوف من رفض هذه التوبة على مرأى ومسمع من القرود .

ـ ولكن القرود خلقٌ من خلقي ، ومن حقهم أن يشمتوا بالآثمين .

ـ هذه بداية مرعبة ، وأنا أدعوا الله أن يتفضل بإمهالي يوماً أو يومين لأستعد

للدفاع .

ـ أمهلتك أسبوعًا .

ـ وخرج آدم من الجلسة السرية وهو موقن بأن الأمل في نجاته عزيز المنال !

فما الذي سيقع بعد أسبوع ؟ وهل يُفلح آدم وهو صاحب حواء ؟

نسأل الله الصفح عن آدم ، فما عرفناه إلا فتىً وهّاج الروح والفؤاد .

***

توقف زكي مبارك عند هذه الحلقة من حلقات «بين آدم وحواء» بعد أن أوعزت وزارة المعارف عن طريق بعض الشيوخ بوقف هذه الحلقات ، واستجاب الأديب أحمد حسن الزيات رئيس تحرير مجلة الرسالة لطلب وزارة المعارف حتى يتجنب غضب بعض الشيوخ المتزمتين والأهم حتى لا تقطع وزارة المعارف اشتراكها في مجلة الرسالة وكان اشتراكًا مؤثرًا وكبيرًا في استمرار صدور مجلة الرسالة ، وحاول زكي مبارك أن يستكمل حلقات هذه الفنتازيا الأدبية الخيالية لكن دون جدوى فلم يجد وسيلة أمامه إلا الدوران حول الموضوع فكانت سبحاته في أجواء عالم الجن والملائكة سابحًا في فضاءات خيالية مفعمة بالأطياف النورانية المستلهمة من عالم الأساطير القديمة والأقاصيص الشعبية المثيرة لتعويض حرمانه عن استكمال هذه الفنتازيا القصصية الرائعة التي شدت القراء وفوجئوا بتوقفها بعد الحلقة الحادية عشرة.

رسائل مجنون سعاد

رسائل مجنون سعاد[1]

من الملهمات اللاتي كان لهن دور كبير في حياته وأدبه شاعرة حسناء من مدينة المنصورة وطن الشعر والفن والجمال ، وكانت تنظم شعرا وجدانيا رقيقا . هي «جيمي»

أحبها زكي مبارك بصدق وعاطفة قوية بعد عودته من باريس عام 1931 ...

فقد دخل المنصورة ذات صباح وكانت أول مرة يرى فيها المنصورة وكان يشعر بمتاعب وجدانية أثقل من رواسي الجبال ثم جلس على الشط (وأطلقت العنان لروحي وقلبي وعيني كان ذلك والنهر المبارك في طغيان ، والعبور بين المنصورة وطلخا يحتاج إلى سابح ماهر كالذي كنت في مطلع شبابي ، فقد عبرت النيل مرة من روض الفرج إلى وردان جلست على الشط أمام قهوة ثم حضر أحد باعة السمك .

(وكان فطورا شهيا لا يظفر الجائع بمثله إلا في القليل من الأحايين وبعد أعوام كانت لي في المنصورة بلطية جديدة لم تكن سمكة ، وإنما كانت فتاة أوحت إلي قلبي أطايب المعاني . لقد ماتت هذه الفتاة .. ماتت في قلبي وإن كانت لا تزال تتمتع بنسيم الحياة ومن مات في قلبي لا يجوز له أن يتوهم أنه من الأحياء إن كان لتلك الفتاة هوى ليشغلها عني فأنا عنها مشغول بألوف وألوف من الأهواء ... ولكن برغم هذا التجني أشعر من حين إلى حين بثورة في صدري تشابه ثورة

(1) مجلة الصباح : رسائل مجنون السعادة / 1939 .

البراكين ... أيكون معنى هذا أنني لن أتوب من حب هذه اللعوب ؟ وماذا يبقى في الحياة أن تبت من حب تلك الفتاة)؟

وقد تحدث عن ظروف كتابة هذه الرسائل الوجدانية الرفيعة ، فقال :

«هناك كتاب لم يسبق له مثيل ولا نظير وهو «رسائل مجنون سعاد» تلك التي أنشأها الدكتور بديع الزمان ...

«أما ذلك الدكتور ـ وأنا ذلك المجنون وأنا ذلك البديع ـ فقد كانت ترسل بطريقة سرية إلى صاحب مجلة «الصباح» لأنني كنت من أكابر المفتشين بوزارة المعارف ولا يجوز لرجل من أكابر المفتشين أن يتحدث عن الحب والجمال ... بدأت تلك الرسائل في بغداد ... لم تكن الموحية ليلى البغدادية وإنما كانت ليلى قاهرية رمت سهمها فأصمتني وأنا في بغداد . لقد اعتصرت فؤادي وأودعته تلك الرسائل» .

وشهدت روابي المنصورة الفيح ليالي الحب والشعر والنغم لمحبين صادقين ... واستمرت هذه العاطفة بين مد وجزر لبضع سنوات ...

وعندما سافر إلى العراق منتدبا للتدريس في دار المعلمين العليا ببغداد في نهاية عام 1937 اجتاحه الوجد والحنين ، فبدأ في نشر سلسلة من رسائل الحب والجمال سماها «رسائل مجنون سعاد» وآثر أن يخفي اسمه وينشرها بتوقيع «الدكتور بديع الزمان» وقد انتحل في هذه الرسائل شخصية طبيب أبدان بالرغم من أنه طبيب أرواح إمعانا في إخفاء شخصيته ... وانتحل لمحبوبته الشاعرة الحسناء اسم «سعاد» ...

وقد استغرق نشر هذه الرسائل فترة طويلة امتدت إلى ست سنوات كاملة تماوجت فيها أنغام الهجر والوصال والحب والحنين والوجد ...

ولكن من هي سعاد ؟..

هل تكون شخصية خيالية ؟ ..

هذا مستحيل .. فما يقضي شاعر عاشق مفتون مثل الدكتور زكي مبارك السنوات الطوال في التغني بهوى محبوبة من صنع الخيال !

وبالرغم من أنه قد أعلن أنها من أسيوط إلا أن الحقيقة تؤكد أنها من المنصورة واسمها «جيمي» . وقد بدأ هذه الرسائل عام 1938 وهو يقترب من السابعة والأربعين من عمره ، في ذروة نضجه الفني والنفسي والوجداني .

وقد قال زكي مبارك عن هذه الرسائل أنها تصور أعنف مأساة غرامية في العصر الحديث . وقد قبس هذه الرسائل من نار روحه ونور وجدانه ، فكانت أقباسا وجدانية في الحب والجمال..

ومن هذه الرسائل الرقيقة هذه الرسالة النابضة بالصدق والحرارة يقول فيها مناجيا سعاد :[1]

«أنا حزين ، يا سعاد ، والحزن مرض لا يدرس في كلية الطب ، وليس له أطباء فيما علمت، فأين الوجه الذي أغرق في سناه همومي وأحزاني ؟

«أين ؟.. أين ؟.. فقد طال بالحزن بلائي ! ..

«إلى أين أذهب بهمومي يا سعاد ؟ .. وفي أي بيداء أعتصم بالحيرة والضلال ؟

«لو كنت من الشعراء لقتلت حزني بالغناء ..

«ولو كنت من الصوفية لدفنت حزني في تربة الوجد مع الصابرين المصابرين في جيش الخلاص . ولكني ـ واأسفاه ـ شاب مفتون بمخلوقة صيغ جسمها من النور ، وصيغ روحها من الظلام ! ..

وقد عكست «رسائل مجنون سعاد» الملامح الوجدانية والنفسية والأخلاقية للدكتور بديع الزمان التي تخفى وراءها الدكتور زكي مبارك ليستطيع الإفصاح عن أسرار روحه وسرائر وجدانه بصدق وتجرد ، بعد أن حورب كثيرا من بعض

(1) هذه الرسالة : بتاريخ 5 مايو 1939 .

الأقلام الجامدة بسبب صراحته في الحديث عن بواطنه وأحاسيس قلبه وتموجات روحه الواثقة منذ بدأ يكتب أحاديث الحب بعد أن أصدر كتابه «مدامع العشاق» الذي أثار عليه الأراجيف والأباطيل من أساطين النفاق .

وعلى مدى اثنين وستين رسالة عبر زكي مبارك عن كل ما يجول في نفسه وقلبه من مشاعر وأحاسيس وأفكار وخواطر وجدانية وفلسفية جسدت ملامح شخصية زكي مبارك الحقيقية بصدق وصراحة مطلقة .

الرسالة الأولى

مولاتي سعاد ..

ليتني أعرف كيف وقع ما وقع بالأمس !

ليتني أعرف كيف كنت لي وحدي بعد تناول العشاء في حفلة نادي القلم المصري !

بل ليتني أعرف كيف أمكن أن يتسامح أولئك الأدباء الأغبياء فيجعلونا متجاورين على المائدة لأداعبك برجلي على طريقة «ميسيه» مع معشوقته «صاند» ؟

لقد كنت أحسبها لحظة عابرة لا تعود ، ثم دهشت حين رأيت من المفهوم عند أولئك الأدباء الأغبياء أنك لي وحدي ، وإني صاحب الحق المطلق في أن أصحبك إلى حيث أشاء ، وكانت لحظة سعيدة عرفت فيها أنني أملك أجمل إنسانة شربت ماء النيل ، نعم كنت أجمل إنسانة في حفلة ذلك المساء ، وهل كان هناك إلا دميمات أو عجائز لا يليق بهن غير التصون بالتزام كسر البيت ؟

لقد كنت عروس النادي في ذلك المساء وكان النساء ينظرن إليك حاقدات غاضبات . أما الرجال فكانوا ينظرون إلينا متأدبين خاشعين ، فمن الذي أعلمهم أني أحبك يا سعاد ؟

وهل بلغ من أدب محرر الليبرتيه أن يفهم أني أحبك يا معبودتي ، وأن من الواجب أن نكون على المائدة متجاورين ؟

حدثيني كيف اتفق ذلك ، فقد أصبحت مجنونا أو كالمجنون ؟

أحب أن أعرف كيف جلسنا متجاورين على المائدة ، وكيف أمكن أن نتناجى برجلينا ، وهو تناج طريف في دولة الحب والفتون ؟

وما أنكر غمزات محمد عوض ، والدكتور كامل حسين ، ولكن ماذا يعنيني؟ .. المهم أنك أصبحت لي وحدي ، وأني خرجت معك إلى سينما البوريتنيير يا سعاد ..

خرجت من النادي وذراعك في ذراعي ، وخرج الزملاء خروج المساكين ، فالشيخ مصطفى عبد الرازق لم يكن في صحبته غير نسخة من جريدة «البلاغ» ، والدكتور هيكل لم يكن في صحبتهم غير زوجات هزيلات فيهن الدميمة وفيهن الحيزبون ، وكنت وحدي أسعد الزملاء لأنك كنت في صحبتي يا سعاد ...

وأنت تعرفين ما وقع في السينما ، فهل تذكرين ؟ ..

هل تذكرين أننا مثلنا رواية أجمل وأودع من الرواية التي مثلت على الشاشة البيضاء ؟ ..

هل تذكرين أن النجوم وقفت مسالكها لتنظر كيف يأنس العاشق بمعشوقته أول مرة ؟ ..

هل تذكرين أننا قرأنا كتاب الحب في لحظة واحدة حين التقينا في تلك الليلة؟..

تذكري ما وقع في تلك اللحظة ، ثم تصوري كيف عاد أولئك المغبونون إلى منازلهم وهم بين أبله لم يذق طعم الحب ، وأديب فنان حرم لذة الحب ، وقد خرجنا من السينما قبل أن تتم الرواية ، ومضيت معك إلى الفندق ، وكنت ظالمة يا

سعاد ، فقد قهرتني قهراً على الاكتفاء بالماء ، ولا زلت أذكر كيف شرقت بالطعام ، وكيف أزدرده وأنا أسوغه بماء الدورق في فندق الكونتنتال ؟ ..

وهل رأى الناس عاشقا قبلي يشرب الماء في فندق الكونتنتال ؟ ..

اعترفي يا سعاد أنك كنت قاسية في تلك الليلة ! ..

اعترفي يا سعاد أك ظلمتني أقبح الظلم حين قضيت بأن تظل صحيفة ذنوبي بيضاء ، ولكن لا بأي ، فحسبي أنني كنت الرجل الوحيد الذي خرج من نادي القلم وفي ذراعه فتاة ساحرة العينين معشوقة البسمات ...

سيفنى كل شيء ، وتبقى الذكرى ، ذكرى تلك الليلة يا سعاد ...

أريد أن أعود مرة ثانية إلى غرفتنا بالكونتنتال ، فقد جنيت على نفسي أشنع جناية ، حين رحمتك فلم أقتلك بالعناق ، وحين لبست ثياب المغفلين فصحبتك في مساء اليوم التالي إلى محطة باب الحديد لتعودي إلى أسيوط ، ولو كنت أعقل لحبستك في بيتي إلى يوم الحساب !!

سعاد ، سعاد ..

لك على محبوك الغالي نعمة لن ينساها ما عاش ، فقد كان أعضاء نادي القلم يختالون بمراكزهم في المجتمع ، فقد كان فيهم عميد كلية الآداب ، وكنت بفضلك سيدهم جميعاً ، فقد كنت وحدي عاشق سعاد ..

مولاتي ...

أعلن لك حبي ، فتفضلي عليّ بصورتك المحبوبة لأؤنس بها وحشتي ولأؤمن بأن الحب قد جمع بين أعظم شاب في القاهرة وأعظم شابة في أسيوط ...

بديع الزمان

مصر الجديدة

الرسالة الثانية

سعاد ..

كانت ليلتي مملوءة بالصخب والضجيج .. فقد اشتركت في أكثر من عشرين معركة في هذا المساء ، وكانت حجتي في غاية من القوة ، وكان صوتي أقوى الأصوات ، لأني لا أزال أذكر أني كنت منذ أربع ليال سيد الناس جميعا في القاهرة ..

وقد رآني جماعة من أعضاء نادي القلم المصري في مشرب جروبي ، وشهدت ملامحهم وألحان أقوالهم أنهم يحقدون عليّ حقداً شديداً ، لأني كنت على رغم أنوفهم فارس سعاد ، ولكن هل يؤذيني ذلك ؟ وكيف أتأذى ، وأنا أرى طبيبا من المتشاعرين لا يتورع عن إيذاء عاشق مثلي ، وأنا كما يعرف وتعرفين من أصدق الناس ؟ ..

ليس من العجب أن أعشق ، ولكن العجيب أن ينسى قوم مراكزهم في المجتمع ، فيقفون مواقف العذال وفيهم من يشغل منصب الأستاذية في الجامعة المصرية منذ عشر سنين ..

ومن المؤلم أن أعجز عن دفع أولئك السفهاء . فقد أديت امتحاناتي النهائية أمام اثنين منهم سنة 1932 ، والاستاذية لها حقوق يا سعاد . حقوق أعظم من حقوق الحب ، ولا تؤاخذيني على هذه الصراحة ، فما يسرك أن أكون من أهل العقوق ..

حدثتك إني كنت في معارك هذه الليلة من المنتصرين ، ولم يؤذني غير فضول الدكتور «...والدكتور «...» وقد صبرت على تفاهة هذين الطبيبين . صبرت صبر الساخر ، لا صبر الجبان ، وقد أفهمتهما بصراحة أن رعايتي لحقوق التلمذة لن

تطول ، وأشرت إشارة خفيفة إلى ما لهما من صلات العطف على ما في القصر العيني من الجمال الذي يداوي ويجرح القلوب !

وقد وقف الدكتور «...» عند حده ، أما الدكتور «...» فأخذ يلاحيني ، وستعرفين بعد قليل كيف أصفى ما بيننا من حساب ، وغضبة الله على من يتطلعون إلى بسط السيطرة على تلاميذهم بعد أن يصبحوا من رجال الأعمال !

سعاد ..

هل قرأت ما وصفت به الجرائد سهرة النادي ؟ .. لقد طنطنت بأسماء الزملاء ونسيت اسمي ولكن لا بأس ، فقد كان فيهم «...» وكان من الكتاب المبرزين قبل أن أولد ، وتفردت «الأهرام» بالإشارة إلى زوجات الأعضاء . فتمنيت لو كنا زوجين في تلك الليلة .. ولكن هيهات أن أقبل من «الأهرام» أن تقول بديع ومدامته ، كما قالت عن الدكتور «...» وإنما كنت أهتم أن تقول بديع وأهله ، أو بديع وسعاده ، فمتى تكونين سعادي ، أو متى أكون بديعك ، بل متى يسير في الدنيا كلها أنني مجنون سعاد !

وقد غاظني أن يهجم المازني على حفلة نادي القلم المصري ، أستغفر الله ، فما هجم على الحفلة وإنما هجم على النادي نفسه وتنبأ له بالموت ..

فهل يعلم هذا الكاتب المتحذلق أن نادي القلم كان السبب في عشق متوهج لم يقع مثله في الشرق ؟ ..

هل يعلم هذا الكاتب أنني بفضل نادي القلم عرفتك يا سعاد ؟ ..

وماذا يعيبون على نادينا ؟ وماذا يعيبون عليه وهو أصدق شاهد لحلاوة الانسجام بين الجنسين ؟ .. إن المازني في مقاله «بالبلاغ» يقول بأنه لا يمثل مصر ، لأن فيه كثيرا من الشخصيات الأجنبية ، وهذا حق ولكن هل من الصدق أن نحكم بأن محرري الجرائد الأجنبية في مصر بالقياس إلى اللغة ، أما محرروها فهم قوم يعيشون في مصر ، وفيهم المحسن والمسيء ، كما يحسن المصريون أو يسيئون ..

سعاد ..

لا يحملنك التعصب الوطني على الغضب من كلامي ، فقد علمت أن الذي اقترح دعوة الأديبات لحضور ذلك العشاء محرر إحدى الجرائد التي تصدر في مصر بلغة أجنبية ، وبفضل اقتراحه وجهوا إليك الدعوة مع أنك في مدينة نائية ، وأين القاهرة من أسيوط ؟ وبفضل حضورك يا سعاد عقدت أكبر وثيقة غرامية في العصر الحديث ..

كان في نيتي أن أرد على المازني في «البلاغ» ، ولكني خشيت أن يتأرث عناده فيلفح النادي بمقالة ثانية ، فيتخاذل الأعضاء ثم لا تكون سهرة ثانية ولا أذوق لذة الغزل بالرجلين على المائدة يا سعاد ..

وقد أصبحت أخشى أن يتقوض هذا النادي ، لأن أعضاءه كهول وزوجاتهم عجائز ، ونادي القلم في أصل نشأته لا يرمي إلا إلى غاية واحدة .. هي إرهاف الذوق .

وكان يكفي أن تكون جذوته المشبوبة ، ولكني لن أمكن أحداً من الاقتراب منك ... ولن أسمح لعبقرية أن تتفتح بالنظر إليك ... وقد آن أن أصرح بأن حياة هذا النادي لم تعد تهمني ، فقد صار من الحتم أن تكوني أسيرة هواي ، وأن تحضري لزيارتي بالقاهرة حين أشاء ، أتفهمين يا شقية ؟ أتفهمين ؟..

حدثيني كيف سكت عن رسالتي الأولى ؟ .. هل من الكثير على شاب مثلي أن يتهتك في الحب ؟..

أنا أعرف أن الرسالة الأولى وقعت فيها كلمات نابية ، وهو كذبك ، وهل يمكن أن أميز بين ما يليق وبين ما لا يليق بعد أن تعانق قلبانا بإخلاص ساعة من زمان ؟ ..

اعترفي بحبي يا شقية !..

فإن لم تفعلي فسأتركك فريسة للحزن طول حياتك فقد أرسلت إلى صدرك نظرات من السهام المسمومة ، وما رشقت فتاة بسهامي إلا عزت عليها النجاة وعز عليها الخلاص ..

سعاد ..

إن هذا الحب فرصة حياتك لا فرصة حياتي ، فأنا أستطيع إن أجد ألف سعاد، أما أنتِ فلن تجدي فتى مثل بديع الزمان ..

آه ، ثم آه ..

وهل من الأدب أن أفوه بمثل هذا القول ؟ .. إنني أهدد ، وأنسى من أهدد ، أن أنسى أنك قد تغضبين وأنسى أن مصيري أصبح في يديك ، وأن كلمة منك قد تقذف بي في الهاوية أو ترفعني إلى سموات النعيم ..

توكلي على الهوى وانطقي كلمة الحب ، فقد كان مجلسنا بنادي القلم المصري مجلسًا مكشوفًا ، وأدباء القاهرة لئام لا تخفى عليهم حركات الأرجل ولا غمزات العيون ، فإن لم تعترفي بالحب راضية فستعترفين كارهة ، وسوف تعلمين !..

مصر الجديدة «بديع الزمان ، بل مجنون سعاد »

الرسالة الثالثة

أما شبعت من الصمت ، يا ناكثة العهد ؟..

هل يكون حبك سرابا في سراب ؟..

بئس ما صنعت حين رأيتك أهلا لحبي ..

بديع الزمان

الرسالة الرابعة

سعاد ..

من المؤكد أنك تلقيت رسالتي الأولى ، ورسالتي الثانية ، ورسالتي الثالثة ، فليس من المعقول أن يضل ساعي البريد عن منزلك في شارع الحمراء ، ومع هذا لم يصل منك جواب ..

وأعترف بأن عذرك مقبول ، فقد يكون في اجتماعنا في تلك البيئة المخضرمة التي جمعت بين المصريين والأجانب سببا في أن ترق منك الحاشية ..

واجتماع المصريين بالأجانب يفتح أبوابًا من الشر الظريف وأعترف أيضا أنك حين رجعت إلى أسيوط غلبت عليك حصانة أهل الصعيد ، فرأيت أن تنسي إلى الأبد لحظات الحب مع الطبيب الناشئ بديع الزمان الذي قضى ظلم المجتمع بأن يظل اسمه مجهولا بين الأسماء ..

أرأيت كيف أعتذر عنك أيتها المحبوبة الجافية ؟.. أن مطامعي فيك ، أيتها الغادة اللعوب ، لن تنسيني الواجب نحو وطني ، فأنا أتمنى أن يظل الصعيد قلعة حصينة لا يغزوها إثم ولا فتون..

ولكن هذه العاطفة الوطنية لا تنسيني شهوات النفس يا سعاد، وللنفس شهوات، ولو كانت العواطف الوطنية تنسى الرجال شهواتهم النفسية لأصبحت مصر عظيمة، فبأي حق تطلبين أن أكون وحدي مثال التضحية في الحب والوطنية ؟..

سعاد ..

أعترف بأن رسالتي الأولى وقعت فيها عبارات يأباها الذوق وقد يكون هذا هو السبب في اعتصامك بالسكوت ، ولكن كيف نسيت يا محبوبتي أني أعيش في زمن يغلب عليه الزيغ والارتياب ؟.. كيف نسيت أني أقرأ فيما أقرأ عبارات لم يكن

يحتملها ذوق الأسلاف ؟ فاعذريني إذا طاش لبي ، واحتمليني كما احتملت الأقطار العربية سخرية المازني ، وغرام زكي مبارك ، ولغو طه حسين ، وإيمان هيكل ، وشطحات العقاد ..

سعاد ..

أنا ضحية هذا الزمن الذي يسود فيه الإسفاف ، فلا تؤاخذيني على السفاهة الأثيمة التي وقعت مني يوم اجتمعنا في سهرة نادي القلم المصري ، وصدقيني إذا قلت أنني أرضى أن تكون زميلتي في حدود التصون والعفاف ..

اسمعي يا سعاد ..

أن سكوتك عني صار فرصة طيبة أدرس فيها نفسي ، فقد كنت في جميع الأندية أعلن إعجابي بما تنشرين من القصائد والأقاصيص ، واليوم لا أراك كاتبة ولا شاعرة ، وإنما أراك فتاة غبية لا تصلح لشيء ، وإن كان القدر الساخر أضافك إلى الفتيات المثقفات ، ومنحك إجازة فنية تسيطرين بها على معاهد التعليم حين تشاءين ..

سعاد ، يا غبية ، اسمعي ..

إن ما تدعين من التفوق في الأدب العربي والأدب الغربي لن ينفعك عندي ، وستظلين في نظري جاهلة غبية إلى أن تستطيعي قراءة النقوش المرسومة في صحائف قلبي فإن لم تفعلي ـ وستفعلين ـ فسيحل عليك غضب الحب ..

أنتظر جوابك يا سعاد قبل يوم الخميس ، فإن لم يصل فسأقضي ليلة الجمعة في قطار الصعيد ، وعندئذ تشهدين كيف تكون المفاجأة حين يطرق بابكم فتى غريب قبل تباشير الصباح ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة الخامسة

سعاد ..

أرسلت إليك خطابا في الصباح ، وما أشد حزني كلما تذكرت أنه سيصل إليك قبل هذا الخطاب .. كان خطاب الصباح يهددك بالفضيحة بين أهل أسيوط ، فقد كتبته في لحظة تموج بالرعونة والطيش ، والشبان يا معبودتي لهم أحوال ! ..

ثم ذهبت إلى عملي بمستشفى الملك ، فرأيت الدكتور محمد شرف ينتظرني في حجرة العمليات ، وأنا كما تعلمين جراح مبتدئ ، لا يعتمد عليه في غير التعقيم، ولا يطلب منه غير المعاونة الخفيفة التي لا تجر إلى تبعات ومسئوليات .. وكانت العملية شق بطن امرأة أو بقر بطن امرأة ، كما يعبر المجمع اللغوي ، وكان لا بد من البنج ، وللبنج مقدمات ثقال ، أرجو أن يرعاك الله فلا تعرفيها أبدًا يا سعاد ..

وكان الدكتور شرف في تلك اللحظة سيئ الخلق ، فكان يرغي ويزبد ، وكانت المرأة المسكينة تتحمل سوء خلقه بصبر عجيب ، وفي تلك اللحظة تذكرتك يا سعاد ، تذكرتك بالجنس لا بالشخص فقد صح عندي أن المرأة أصبر من الرجل ، وأقدر على تحمل المتاعب والأرزاء .

ثم أخذ ذهني يدرس ويحلل فانتهيت إلى ما يمكن أن تتصوريه حين يصح التهديد فأطرق بابكم قبل تباشير الصباح ، وحين يستيقظ سعادة الوالد فيرى فتى غريبا في ثياب الغرماء ، فتى غريباً وقحاً يسأل قبل الفجر عن سعاد ، وما الذي يمكن أن تتصوريه في مثل تلك الحال ؟ ..

ستقولين هذا فتى آنست وحشته في سهرة نادي القلم المصري ، وهو الآن يرد الدين فيفضحني في أسيوط .

والرجل يا معبودتي مخلوق سخيف ، فهو لا يعترف أبداً بأن المرأة تتصدق عليه بالحنان ، ولا يخطر بباله أنه ما تملك المرأة من الضعف قد يكون أشرف مما يملك من القوة ، ولا يتصور أن نبل المرأة في بعض الأحيان قد يكون فيه تضحية أعظم من جوده بالنفس وهو يتقدم إلى ميادين القتال ..

هذه خواطر طافت برأسي وأنا أشاهد تلك المرأة فكدت أهوى على يدها وأقبلها لأنها من الجنس الصبور الذي تشرفه سعاد ، تذكرت أختي مريم ، الأخت النبيلة التي ابتلاها الله بالتوائم ، فكانت لا تنجو من كرب الولادة في أقل من ثلاثة أيام ، وأي أيام ؟.. إن الحي كله كان ينزعج من صرخاتها بالليل ، والجهال لا يعرفون أنها تشقى لتسعد الحياة ..

سعاد .. اغفري ذنبي ، فلن تصل إليك الفضيحة من بديع ، ولن تفضحي أبداً، ولن يعرف أحد أنني أسير هواك إلا يوم يشاء الكرم أن تشرفيني فتذيعي بين أهلك أنني فارس سعاد ..

ومتى يجيء ذلك اليوم ؟..

متى يكتب «الليبرتيه» انه كان من الملهمين حين أجلس سعاد بجانب بديع الزمان في العشاء الذي أقامه نادي القلم المصري ؟..

متى يعرف الناس في جميع بقاع الأرض أننا أصبحنا رفيقين لا يفصل بينهما شرع ولا قانون؟..

إنها لكلمة سخيفة ألقاها القلم بلا وعي من الكاتب ولا إحساس ..

أأكون أنا الذي يسوقك إلى مهاوي الفضيحة ؟..

أنا الطبيب الناشئ الذي يتفجر دمعه كل يوم في حجرة العمليات والذي يقول رؤساءه بأنه لا يصلح للجراحة لأنه رقيق القلب ..

إنني ما تصورت المباضع والمشارط وهي تمزق الأجسام إلا تذكرت

الألسنة الأثيمة وهي تمزق الأعراض .

وما رأيت امرأة تحتضر عندنا في المستشفى إلا تذكرت أمي حين كانت تحتضر !..

ولا رأيت سيدة تعاني ألم الولادة إلا تذكرت أختي مريم ، ولا جاءت فتاة تعود أمها العليلة أو أباها العليل إلا تذكرتك يا سعاد ..

محبوبتي .. آه .. بل معبودتي ..

لا يهمني أن تحبيني ، ولا يهمني أن تعودي فتغازليني برجليك كما تفضلت يوم سهرة نادي القلم المصري .. ولا يهمني أن نرجع إلى غرفتنا بالكونتنتال ..

وإنما يهمني شيء واحد : هو أن تثقي بأنني لست فتى لئيما كأكثر فتيان هذا الزمان ..

إن كرامتي لا يجرحها الجفاء يا سعاد ، وإنما يجرحها سوء الظن ، فاكتبي إليّ سطرًا واحداً تقولين فيه : إنك تأمنيني على نفسك ، وإنك تقبلين أن تكوني في رعاية مروءتي وأدبي ..

أريد أن أرى في حياتي فتاة تأتمنني على عرضها وشرفها ..

أحب أن أرى ولو في الخيال فتاة تؤمن بأنني ملك كريم آه .. آه .. آه ..

ما أشوقني إلى الشرف .. ما أشوقني إلى الشرف. إنني لم أسعد في حياتي إلا مرة واحدة ، حين وثق عمي بأدبي فترك ابنته في ضيافتي أسبوعين ، وكنت يومئذ أسكن في حارة الزعفران بشارع الخليج ، فقد استيقظت مرة فوجدت الغطاء قد سقط عن جسمها النبيل فغطيتها برفق كما أغطي أختي .. ثم عدت إلى فراشي في طهارة الأنبياء ..

ودارت الأيام .. وتزوجت تلك الفتاة برجل من أعيان سملاي فكانت تتحدث عني في كل لحظة ولا يغار زوجها مني . وأرجو أن تصدقيني إذا قلت أنه

يتقرب إلى قلبها باسمي ، لأنه يعرف أنني أحبُّ إليها من أخيها فؤاد ..

هل فهمت ما أريد يا شقية ؟..

هل فهمت أن بديع الزمان هو فرصة العمر في حياتك الغالية ؟..

لست شابًا فاسداً ، وإن كنت نشأت في زمن فاسد ، فقد ورثت الشهامة عن أبي ، وورثت الطهارة عن أمي ، ولي أجداد كانوا من أعاظم الرجال ..

سعاد ..

اغفري ذنبي ، ثم اغفري ذنبي . إن كلمة الفضيحة جرى بها قلمي من حيث لا أريد ..

والفرصة أمامك يا سعاد ، فإن استجبت لدعوة هذا القلب الصادق فسوف تذكرينني بالخير الجزيل ..

وإن كان هناك فتى غيري يعرف كيف يضلل الفتيات في ساعة العصرية فوق خزان أسيوط فطيري إليه بلا تهيب ولا استحياء ..

أم أنا فسأعرف كيف أنساك يا لئيمة ، ففي القاهرة ألوف من الفتيات الجميلات ، وسوف تسمعين بأخباري في المخاطرات الغرامية بعد حين ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة السادسة

محبوبتي الغالية ..

هذا هو لقبك عندي ، رضيت أم كرهت، هذا هو اسمك الغالي ، يا سعاد ..

أنت محبوبتي الغالية ، وإن شردت نومي ، وأطلت سقمي ، وتمرد فيك

بلائي ..

حدثيني : أيكون المحبون جميعاً في مثل حالي ؟..

إنهم إذن سعداء !..

بديع الزمان

الرسالة السابعة

محبوبتي الغالية ..

في صباح هذا اليوم زار المستشفى رجل مدهش ، رجل مجذوب ، أي والله رجل مجذوب ، ولا أدري كيف سمح له البواب بالدخول !..

وقد طاب لهذا المجذوب أن يزور المرضى جميعاً ، ولكن أتدرين ماذا صنع ؟..

كان جيبه مملوءا ، بل كانت جيوبه مملوءة بالشكولاتة والسجائر ، وكان له عشرة جيوب ، جيبان في البنطلون ، وأربعة جيوب في الجاكتة ، وأربعة جيوب في المعطف ..

ولا تؤاخذيني في عد الجيوب فلم أكن وحق عينيك من قدماء اللصوص !!

وكان هذا المجذوب يتوسم إلى الوجوه فيقدم الشكولاتة إلى ناس .. والسجاير إلى ناس ..

وفي نهاية الطواف رأيته يقف وقفة طويلة أمام سرير أحد الأطفال .. وكانت وقفة رائعة جداً ، فقد أخذ يقبل الطفل ويبكي ، وقد انزعج الطفل لحظة .. ثم استأنس ، كأنه أحس في مداعبة ذلك المجذوب روحا من عواطف الآباء ..

وفي تلك اللحظة تذكرتك يا سعاد ، تذكرت إني طفل في الحب ، وتذكرت أن

قلبك لن يصل إلى ما وصل إليه قلب ذلك المجذوب إلا بعد أعوام طوال ..

بديع الزمان

الرسالة الثامنة

محبوبتي الغالية ..

وقع اليوم حادث لم يقع مثله في أساطير الأولين ، قد أخبرتنا إدارة المباحث السرية أن مستشفى الملك قد تقع فيه حادثة قتل ، ولم نفهم حقيقة المراد من ذلك، ولم نشأ أن نستفهم لئلا نتهم بالغباء والجهل ، وقد فهمنا على وجه التقريب أن بعض المرضى قد تكون لهم في الخارج ضغائن وأحقاد ، ولكن ماذا نصنع ؟

أنفتش الزائرين باسم التخوف من حوادث القتل ؟

لقد وجدنا الحيلة ، وهي تفتيش الزائرين باسم التخوف من السجاير والكيوف ..

وهي حبكة لطيفة ، أليس كذلك ؟

قولي الحق يا غادة أسيوط !

وقد طاب لي ، ولا أدري كيف ، أن أكون من المفتشين ، وكانت فرصة عرفت فيها ألوانا من الوجوه الصباح ..

وفي أثناء هذه العملية السخيفة رأيت امرأة تدخل بعينين ترسلان السحر والفتون ، فرأيت أن أعترض ، ولكن أين من يسمع ؟

فإن سمعت بان مستشفى الملك وقعت فيه حادث قتل فافهمي منذ الآن أن تلك الحادثة لم تقع إلا بفضل هاتين العينين ، وأخشى أن أكون ذلك القتيل ..

أراك تغارين؟ لا بأس ، فمحبوبك يا سعاد لن يموت إلا وهو شهيد العيون ..

بديع الزمان

الرسالة التاسعة

محبوبتي الغالية ..

لم أؤد عملا نافعاً في هذا اليوم ، فقد تمارضت وهربت من منظر الدماء في حجرة العمليات ، ثم علمت بعد فوات الوقت أن المستشفى أجريت فيه عملية خطيرة لشاب كان ينافسني في المدرسة السعيدية ، سقاها الغيث ، كان ينافسني في اللعب لا في الحب ، لو أنني حضرت لعاونت في تضميد جروحه ، وكفرت عن بعض ذنوبي يوم كنت أغتابه بين الرفاق بلا سبب معقول ..

المدرسة السعيدية ؟ المدرسة السعيدية ؟

تذكري يا سعاد أنها مدرستي الجميلة التي تحترم عبقرية الفتوة وعبقرية الأجسام والتي قهرت فهيم بك على احترام آراء التلاميذ ..

مدرستي المحبوبة التي هزمت ثانوية أسيوط سنة 1924 ، وكنت صاحب الفضل في انتصار السعيدية على ثانوية أسيوط ..

لا تحتدي على محبوبك الغالي ، يا محبوبتي الغالية .

بديع الزمان

الرسالة العاشرة

محبوبتي الغالية ..

وقعت اليوم حادث مضحك ترامت أنباؤه إلى جميع الزملاء ، فقد شاع في أرجاء المستشفى أني أحضرت سكران ، وهذا يقع أحيانا ، لكنه لا يقع مني وإنما يقع من زميلي أنور ، ومن أجل ذلك طارت الإشاعة بين الممرضين والممرضات

بسرعة البرق ، ونظر الأطباء بعضهم إلى بعض نظرات فيما معاني الشماتة والازدراء ، وقد تركت الإشاعة تنساب بين أروقة المستشفى كما تنساب الحية الرقطاء بين الأدغال ، وكانت لي سياسة في السكوت عن هذه الإشاعة ، فقد كنت أحب أن أعرف كيف يعطف الناس على من تزل قدمه وكيف يشمتون ، وساءني يا سعاد ألا يتقدم لتهدئة الخواطر غير رجل واحد ، وهو ممرض عجوز اسمه عبد الستار ، فقد سمعته يقول من حيث لا يراني . هذا مستحيل ، هذا مستحيل ، إن الدكتور بديع رجل مهذب وابن ناس طيبين ، ولا يشيع عنه السوء غير أولاد الحرام ..

تركت الإشاعة تركض من حجرة إلى حجرة وأنا أبتسم ابتسام السخرية من سخف الناس ، وإنما تركتها بلا صد ولا دفع لأني لم أحضر سكران ، وما أذكر أبداً أني شربت مرة إلى حد السكر حتى أقع في مثل هذا السخف ، وإنما رأيت محبوبتي الغالية أن أجرب أدب المخلوقات التي لا تنقد ما تسمع ، ولو كانت تنقد ما تسمع لعرفت أن من المستحيل على مثلي أن يحضر إلى مستشفى الملك وهو سكران ، وأشهد أن متعتي كانت عظيمة بمناظر اللؤم الفاضح الذي وقع فيه الزملاء ، ولم يؤذني إلا شيء واحد هو ما علمته من جزع الجراح العظيم ، فقد هام على وجهه كالمجنون ليراني ، فلما وقع بصره عليَّ قال : ما هذا الذي تصنع بنفسك يا بديع ؟

تذكر يا بني أن الذي اقترح تعيينك في مستشفى الملك هو محمد شرف ، وتذكر جيداً أني لا أثق بأحد من شبان هذا العصر ، وإنما وثقت بك مراعاة لعمك، وهو صديق لا تسعني مخالفته ، وسأتصل به الآن تليفونيا ليفصل بيني وبينك ..

والحق يا محبوبتي أني حضرت إلى مستشفى الملك سكران ولكني كنت سكران بغير الكأس ، كما في أغاني عبد الوهاب .. كنت سكران لأني تلقيت خطابا جاء فيه ما نصه بالحرف :

«... والآن أعود إلى رسائلك العذبة يا بديع ، لقد كانت نسمة شذية عاطرة بعثها قلبك الكبير ، ولم أعجب لصراحتك ، فإني أعرف أن قلبك يعيش بالحب ،

وكم كنت أتمنى أن أكون فتاة هذا القلب أوحي إليه فيشدو ، وأحبوه بالعطف فيسعد، ولكن شاء القدر أن يمر عليَّ عابراً ، وله العذر ، لأنه ولد في غير موطني ، ودرج في غير رياضي ، وشاهد من الغيد الحسان ما يفوقني »..

وإنما سكرت من هذا الخطاب لأنه ورد من أسيوط ، وختم البريد يشهد بذلك ، وهل في أسيوط من يخاطبني غيرك يا سعاد ؟

سكرت وانتشيت وعربدت ، وفي الحياة لحظات يباح فيها السكر والنشوة والعربدة ، ولو رأيتك في هذه اللحظة لقتلتك يا سعاد ، والطبيب يستبيح قتل مرضاه في بعض الأحيان ..

ما هذا الذي تقولين ؟ لقد صرعت قلبي ، إنك يا شقية تفهمين انك توحي عليّ الوحي بالعطف ، والفتاة التي تعرف كيف توحي وتعطف هي ملك كريم أو شيطان رجيم ، والأمر في الدنيا كلها إلى قوتين : قوة الملائكة وقوة الشياطين ..

فمن أنت يا سعاد ؟ من أنت ؟ تعالي إلي ، أنا أحبك وأشتهيك ..

أتغضبين من كلمة الاشتهاء ؟ هي كلمة لا معنى لها في ذهني غير العبادة ، أنا العاشق المسكين الذي أضرعه الحب فقضى بأن يكون مجنون سعاد ..

أفي الحق أنك تؤمنين بأنك تملكين سعادتي وشقائي ؟ تعالي إليَّ ، فإن لم تفعلي فسأحضر إليك ، ولكن كيف ؟

إن شبان أسيوط يعرفونني جميعاً ، فقد هزمتهم في ملعب الكرة سنة 1924 ، ولن ينسوا وجهي إلا بعد أزمان ..

تعالي إليَّ ، تعالي ، فقد سئمت من الحب المزيف الذي اقترفه في شارع عماد الدين ، سئمت من الجري خلف الممثلات والراقصات ، واشتقت إلى الحسن المصون الذي ترفعين رايته يا سعاد ، تعالي إلى القلب المعذب والفؤاد المشوق ، تعالي واختبري أدبي ، تعالي يا محبوبتي تعالي ، تعالي إلى المحب الصادق الذي

سيخلد اسم القاهرة واسم أسيوط ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة الحادية عشرة

سعاد ..

كنا حفرنا الأساس لبناء الحب ، فشاء اللؤم أن تطمري ذلك الأساس ..

أنا أوقدت في صدرك جذوة الحب ثم سكت عني ، وشاء لك النزق أن تنشري رسائل الغرام وقصائد الحب في الجرائد والمجلات .. فلمن تنصبين تلك الحبائل يا رقطاء ؟

ومن هو الأبله المخدوع الذي تقدرين على اقتناصه بعد اليوم ؟

أحب أن أعرف من أي الصخور نحتت المقادير قلبك القاسي ؟

يا بنت حواء ، يا بنت المرأة التي شهد القرآن بأنها كانت السبب في شقاء الإنسانية ، ماذا تريدين مني ؟

طلبت قلبي فقدمته ، طلبت شرفي فوهبته ، وفي يديك رسائل تملكين بها تشويه سمعتي في الخافقين ؟ فماذا تنتظرين ؟

أتنتظرين دمي ؟ لم يبق إلا ذلك يا رقطاء ..

اسمعي يا غادرة ، يا شقية ، يا لئيمة ..

أتدرين لماذا أصبر عليك ؟ أتدرين ؟

إنني أصبر عليك لغرض واحد : هو أن تعرفي يا غادرة ويا شقية ويا لئيمة ، أن المروءة لا تزال لها جذور باقية في صدور الرجال ..

ويهمني أن تعلمي إني خليق بأن أقتل نفسي يوم يغلبني الحقد فأذيع ما بيننا من أسرار ..

إن الشرف عندي وحدي يا لئيمة ، فانشري ما شئت من القصائد والأقاصيص ، وكاديني كيف شئت ، فسأشرب دموعي وآلامي ، وسأساهر النجوم وأنا أتعزى بقلمي وكتابي ..

يهمني يا غادرة أن أفضي إلى قلبك بمعضلتين ، إن كان لك قلب ..

أما المعضلة الأولى فهي هواك ، وهو أخطر ما صادفت من المعضلات في حياتي ، وقد حاولت أن أتحلل من هواك فلم أفلح ، ولعل الله يرحمني فيمطر على قلبي شآبيب النسيان ..

أما المعضلة الثانية فهي مستقبلي يا سعاد ، ففي يديك رسائل أثيمة خطها قلمي ، ولك أب غيور يبرم وينقض وهو قادر على أن يخرجني من خدمة الحكومة بإشارة تليفونية ..

وما يهمني وحياة عينيك أن أخرج من خدمة الحكومة ، ولكن يؤذيني أن أعرض أبي وأمي وأخوتي إلى الجزع والفزع ، فقد يكون من العسير أن أظفر في الحياة الحرة بنصف ما أكسب من الحكومة ، ومرتبي في الحكومة هو عشرون جنيها ، وهو مبلغ ضئيل ، ولكن من أين أكسبه إذا فتحت عيادتي في شارع الغورية، أو شارع المغربلين ؟

ارحمي مستقبلي يا سعاد ، فأنا جراح مبتدئ ، وأهل مصر لا يستهويهم غير الشهرة ، والموت على يد جراح مشهور أحب إليهم من الشفاء على يد جراح ناشئ مثل بديع الزمان !

سعاد ..

ما كان لي أن أنبهك إلى هذه المعاني ، ولكننا مقبلون على قطيعة يا محبوبتي ،

والقطيعة مرة ، وقد تسمعين بعد حين أنني عشقت سواك فتغارين وتحقدين ، ثم تحملك الغيرة والحقد على الانتقام مني ..

فإن ثارت في صدرك هذه الفكرة البغيضة فتذكري أبي وأمي وأخوتي ، تذكري أنني لا أعيش لنفسي ، بل أعيش لأهلي ، وكنت أحب أن أعيش لك أيضا يا سعاد ، ولكن قضى غدرك أن نفترق ، فلنفترق ، وإلى الله تصير الأمور ..

بديع الزمان

الرسالة الثانية عشر

يا ويح نفسي .. أتنسوني وأذكركم
مقرح الجفن .. في صبح وإمساء
إن الذين بأمر الحب قد ملكوا
لم يتقوا الحب .. في ضري وإيذائي
لم يرمني الشوق يوما من منازلهم
إلا تولوا من الأيام إقصائي
كم رحت أحمل آمالي لحبهمو
وعدت أحمل آلامي وإيذائي

***

يا لوعة القلب لا شكواي نافعة
ولا بكائي بشاف مس ضرائي
أبيت اندب عهدًا مر طيبه
كلمحة البرق في أعطاف ظلماء

وأرســـل الزفـــرة الحـــراء لافحـــة
كوقـــدة الجمـــر في آجـــام قصـــباء

***

يـــا مـــن يعـــز علينـــا أن نجـــازيهم
صـــدا بصـــد وإغضـــاء بإغضـــاء
لـــو ترحمـــون وصـــلت شـــيقا كلفـــا
ألقـــى جفـــاكم عليـــه بـــألف بأســـاء

***

والدكتور ناجي زميل عزيز لا يسوءني أن أتمثل بشعره يا سعاد ، وهو لن يستطيع أن ينافسني في غرامي ، فعليه أن يبكي ، وعليّ أن أحب ..

إنه يوم واحد قضيته مشرد القلب في أسيوط ، ثم رجعت في قطار المساء ..

ولم يفتني أن أزور ملعب الكرة بمحطة الخزان ، وأنا دامع العين ودامع القلب..

وكيف أنسى أنني حضرت على رأس فريق المدرسة السعيدية في سنة 1924، وكنت صاحب الفضل في أن تنتصر السعيدية على ثانوية أسيوط ..

حملت لواء النصر في سنة 1924 ، ثم نكست لوائي في أسيوط سنة 1934 ..

آه ، ثم آه !

وآه ، ثم آه !

والآن عرفت أن اللعب بالكرة غير اللعب بالحب !

مصر الجديدة بديع الزمان

الرسالة الثالثة عشرة

سعاد ...

حدثتك بالأمس كيف رحلت عن أسيوط ، وقد اكتفيت بقصيدة الدكتور ناجي في شرح همومي وأحزاني

فهل أستطيع يا شقيه أن أشرح بقلمي كيف فارقت أسيوط ؟

ولمن أشرح ؟ ولمن أبين ؟

إن أملي في هواك قد انقطع ، وكان الوهم يخدعني بان أكون «ميسيه» وأن تكوني «أيمية دالتون» ، كما تواعدنا في سهرة نادي القلم المصري ، وما كنت أعرف من هو ميسيه ومن دالتون ، لأني انتهيت من البكالوريا قبل أن تقرر دراسة اللغة الفرنسية في المدارس الثانوية ، وإنما نقلت هذه الأسماء عنك يا شقية ، ثم راجعت ما كتب عن أصحابها في اللغة الإنجليزية ، وكان في نيتي أن أتعلم لغة «ميسيه» لأحاورك بها عند التلاقي ، ولغة الإنجليز وهم خصوم أحب إلى من لغة الفرنسيين ، ولو انك دخلت لهربت منها وآثرت الجحيم !

هذا آخر خطاب أكتبه إليك يا سعاد ، فليكن فيه كل ما أشتهي أن أقول ، أنا الجاني على روحي ، أنا الذي أراد أن يقترب من كوثر الحب فغرق .

أنا الذي أراد أن يقترب من نور الحب فاحترق ، أنا الذي أراد أن يصافح النعيم فلطمه الشقاء!

أحب أن أقول كل شيء ..

أحب أن ألفظ النفس الأخير في الحب ..

وأشتهي أن يكون حالي كحال التي مدت خرطومها لتشرب من كأس الصهباء فغرقت في كأس الصهباء ..

سعاد ، يا شقية ..

اسمعي كيف فارقت أسيوط ..

وليس عندي فصاحة ولا بلاغة ، يا شقية ، فقد قضيت سبع سنين في كلية الطب وأنا لا أقرأ غير الإنجليزية ، حتى ضاع ما تلقيته عن الشيخ حمودة في المدرسة السعيدية ..

فصاحتي يا سعاد من قلبي ، وبلاغتي يا سعاد من قلبي .. وأصدق الحديث ما صدر عن القلب ..

اسمعي يا سعاد ، إن كانت حواء تركت فتاة تفهم أسرار الرجال ..

اسمعي يا سعاد ..

ثم اسمعي يا سعاد ..

ولكن هل تسمعين ؟ هل تسمعين ؟

انتظرت القطار القادم من الأقصر على أحر من الجمر ، كما يعبر أدباء آخر الزمان ..

وأين الجمر من اللهب المقدس الذي كان يشتعل في صدري ؟

إن العشاق من عهد آدم إلى اليوم كانوا يرون الجمر نهاية النهايات في التوقد ، فكانوا يشبهون لوعة قلوبهم بالجمر المشبوب ، أما أنا فخلق آخر ، أنا دنيا تموج بالفتن والغرائب والأعاجيب ، ومن يدري فلعلي أصبح مثلا في الحب فيهجر الناس كلمة «الجمر» ويضعون مكانها «بديع الزمان» ..

اسمعي يا سعاد ..

طفت بأرجاء أسيوط .. ثم طفت حتى مللت ، ورأيت أن أشتري شيئاً من ذخائر أسيوط فلم يرق لعيني غير عصا غليظة ثقيلة تقتل بضربة واحدة حيتين أو

ثلاث حيات ، فمتى أضربك بهذه العصا ؟

يا شقية ؟.. متى ؟.. متى ؟..

غربت الشمس وبيني وبين قطار القاهرة ثلاث ساعات ، فلم يكن بد من أن أقضي ساعات الانتظار على الخزان ، وياله من قنطرة عجيبة تشبه الصراط بين الجنة والنار !

وكيف لا يكون كذلك وهو يفصل بين المدينة التي انهزمت فيها .. والملعب الذي انتصرت فيه ؟

وقفت على تلك القنطرة غريباً وحيداً ، فما مر فتى ولا فتاة إلا أدرت وجهي خشية أن يعرفوني ، ومن الذي يجهل بديع الزمان .. الذي قهر ثانوية أسيوط في ملعب الكرة سنة 1924 ؟

من الذي يجهلني في أسيوط .. وكنت مثار السمر في منازل الأمجاد آل خشبة، وآل الهلالي ، وآل ويصا ومن إليهم من الأقطاب ؟

كل من في أسيوط يعرفونني .. إلا أنت يا سعاد !

ثم حل الظلام فاستأنست ، وحاولت أن أنظم الشعر كما يفعل زميلي الدكتور ناجي ، ولكني عجزت. إن قلبي كله شعر ، فكيف أعجز عن القوافي والأوزان ؟

ذلك منتهى العجب !

وبعد لحظات طلع القمر ..

وعندئذ رأيت الخزان يموج بالعشاق والمحبين .. فتذكرت أغنية عبد الوهاب ..

«صعبان عليّ أشوف غيري متهني ..»

وكانت لحظة لن أنساها طول حياتي ..

فكيف كنت في تلك اللحظة يا سعاد ؟ كيف كنت وكيف كان الشعار الشفاف الذي يتغزل بجسمك الجميل ؟

وكيف كانت الأحلام التي تمرح وتلعب في قلبك الجميل ؟

وكيف كان الديوان الهزاز الذي يحتوي أخصب جسم عرفته أسيوط ؟

كيف كنت في تلك اللحظة ؟ خبريني كيف كنت ؟.. فإنه يسرني أن أعلم إن كنت سعيدة يا شقائي ويا بلائي ؟

لقد تسمعت إلى العشاق فوق الخزان .. وتسمعت حتى وصل إلى أذني رنين القبلات ..

آه ، ثم آه !

إن عشت فسوف أرجع إلى تلك القنطرة ومعي فتاة ولو زنجية لأجرب التقبيل على مشهد من النيل فوق خزان أسيوط ..

ويسرني في مثل ذلك اليوم أن تكوني في القبر يا شقية ، لتغاري عليّ وأنت تحت التراب ، غضبة الله عليك وعلى جدتك القديمة حواء ؟

وطال الوقت وأنا أشاهد نعيم العشاق والمحبين في حسرة ولوعة ، ومر إنسان .. فسألني عن الساعة فأخرجت ساعتي .. فإذا القطار لم يبق عليه غير دقائق فمضيت إلى القطار كالمجنون من غير أن أجيب سائلي عن الوقت ..

صعدت إلى القطار يا سعاد بدون عشاء ، صعدت وحدي بلا مودع ولا مشيع، وهو نفس القطار الذي ودعني عنده أكثر من خمسين شابا منذ تسع سنوات، والحق كل الحق عند شبان أسيوط ، فقد كنت يومئذ منتصرًا في الكرة ، وأنا اليوم منهزم في الحب !!

ألم أقل لك يا سعاد أن اللعب بالكرة غير اللعب بالحب ؟

آه ، ثم آه !

لقد تمنيت أن يطول مكث القطار لأتمتع بمناظر الأنوار في أسيوط ، ولكنه أسرع فنقلني بلا ترفق ولا تلطف ..

وما كادت أنوار أسيوط تختفي عن عيني حتى استسلمت للنوم العميق ..

وفي ذلك اليوم رأيت أحلاماً جميلة .. كأحلام الطفل العليل الذي يرى صورة الحية وهو في مرض الموت ..

***

وقبيل الشروق رأيت الركاب يهرجون ويمرحون .. فصحوت ، وكنت أحب أن أذهب رأسا إلى البيت لأرى كيف تترفق أختي فتحية فتنفض التراب عن ثيابي ، ولكني آثرت الذهاب إلى عملي بمستشفى الملك .. فوصلت إليه قبل الميعاد بنحو تسعين دقيقة أو تزيد ..

وفي الساعة التاسعة صادفني الدكتور شرف فقال :

مالي أراك أشعث أغبر يا بديع ؟

فقلت : لا تؤاخذني يا مولاي ، فقد دفنت أكرم أعزائي بالأمس ، وقضيت ليلتي بالبكاء عليه !

وأنت تعرفين يا سعاد أني ما كذبت . فقد دفنت حبي ، وسأقضي عمري بالبكاء عليه ! وسأظل من أجله أشعث أغبر طول حياتي ، إن كان لي بعد هجرك الظالم حياة .

بديع الزمان

مصر الجديدة

الرسالة الرابعة عشرة

سعاد ..

أنا غضبان ، فما الذي يداوي غضبي ؟

كنت أظن أن مصيري انتهى إليك يا شقية ، ثم خانني أملي .. خانني زماني .. أتعرفين ما صنعت بعد رجوعي من أسيوط ؟

كنت أحسبني نجوت إلى الأبد من بلائي ، ثم شاء الهوى أن أظل عبداً لمخلوقة لا تحفظ الجميل ..

ما استطاع أهلي أن يواسوني ، ولا استطاعت أختي فتحية أن تمسح همومي وأحزاني ، ولا استطاعت أمي الغالية أن تمحو كروبي وأشجاني ..

الآن عرفت أن الرجل أشرف من المرأة ، فأنا أجدّ في هواي وأنت تلعبين ..

وأقسم صادقا أن الدنيا كلها طوع يدي ، فلي شباب ما عرفه أحد من أهلك في أسيوط يا سعاد ، ولو شئت لسحرت صبايا القاهرة في هواي ..

وما يصرفني عن ذلك غير الشعور بأنك مسكينة ، فقد تقعين في يد شاب سافل لئيم لا يعرف الواجب في حفظ أسرار الملاح ..

أنت مسكينة يا سعاد ، ومن واجبي أن أرحم المساكين .. اسمعي .. رجعت مبلبل الخاطر والوجدان

ذهبت إلى القناطر الخيرية في يوم الأحد فما شفتني وتجولت ساعتين في شارع فؤاد فما شفاني ..

وذهبت أعبث بحمامات المعادي وحلوان فما زادني ذلك إلا كربا إلى كرب ، ورأيت أن أقف في منتصف الساعة التاسعة مساء لأرى أسراب الملاح بعد

الخروج من السينما في شارع عباس بمصر الجديدة .. فما شفاني ذلك ..

وذهبت إلى غرفتي لأتلهي بالنظر إلى السائرين في شارع الأهرام .. فما شفاني ذلك ..

أنا عليل ، أنا يا محبوبتي عليل ..

أكتب هذا الخطاب في الظهيرة ، وفي غرفة فيها أربع نوافذ ..

فالغرفة تطل على ثلاثة شوارع في مصر الجديدة ، ومع ذلك أراني في حاجة إلى إيقاد المصباح ..

لا تستغربي ذلك يا شقية ، فقد ملأت حياتي بالظلمات ..

أحب أن أرى النور ، وأين النور ؟ أين النور الذي يبدد ظلام قلبي ؟

إن الشمس تبهر جميع العيون في مصر الجديدة ، وأعيش وحدي في ظلام ..

كل من في مصر الجديدة يلهون ويلعبون ، وأنا وحدي أسير الأحزان ..

في مصر الجديدة ألف فتاة يهمها أن تأنس بوجهي وبعيوني ، ولكن القدر عاندني فاقتص من كبريائي وقضى أن أعيش تحت رحمة فتاة سخيفة تقيم في أسيوط.

سعاد .. أنا عليل ، أنا يا محبوبتي عليل ..

أنا الفتى الوحيد الذي يريد أن يقف هواه على فتاة وحيدة هي سعاد .. فأحسني إليّ ، قولي بصراحة أنك تحبين شابا غيري ، لأنطلق من عقالي وأمضي في الدنيا بلا رقيب من الهوى ولا حسيب ..

سعاد .. اسمعي ، اسمعي يا روحي ..

أفي الحق أن رسائلي إليك سمع بأخبارها ناس من أهل أسيوط ؟

أجيبي ، أجيبي يا شقية ، أجيبي يا سعاد ..

فقد كنت أصدق كل محال إلا أن تفضحي أسراري ..

كنت أظن أنني أخاطب فتاة قرأت ميسيه ولا مرتين ، ثم شاء القدر الظلوم أن أعرف أني أخاطب فتاة أجهل من فتيات بولاق ، وما في بولاق فتيات جاهلات، فقد علقت بهن أعوما طوالا وظل سري مصونا، فمن أنت بين الملاح يا رقطاء ؟

أحب أن أعرف من أنت ؟ فبفضلك استطال همي وبلائي ..

أنت سخيفة ولا ريب ، أنت تحبين الاستطالة على أترابك فتقولي انك معشوقة بديع الزمان .. فهل تظنين أني لوحة إعلانات يا أسخف من أنجبت أسيوط ؟

من أنت يا لئيمة حتى أضيع من أجلك نعيم أبي وأمي وإخوتي وأخواتي ؟

من أنت يا بنت حواء ؟

من أنت يا حلوة يا جميلة ، يا أعذب فتاة ملكت قلبي وعقلي ..

أحبك يا سعاد ، ولو رأيتك لقبلت قدميك بلا تورع ولا استحياء ..

أحبك يا مسكينة ، لأني سأكون آخر من يعطف على المساكين ..

أحبك يا سعاد ، وفيك أتقي الله وأتقي الحب ..

أحبك لأنك لئيمة ، واللئام ضعفاء ، ومن واجبي أن أعطف على الضعفاء ..

أحبك لطرفك الساحر وجسمك الفينان ..

أحبك لما تعرفين وما تجهلين ..

أحبك لسبب واحد .. هو أنك لئيمة ، وما قاسيت من لؤم الناس هو السبب في عبقريتي ونبوغي ..

أحبك يا سعاد ، فمتى أقبل قدميك يا محبوبتي الغالية ؟

متى ؟ متى ؟

مصر الجديدة بديع الزمان

الرسالة الخامسة عشرة

إليك أرجع ، يا سعاد ، وما كنت أحسب أنني سأرجع ..

إليك أرجع ، يا سعاد ، بعد عامين من أعوام الصدود ، وبعد أعوام من الأهوال ..

كان تجافينا محنة قاسية ، يا سعاد ، وكانت أيامي بعد التجافي أيام بؤس ..

ألم تعلمي بما وقع للمحب المسكين في مستشفى الملك ؟

لقد فسد ما بيني وبين رؤسائي أقبح فساد ، وتطلعت نفسي إلى الأستاذية بكلية الطب في جامعة الإسكندرية ، ثم وقفت العوائق دون ما تسامت إليه نفسي ، لأني فيما يقال لا أصل لأمثال هذه الشئون !

والحق أني أصلح لأعاظم الواجبات ، ولكن تصدني قلة الحيلة في التقرب إلى من يملكون زمام الأمور في وزارة المعارف . وقد علموا أني افتضحت بهوى الغادة التي تقيم بشارع الحمراء في أسيوط .. وكان في نيتي أن أتخذ من هواك سناداً لحياتي . كان في نيتي أن أنقلك إلى القاهرة لنعيش عروسين في مصر الجديدة ، أو حدائق القبة ، أو الزيتون ، ولكني خشيت ألا تملكي من القناعة ما أملك ، فأنا طبيب فقير ، وإن تظاهرت بالغني والثراء ، والفتاة التي ترضى بالقليل لم تخلق بعد. لأن عمار القلوب لا ينسجم مع خراب الجيوب ..

في قلبي ثروة عظيمة من العطف ، وفي عزيمتي ثروة هائلة من الرجولة ، وفي روحي كنوز من المعاني ، فإلى من أقدم هذه الثروات المعنوية يا سعاد ؟

أمن الحق أن كنوز المعاني ليست عند أهل مصر إلا سرابا يخدع الظمآن ؟

إن صح ذلك فما يقهرني على التعلق بهواك، وهو لم يكن إلا سرابا في سراب؟..

بديع الزمان

الرسالة السادسة عشرة

محبوبتي الغالية ..

نسيت أن أتحدث عن رسائلك الأولى بعد الصدود الذي دام عامين ..

تقولين أنك افتقدتني ولم تجديني يوم عيد الميلاد ، ميلاد سعاد ؟

وتقولين أنك ولدت مع الربيع ..

أنت يا سعاد ولدت مع الربيع ؟

آمنت بالله ، لقد كنت أظن أنك ولدت في الليلة التي تفصل بين الخريف والشتاء !

وما الذي فيك من شمائل الربيع ؟

في الربيع أزهار ورياحين ، وفي الربيع أغان وألحان ، وفي الربيع تعطف القلوب على القلوب ، فهل يجد قلبي في هذه الأيام نفحة روحانية ليصدق أنك ولدت مع الربيع ؟

أنت ولدت مع الربيع يا سعاد ؟

ومتى ولدت ثلوج الشمال ، إن صح ما تدعين ؟

الربيع لا يعرف البلادة والغباوة والحمق ، وأنت بليدة وغبية وحمقاء ..

فيك من الربيع معنى واحد : هو قوامك الفينان فهل أنت كما عهدت ، يوم التقينا بنادي القلم سنة 1935 ؟

وهل أستطيع أن أكابر بك الدنيا حين أراك ثانية بالقاهرة ؟

وهل أستطيع أن أنظم الشعر ولو مرة في التسبيح بقوامك الفينان ؟

أنا طبيب جاهل ، والطبيب الجاهل يدرس الأجسام قبل أن يدرس الأرواح .

لو كنت شاعراً لأهديت إلى جسمك الفاني نفثة من نفثات الخلود ..

اعذريني ، فأنا طبيب جاهل ، والحمد لله والحب على نعمة الجهل ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة السابعة عشرة

محبوبتي الغالية ..

هل تذكرين أني تحدثت في الرسالة الماضية عن قوامك الفينان ؟

لقد نسيت أن أقول أن لك مع ذلك شطحات روحانية تشبه شطحات أفروديت ؟

ومن هي أفروديت ؟

أنت أجهل من أن أتحدث إليك عن هذه الدقائق الذوقية ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة الثامنة عشر

محبوبتي الغالية ..

عليك وعلى جميع بنات حواء غضبة الحب !

كنت ليلة الأمس في سهرة أقامها نادي (....) وكانت سهرة راقصة حضرها نحو عشرين من بنات حواء ، وكان فيهن فتاة تشبه سعاد ، وكانت تجلس على

ناحية مع أمها الحيزبون ، فتقدمت إليها وقلت :

بونسوار سعاد !

وهجمت على يدها فقبلتها بشوق وعنف .. ثم علمت بعد لحظة أن اسمها سعاد ، وأمسينا رفيقين ، ولم أتركها إلا بعد أن وصلت لبيتها بسلام .. فما رأيك في هذا الحب الجديد ؟

أتغارين ؟ اشربي ما شئت من عباب النيل عند خزان أسيوط !

أنت تغارين ، يا سعاد ؟

إن الغيرة لها معاني لا تعرفها الثلوج ..

بديع الزمان

الرسالة التاسعة عشرة

محبوبتي الغالية ..

أنا اليوم على صلات وثيقة بسعاد جديدة ، فماذا ترين ؟

ولد الحب في لحظة واحدة .. كما ولدت أفروديت على شاطئ المحيط ..

وسعاد الجديدة لها مزايا كمزاياك ..

فماذا ترين ؟

حدثيني ماذا ترين ؟ فأنا أشتهي أن أعيش !

بديع الزمان

الرسالة العشرون

محبوبتي ..

أنا اليوم سعيد بفضل الحب المزيف ، فكيف أكون لو ظفرت بالحب الصحيح ؟

كل هوى دون هواك ضلال في ضلال ، وخداع في خداع ..

سأظل في هواي إلى أن ترحميني من هواي ..

بديع الزمان

الرسالة الواحدة والعشرون

سعاد ..

أنت ولدت مع الربيع ؟

ربما كان ذلك ، فقد ولد غرامي الجديد في الربيع ومع الربيع ولدت آلامي وأحزاني ، ومع الربيع الجديد ودعت هواي القديم ..

ويا ويح من يستشفي من الغرام القديم بغرام جديد .

بديع الزمان

الرسالة الثانية والعشرون

سعاد ..

قضيت الليلة في حزن موجع ، ولم يخرجني من بلواي إلا إنشاد قول العباس بن الأحنف :

مـــا أراني إلا ســـأهجر مـــن لـيس يـراني أقـوى عـلى الهجـران
علنـــي واثـــق بحســـن إخـــاء مـــا أضـــر الأخـــاء بالإنســـان

فأنت تهجرينني ظالمة . لأنك تثقين بأني مملوك خاضع مطيع يرجع إليك بإشارة حين تشاءين ..

وأنا والله مملوك خاضع مطيع ، فما تمثلت قوامك الفينان إلا ضاع رشدي وطار صوابي ..

ليتني أعرف كيف ابتليت بهذه اللوثة الأرضية !

ليتني أعرف كيف عجزت عن رفع روحي إلى الآفاق السماوية !

خلقت لنفسي محبوبة جديدة لأسلم من هواك ، ولكني لم أفلح ، فحدثيني ماذا أصنع ؟

حدثيني ماذا أصنع ؟ حدثيني ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة الثالثة والعشرون

سعاد ..

ابتسمت وأنا أطالع خطابك الذي وصل في صباح اليوم ، ابتسمت لأنك تقولين إن في رسائلي وثبات وجدانية تنقلني إلى صفوف العباقرة من أهل البيان ..

والحق أني أصبحت أثق بقدرتي على التعبير الجميل ، ولكني لا أعرف كيف أثق بقدرتي إلى هذه المقدرة البيانية ، فقد كنت من المتخلفين في الإنشاء يوم كنت تلميذاً بالسعيدية ، على أيامها وعلى الجيزة أطيب التحيات !

والدراسة في كلية الطب كانت بالإنجليزية ، ولم يكن هناك ما يساعد على التفوق في اللغة العربية ، فما الذي أوصل إلى عقلي هذه الأقباس من ضياء الأدب والبيان ؟ لذلك أسباب يا محبوبتي الغالية أفصلها بعض التفصيل في هذا الخطاب..

كان نظام الجامعة المصرية في سنة 1925 ، يوجب على طلبة الطب أن يقضوا سنة في كلية العلوم وكانت ـ بقصر الزعفران ـ كانت كلية الآداب في ذلك العهد تقيم في قصر الزعفران ، وفي ربيع سنة 1926 ، قامت معركة حول آراء الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي ، وكانت جريدة «البلاغ» وجريدة «كوكب الشرق» توجهان إليه أعنف الهجوم وأشنع التجريح ، فكانت تلك المعارك فرصة تنبه فيها طلبة كلية العلوم إلى ما يقع في كلية الآداب ، وكنت أتسلل من وقت إلى وقت لسماع محاضرات طه حسين ، فصح عندي أن الأدب قد يخلق لصاحبه مكانة في المجتمع ، وإن كانت نسبته إلى العلم أضعف من أن توضع في الميزان ، فالعلم في جملته حقائق ، والأدب في جملته أباطيل، إلا أن كان على نحو ما أكتب إليك يا سعاد، وإنما احترست هذا الاحتراس لئلا يضاف أدبي إلى التزييف، وهو من فيض القلب والوجدان.

وكنت أظن أن انتقالي من قصر الزعفران إلى قصر العيني سيقطع صلتي بالحياة الأدبية ، وشاء حسن الحظ أن أكون عضوا بالحياة الأدبية ، وشاء حسن الحظ أن أكون عضوا في اتحاد الجامعة المصرية ، وإنما كان ذلك من حسن الحظ لأن مندوبي كلية الآداب كانوا يغرونني بالحرص على فصاحة القلم واللسان ، فقد كان يوكل إليهم تحرير محاضرات الجلسات ، وكانوا أسبق منا إلى الخوض في المناوشات الكلامية ..

الأدب سخيف يا سعاد ، ولكنه مع ذلك شائق وجذاب «بالجيم لا بالكاف» وقد تفوقت كلية الآداب على سائر الكليات بفضل الثرثرة وتزويق الكلام ، وزخرفة المعاني ، والمعاني تزخرف كما تزخرف الألفاظ ، وهذه الفكرة من مبتكرات الطبيب الولهان ..

بديع الزمان

الرسالة الرابعة والعشرون

سعاد ..

هل أستطيع أن أبثك اليوم بعض ما أعاني ؟

كنت حدثتك أني تعلقت بهوى فتاة اسمها سعاد ، وكنت أتوهم أني أتداوى من الحب بالحب ، كما يتداوى شارب الخمر بالخمر ، وهو علاج شرعه مجنون ليلى ، رحمه الله ، ورحم ليلاه !

فما الذي جنيت من سعاد الجديدة ؟

لم أجن غير مرارة الخيبة وظلمات اليأس ..

فماذا أقول ؟

إن قلبي يتمزق كلما تصورت ما صرت إليه بعد ليال قضيتها في صحبة تلك الجميلة الرعناء ..

جميلة ؟ جميلة ؟

نعم جميلة ، جميلة ، جميلة !

ولكن أي جمال ؟ هو جمال الصور والتماثيل ، لا جمال الأرواح والقلوب ..

تقيم هذه الرعناء في «....» بمنزل رقيق الحواشي ، فله حديقة غناء ، تزدان بمجموعات نفيسة من غرائب الأزهار والرياحين ..

وفيها أبراج لأنواع من الطيور الصادحات ، وفي أبهاء المنزل أطايب من روائع الفنون ، وفيه مكتبة عامرة بنوادر المؤلفات الفرنسية والعربية ، وفيه مقصف تأوي إليه أحاسيس القلوب حين تشاء ..

ولكن .. ولكن .. ماذا أريد أن أقول ؟

إن هذه الرعناء تملك من أسباب النضرة والنعيم ما ينقل العاشق إلى رحاب الفراديس ..

ولكن .. ولكن .. ماذا أريد أن أقول ؟

أقل إن هذه الجميلة الفتانة الخلابة مريضة بداء عضال هو الغرام بالنكتة المصرية ..

والنكتة يا محبوبتي من أطيب فنون الحديث ، ولكن النكتة المصرية بالذات تحتاج إلى ذكاء ، وهذه الفتاة محرومة من الذكاء الذي يمكنها من عرض النكتة المصرية عرضا يخلب الأذواق ..

أتدرين لماذا تحرص هذه الرعناء على النكتة المصرية ؟ إنما تحرص على النكتة لأنها سمعت أن أم كلثوم تجيد التنكيت !

وأم كلثوم أميرة الطرب ، بلا جدال ، وأظنها تعرف كما أعرف أن النكتة من خصائص الروح المصري ، ولكن يجب حمايتها من الابتذال ، ولا سيما حين تجري على ألسنة الملاح ..

أصبحت أبغض سعاد الجديدة أقبح البغض ، فحولها صواحب رقيعات يتقربن إلى قلبها الأجوف بالتنكيت الأحمق المرذول ..

ليتك تعرفين كيف خاب أملي في هذه الحسناء يا سعاد ! لهذه المخلوقة لحظات من الرفق والإيناس ، ولها أحيانا شمائل من عذوبة الروح ، ولكنها كالمجنون الذي يثور جنونه من وقت إلى وقت فينتقل من العقل إلى الخيال بلا استئذان ..

وأنا يا محبوبتي أحتمل كل شيء إلا الخروج على قواعد الذوق ، لأن الله صاغ قلبي صياغة دقيقة جداً ، وأخشى أن يكون لذلك تأثير في مستقبل حياتي ، فقد أصبحت أعامل المرضى بأساليب مختلفات وفقاً لما يملكون من عناصر الذوق، ولولا بقية من العقل لقتلت كل من أصادف من المرضى الذين يتقربون

إلى الحذلقة في اختراع النكت والمطايبات ..

وما خلق الله أسخف ممن يتظرفون وهم ثقلاء ..

أفتيني ، يا سعاد ، أفتني ، فأنا أحب أن يكون إليك الفضل في هذه القضية ..

أترين أن أهجر هذه الرعناء ؟

فقد تحملك الغيرة على دعوتي إلى هجر تلك الرعناء ، ولكن ذلك مستحيل ما دمت بعيدة عني ، فأنا بصراحة لا أستطيع الحياة بلا حب ، وكيف أحيا بلا حب وبين ضلوعي ذلك القلب الذي تعرفين ؟

هل ترين أن أحتمل سخف تلك الفتاة في التنكيت ؟ حدثيني ماذا ترين ؟ أترين أن أحتمل سخف تلك الفتاة وأقول :«حفت الجنة بالمكاره؟»

أنا مجذوب إلى هذه الفتاة بجواذب من الكهرباء ، ولكنها سخيفة .. فحدثيني ماذا أصنع ؟

بديع الزمان

الرسالة الخامسة والعشرون

لم يصل جوابك يا سعاد ، فما الذي وقع ؟

أنا أعرف ذنبي ؟ أعرف أني كنت مثال النزق والطيش حين حدثتك عن سرائر قلبي ، والمجنون المخبول هو الذي يخاطب النساء بأساليب لا خداع فيها ولا رياء .

أنا أستاهل التأديب يا سعاد ، فقد أردت أن أرفع عن الحياة أوزار التلفيق والتزوير والتضليل ، وكان جزائي أن أشرب العلقم من أيدي من عاملتهم بالصراحة والطهارة والإخلاص ..

لقد عاملت الرجال بالصراحة فخيبوا أملي ، فكيف جاز أن أصارح النساء بعد

التجارب التي اكتوت بها يداي ؟

كان يجب أن أكذب عليك ليبقى مكاني في قلبك الصغير !

كان يجب أن أقول أن الشمس لم تطلع على وجه أنضر من وجهك ، وأن القمر لم يصافح جبينا أكرم من جبينك ، وأن القاهرة لم تعرف من المحاسن بعض ما عرفت أسيوط !

كان يجب أن أقول أني لم أتذوق كأس الحب إلا منذ اكتشفت الأطايب في قوامك الفينان ..

كان يجب أن أموت مقتولا بالعشق لأظفر منك بنظرة عطف يا سفيهة ..

أنت امرأة ؟ أنت امرأة يا سعاد ؟

أنت كتلة من الصخر الأسود الأصم الذي لا يبتسم لأنداء الصباح ..

باسم الحب المزور المكذوب يصل إلى قلبك من يشاء ..

وباسم الحب الصادق الصحيح أشرب من يديك كأس الموت .. غضبة الله عليك وعلى جميع بنات حواء !

قلبي .. لطف الله بك وهداك ..

بديع الزمان

الرسالة السادسة والعشرون

سعاد ..

أؤكد لك أنني غير غضبان من سكوتك الأثيم ..

وكيف أغضب وأنا أعرف أن الحب لعب في لعب وخداع في خداع ؟

لا يؤذيني إلا شيء واحد : هو الشعور بذهاب الصدق من هذا الوجود ..

ومعنى ذلك أن أفهم مقهوراً أن النوازع الوجدانية لم تكن إلا أضاليل وأحابيل.

معنى ذلك يا شقية أن أحول أدبي وذكائي إلى وجوه جديدة من الختل والمكر والخداع ..

معنى ذلك أني أصير مخلوقا حيوانيا لا يعرف غير الفتك والافتراس ..

وسأتأدب بالأدب الذي تلقيته على يديك الكريمتين فأفعل بأسراب الظباء ما يفعل الذئب الجائع بقطعان النعاج ؟

أنا بعد اليوم مخلوق لا قلب له ولا ضمير ولا وجدان سأكون أحمق الناس إن عرفت حسن الأدب بعد الذي عانيت من غدر الملاح ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة السابعة والعشرون

سعاد ..

أنا في هذه الأيام شديد الحقد على الدنيا والناس كل شيء في الوجود يثير غضبي ، ويهيج حقدي ..

ويؤذيني أن أعيش في القاهرة عيش المحرومين من نعيم الحب ..

وقد تعبت قدماي بالأمس وأنا أطوف بأندية القاهرة عساني أجد ما يؤنس روحي ، ثم رجعت إلى البيت أجر أذيال الخيبة واليأس .. وكيف يكون ذلك وقد خلت دنياي من أسباب البهجة والانشراح ؟

قضيت أمس لحظات في مشرب الأمريكين مع ناس لا يعرفون غير نهش

الأعراض وأكل لحوم الغائبين ، وكان فيهم شاب تافه الحديث فقير الروح ، فأخذ يتقرب إليّ باغتياب بعض من أعادي ، فسمج في عيني منظره ، وضاق بحضوره صدري ، ولم أستطع النجاة من سماجته إلا بالانصراف ..

وهذا صنف من الناس له بالقاهرة سوق ، فهل يوجد عندكم مثله في أسيوط ؟

هذا الصنف خبير كل الخبرة بنفوس الضعفاء ، وهو يتعقب أخبار المشهورين من الرجال فيعرف ما يحيط بهم من أحقاد وعداوات ، ثم يعيش في أكنافهم بفضل ما يحسن من اختراع الأقاصيص لتحقير من يعادون ..

وأفراد هذا الصنف هم في الأغلب من أنصاف المتعلمين ، ولكن خبرتهم بأهواء من يتصلون بهم تجعلهم في الصف الأول من علماء الغرائز والطباع ، أما مهاراتهم في اختراع الأراجيف فتضعهم في طبقة القصاصين الكبار ، ولو استطاع أديب أن يدون ما يسمع من تلفيقاتهم لخلق منها صورا شائقة يسجد لها الخيال !

وقد عرفت من هؤلاء شاباً رقيق الحواشي ، عذب اللسان، جميل الهندام ، مأنوس المحضر ، مقتول النظرات ، يمشي إلى السامرين مشي الثعبان الأهتم فوق الرمال ، فإذا آنسوا به وسكنوا إليه نفث سمومه من فم أدرد ملعون ، ومزق ما بينهم وبين العظماء من صلات ، ثم انصرف خفيف الرأس ثقيل الجيب ..

وقد وثقت بهذا المخلوق مرة واحدة ، وكان فيها الكفاية لإفساد ما بيني وبين زملائي ..

فإن سمعت يا سعاد أنني لقيت شراً فسيكون وزر هذا الشر على ذلك المخلوق الرقيع ..

قد تقولين أني أخطأت ، ولكن أين الأذن التي تقاوم ما تسمع ؟

وأين العقل الذي يحمي صاحبه في كل وقت ؟

نحن جميعاً عرضة للانخداع ، فمتى أخدعك باسم الحب يا غادة أسيوط ..

بديع الزمان

الرسالة الثامنة والعشرون

سعاد ..

أخبرك ، وأنا آسف ، أني صرت أثقل الناس عند رواد الأمريكيين ، لأنهم عرفوا أني أبغض مضغ الأحاديث في اغتياب الرفاق ..

وقد آن أن أعترف بأن هذا الخلق ضيعني أقبح تضييع ، فهل ترين أن أرتاب في أصول الأخلاق ؟

إن الدكتور «....» محبوب من الجميع ، وهو مع ذلك سليط اللسان ، فهل تكون البذاءة مما ينفع في التقرب إلى المجتمع ؟ وهل ترين من الخير أن أفتح أذني لسماع الزور والبهتان ، وان أروض لساني على نهش الأعراض ؟

أحب أن أعرف رأيك في هذه القضية ، لأن نفرتي من التعرض لعيوب الناس هي التي جعلتني موضع السخرية عند من يملكون مصاير الأمور في بعض الجهات ، وأنا شديد الرغبة في الظفر بثقة هؤلاء ..

حدثيني ماذا أصنع يا سعاد ؟

وأرجو أن يصل الجواب برجوع البريد ..

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة التاسعة والعشرون

عرفت شيئا من طباعك يا لئيمة ، فأنت تحبين أن تكوني فيلسوفة على حسابي، ومن أجل هذا أطلت الكلام في تفصيل الرذائل والفضائل ، وبيان

المقبول والمردود من أخلاق الناس ..

كان خطابك الأخير تحفة من الوجهة الخلقية ، ولكنه كان خفيف الوزن من الوجهة الروحية ، والفتاة التي تحدث محبوبها عن الأخلاق وتسكت عن الحب .. هي فتاة زودها المجتمع بزاد نافع من الرياء ..

أنا في هذه اللحظات .. أحيا حياة شقية سوداء ، لأن روحي يعيش بلا رفيق ولا أنيس ، وقد تعبت يدي من العبث الذي يجريه المشرط في كل صباح ، وهل يرضيني أن يسعد الناس بيدي وأشقى بنفسي ؟

كانت يدي بالأمس بلسما شافيا لرجل برَّح به الداء ، وقد تأوه آهة الارتياح ، وجرت على لسانه دعوات تمثل فيها العطف والشكران ، وأنا داويت ، روحك مرات ومرات ، يا سعاد ، ولم أظفر منك بكلمة ثناء ..

فهل تدرين ما الذي وقع بعد أن خرجت من حجرة العمليات ؟

سارعت إلى معطفي أفتش فيه عن بريد أسيوط فوجدت رسائلك كلها خالية من الروح .. ألا تذكريني يا سعاد ؟

ألا تذكرين أني استجديت منك كلمة واحدة .. فلم ينفع الاستجداء ؟

استجديتك كلمة «حبيبي» فلم تجودي بها يا بخيلة ، وظلت خطاباتك كلها مفتتحة بهذا التعبير المملول ..«حضرة الطبيب النطاسي..»

نطاسي ؟ هي كلمة تقولينها كما يقولها سائر الناس ، وهي كلمة عديمة المعنى والمدلول ..

أنا حزين ، يا سعاد ، والحزن مرض لا يدرس في كلية الطب وليس له أطباء فيما علمت ..

فأين الوجه الذي أغرق في سناه همومي وأحزاني ؟

أين الروح الذي يعدي روحي بالجذل والفرح والابتهاج ؟

أين ؟ أين ؟ فقد طال بالحزن بلائي !

إلى أين أذهب بهمومي يا سعاد ؟

وفي أي بيداء أعتصم بالحيرة والضلال ؟

لو كنت من الشعراء لقتلت حزني بالغناء ، ولو كنت من الصوفية لدفنت حزني في تربة الوجد ، مع الصابرين المصابرين في عيش الخلاص ، ولكني ـ وا أسفاه ـ أنا شاب مفتون بمخلوقة صيغ جسمها من النور ، وصيغ روحها من الظلام..

فأين المفر من أحزاني ؟ وبمن أستنجد ؟

وإلى من أتوجه ؟

وإلى أين أصير وفوق صدري شجون لا تحملها الجبال ؟ لم يبق إلا أمل واحد يا سعاد .. هو الحب أو الموت .. أما الموت فهو مطلب سهل المنال ، لأني أتوقع في كل يوم أني أستشهد في سبيل الواجب .. وأما الحب فهو الغاية التي لا أصل إليها إلا بعد أن أحترق في سعير الوجود ..

وأنا سائر في طريق الوصول إلى تلك الغاية المشبوبة بأرواح الرجال ، فاطمئني على محبوبك الغالي ، يا سعاد ، فلن أموت قبل أن أشرب تلك الكأس ..

ألمثلي يخلق الأمل الكاذب في هوى مخلوقة سخيفة لا تميز بين الزائف والصحيح من جواهر القلوب؟

أيموت مثلي وجدا بإنسانة جادت عليها المقادير بما لا تستحق حين وهبتها عينين نجلاوين ، وحين أضفت على جسمها الفينان تهاويل السحر والفتون ؟

سنلتقي بإذن الهوى ، يا سعاد ، وسترين كيف يكون العتاب ..

أنا أشعر بأني فوق قمة تشرف على هاوية الحب ..

فمتى أتردى في تلك الهاوية ؟

ومتى أحترق في كوثر الوصال ؟

أنا حزين ، يا سعاد ، حزين على الشباب المضيع في هواك ، حزين على الوقت المضيع في تدبيج هذه الرسائل الطوال ، حزين على العمر الذي انفق منه بلا حساب في التغريد فوق أفنان الجمال ..

أستجديك للمرة الأولى بعد الألف كلمة «حبيبي» فخطيها مرة واحدة لأعرف أني أخاطب إنسانة ولدت مع الربيع ، ولم تولد مع «ثلوج الشمال» وتذكري الحكمة التي تقول :«الرحمة فوق العدل» ...

مصر الجديدة

بديع الزمان

الرسالة الثلاثون

سعاد ..

أرجوك باسم الهوى أن تكفي عن العتاب ، فما سكوتي عن نجواك بالرسائل إلا محنة من محن الصبابة والوجد ، والقلم قد ينحبس عن الإنشاء كما تنحبس العيون عن المدامع ..

والحق أني نادم على ما صنعت مع نفسي ، فلو كنت سجلت كل ما جال في الخاطر من صور وأطياف لأصبحت بفضل الهوى من أعلام البيان ..

أين أيامي ؟ أين ؟

أين أيامي وأنا أقضي جميع الأوقات في دراسة عواطفي وشجوني ؟

أين ؟ أين ؟

إن البحر ليعجز عن إطفاء ما يتسعر في صدري من حريق بسبب اللوعة التي أعاني جحيمها في الصباح والمساء .. كل ما في الدنيا خداع في خداع إلا هيامي بوجهك الأصبح وطرفك الكحيل ..

وكأن الله لطف فخمدت تلك الجذوة في بعض أيام الصيف ثم تسعرت في هذه الأيام .. فهل تعرفين كيف عاودني جنوني ؟

اسمعي ، يا سعاد ..

في ليلة من ليالي الأسبوع الماضي أطفئت الأنوار في القاهرة وضواحيها لتجربة الغارات الجوية ، فأمست مصر الجديدة ظلاما في ظلام ، وشاء شيطان النزق والطيش أن أخرج إلى الصحراء لأرى كيف يكون جمالها في الظلمات .. ما أروع تلك الليلة ، يا سعاد ، ففيها تذكرت ليالي الطفولة والحداثة في أشمون ، حين كنت أسير مع أهلي في حراسة المحصول ، أو إدارة السواقي ، وحين كنت أخاطب النجوم وتخاطبني ، وحين كنت طفلا كثير الأحلام لا ينتظر ان تريه الأيام أهوال الهجر والصدود ..

وقضيت في صحراء مصر الجديدة أخاطب النجوم من جديد ، فراعني أن أرى نجوم السماء كعهدي بها منذ أكثر من عشرين عاما ..

أنا وحدي الذي تغيرت ، يا سعاد ، أما نجوم السماء فبقيت على العهد ، وهي لا تزال تداعب أخيلة الأطفال والأحداث !

أنا وحدي الذي تغيرت ، يا سعاد !

كنت في أيام الطفولة والحداثة أصدق كل شيء ، فأرى كل شيء ..

كان الناس في بلدنا يعتقدون رؤية صور الأولياء يوم العيد في مقام سيدي مدين ، فدخلت مرة ذلك المقام في صباح يوم عيد وهتفت :«يا سيدة زينب» فظهرت صورة السيدة زينب وهي ملثمة فوق ظهر جواد ، فخفق قلبي أشد

الخفوق ، وكاد يثب لتقبيل ذلك الشبح المحبوب ، وهل كنت أظنه شبحا يومذاك؟

كانت هي نفسها السيدة زينب يتخطر بها الجواد في خفر ودلال ..

ثم تغيرت ، يا سعاد ، فصرت أعتقد أن الأموات لا يسمعون أصوات الأحياء، وبذلك صار من المستحيل أن أرى في مقام سيدي مدين أية صورة من صور الأولياء ..

وقفت في ظلمات الصحراء أتأمل كيف كنت وكيف صرت ..

كنت من البسامين ، فصرت من البكائين ..

كنت أملك بالأمان كل شيء ، ثم فقدت باليأس كل شيء ..

ولو كان لي بخت لصار هواي من هواك يا سعاد، فقضينا العمر معاً في أشمون .. أو أسيوط ..

وقفت أفكر وأنا محزون القلب ، مفطور الفؤاد فكرت في شبابي ، الشباب الذي لفحه هجير الفراق ، فصوحت أزهاره الضواحك ..

فكرت في آمالي ، الآمال التي صرعها اليأس فأمست وهي أطلال هوامد ..

فكرت في تلاقينا أول مرة بمصر الجديدة في سنة 1932 .. أتذكرين ، يا سعاد؟

أتذكرين كيف أسرينا إلى سماء السعادة في لحظة واحدة برعاية الوجد المشبوب ؟

ليت الدنيا دامت ، كما عهدنا ، وليت بياض الحظ لم يتحول إلى سواد !!

بديع الزمان

الرسالة الواحدة والثلاثون

سعاد ..

لم أستطع أن أقول في الرسالة الماضية كل شيء ، وهل أستطيع أن أحدثك عن قلبي بكل شيء ؟

إن ظلام الصحراء جدد أحزاني وأشجاني ، فقد تدافعت جيوش الوجد من كل جانب ، وتخيلت أن الغارة الجوية لن تسقط إلا فوق رأسي ، وهل يملك الأعداء من إيذائنا بعض ما تملك قلوبنا الخوافق ؟ وأين جيوش الأعداء من جيوش العواطف ؟

إننا نقدر على مصارعة أعدائنا بلا تخوف ولا تهيب ، ولكن متى قدرنا على مصارعة ما في صدورنا من عواطف ؟

إن العدو الخطر ، العدو المزعج المخيف ، هو القلب .. فكيف السلامة من أهواء القلوب ؟

إن لي زملاء يقضون الليل والنهار في حياكة الدسائس ، ولم ينالوا مني أي منال، ولكن قلبي على قربه مني ليؤذيني أبغ إيذاء ، وسيفتح أمامي باب القبر بعد قليل ، فهل تترحمين عليّ ، يا سعاد ، يوم أموت ؟

إن قضى الله أن يحرم قبري من دمعة غالية تسكبينها عليه .. فسأشقى بعد موتي بالغليل ، كما شقيت في حياتي بالغليل ، أنا العاشق الصادق ، الذي رأى الحب من أكرم شرائع الوجود ..

بديع الزمان

الرسالة الثانية والثلاثون

سعاد ..

هل قرأت الجرائد اليومية .. ورأيت مصير مخزن الأقلام للموسيقار محمد عبد الوهاب ؟

لقد سئل عبد الوهاب عن سبب الحريق .. فقال : إنه بفعل فاعل .. ولم يتهم أحداً ..

وكان في نيتي أن أبلغ الشرطة عن سبب الحريق .. ثم سكت رغبة في السلامة من القيل والقال ، فهل أستطيع أن أبلغك أنت ؟

أنا يا محبوبتي السبب في ذلك الحريق ، فقد زرت عبد الوهاب في مكتبه وتركت هناك زفرة من زفرات قلبي .. فكان الحريق الذي تحدثت به الجرائد ؟

فهل ترين أني مسئول ، أم تكون المسئولية على من أشعلوا النار في فؤادي ؟

متى أراك ، يا سعاد ، ولو أمام القضاء ، متى ؟ متى ؟ سأبلغ الأمر إلى النيابة ، لأجد الفرصة لدفع ظلمات الأحزان بالنظر إلى جبينك الوضاء ..

بديع الزمان

الرسالة الثالثة والثلاثون

سعاد ..

إن محبوبك الغالي يقتل نفسه بلا ترفق .. لم يعد محبوبك الغالي إلا قيثارة رنانة تصدح بألحان الألم والحنين ..

أنا اليوم جذوة تتوقد فتحرق ما حولها من صور الآمال والأماني .. فهل ترين

ذلك من أدلة العافية ؟ أم ترينه مرضا من أمراض الروح ؟

إن الوجود يظهر لي في كل يوم بألوان مختلفات من صور البؤس والنعيم ..

فأين أنا مما أريد ؟ أين .. أين ؟

لقد أصبحت من عباد النار ، وأخشى أن احترق ، لأن النار على جمالها حمقاء .. لا تفرق بين العاصين والطائعين ..

أنا اليوم قوة كهربائية تصنع ما تصنع بلا ترفق ولا استبقاء ، فإن أهلكتك بأنفاسي الحرار ، يا سعاد ، وصيرتك قبسًا حائراً بين أقباس الوجود ، فلا تعتبي ولا تلومي ، فأنت أهل لكل بلاء بفضل ما تملكين من غطرسة وكبرياء ..

سعاد ..

ماذا تريدين مني ؟

إن محبوبك الغالي لم يتغير ولم يتبدل ، وإن عضه ناب الزمان ..

فتعالي إليّ ، يا محبوبتي الغالية ، تعالي .. علني أستصبح بجبينك المشرق فأستطيع تبديد ما في الوجود من ظلمات تكرب صدري وتبدد ما أنتظر من سلام وأمان ..

إليّ ، إليّ ، يا أكرم ذخيرة أعددتها لأيام البؤس والشقاء ..

إليّ ، إليّ ، فإني فقير إلى نظرة طرفك الأحور ، وبسمة من ثغرك الوضاح ..

إلىّ ، إلىّ ، قبل أن يجف عودي وأستريح في مقابر المطرية .. أو مقابر أشمون.

بديع الزمان

الرسالة الرابعة والثلاثون

سعاد ..

ما أعتقد أن الله خلق روح ألأم من روحك ، أو قلبا أظلم من قلبك ، وما يخطر في البال أن الدنيا شهدت إنسانة غافلة قبل أن يعرف أديم الأرض أقدامك الخفيفة التي تشبه أقدام الظبي الرعديد ..

أنت يا سعاد غبية بليدة ، وأنا أبغض الأغبياء البلداء .. فما الذي يجذبني إليك .. وقد رأيتك مثلاً في بلادة الطبع وخمود الروح ..

ما الذي يجذبني إليك .. وأنت الشاهد الحي على سخافة بنات حواء ؟

تقولين في خطابك الأخير أنك أصدق مني ، وشاء لك سوء الأدب والفهم أن تقولي أن قلبي مبدد بين معشوقاتي ، وأن وجدك على هدوئه أصح من وجدي لأن الجانب الذي خصصتني به من قلبك أكبر من الجانب الذي وقفته عليك من قلبي..

فهل تذكرين يا غبية أني دعوتك من نار الصبابة والوجد ؟

هل تذكرين يا بليدة إنني أنذرتك بالمصير المحتوم يوم أعرف أنك ميتة الوجدان ؟

واحر قلباه !. واحر قلباه!

سبع سنين قضيتها وأنا مغمور الفؤاد بهواك الموهوم في صباحي ومسائي ..

فما الذي غنمت من جهاد تلك السنين الطوال ؟

غنمت الحسرة .. والألم .. والبكاء ..

ولو كان هواي موجها إلى صخرة لذابت من نار الوجد أو ماء الدموع ..

فمن أنت بين الحجارة السود .. يا ألأم مخلوق بين ذرية آدم وحواء ؟

إن الله لطيف بي في جميع أدوار حياتي ، فهل أرجو أن يرحمني من هواك الظلوم ..

بديع الزمان

الرسالة الخامسة والثلاثون

سعاد ..

ماذا تريد بنا الأيام ؟ ماذا تريد ؟

لا ينقضي يوم .. إلا وأنا أشعر بأن هوانا معرض للخمود ، فقد جدت لي شواغل جديدة في دنياي ، ومن المنتظر أن يكون لي مكان بين أطباء الجيش إن تعرضت مصر لخطر الحرب .. وإذا وقع ذلك فسأنسى هواي وألتفت إلى التوجع لمصاير الإنسانية .. وقد أنضم إلى صفوف الجنود ، ولكن هل أنسى ما بيننا إذا كتب الله أن يقع شيء من ذلك ؟

إنني لمؤمن يا شقية بأني سأرى وجهك في كل مكان .. وسألقاك حيثما توجهت ، ولو ثار من حولي لهب الحرب وسعير القتال ..

وفي الحق يا سعاد أن المرء ينسى شجونه حين يصارع أهوال المجتمع ؟

أفي الحق أن الجنود المرابطين في الجبهة الغربية ينسون الشجون التي خلفوها في ديارهم يوم السفر إلى الميدان .. قد يكون ذلك ، وقد يكون من الحق أن العواطف الوطنية تطغى في بعض الأحيان فتغرق العواطف الذاتية .. وهنا أشعر يا سعاد بحقد متضرم على من يثيرون الحروب .. ويحرمون الإنسانية من التمتع بنوازعها الأصلية وهي تشرب كأس الحب أو تسكن إلى نعيم البيت ..

فالعواطف التي تخمد بانتقال الرجل من دار الأمان إلى ميدان الحرب .. هي من الذخائر النفيسة التي نفتقدها طائعين أو كارهين .. والآمال التي يبددها

الانتقال من حال إلى حال .. كانت من الحوافز التي تدفعنا إلى اغتنام ما في الوجود من منافع وطيبات ..

ولكن ما الذي يخيفني من الحرب ؟

وهل عرفت السلام في دنياي .. حتى أفزع من الحرب ؟

نعم ، عرفت السلام ، يا سعاد .. عرفته يوم كنت تفرحين بلقائي .. فمتى تفرحين بلقائي مرة ثانية ؟ متى أرى تلك العيون وهي نواطق بالأنس والارتياح ؟

وهل في الدنيا سعادة أعظم من سعادة المحب حين يقرأ في عيون محبوبته معاني الفرح والابتهاج ؟ لم نكن نتعانق ، يا سعاد ، عند التلاقي ، ولكني كنت أشعر أن روحي يضم روحك ضمة قوية ، وكنت أحس أن توهج عينيك ليس إلا أثراً لاشتباك الروح بالروح ..

أنا أعرف ذنوبي ، يا سعاد ، وأعرف أسباب العتاب ، والاعتراف يهدم الاقتراف ؟

فمتى تصفحين وتغفرين ؟

أما لك في الله أسوة ، يا شقية ؟

فلو كان الله عز شأنه يعاقب على ذنب .. لسحق الناس جميعا منذ أزمان طوال .. ولكنه يعاقب مرة .. ويعفو مرات .. وبفضل رحمته وعفوه عاش الآثمون والأشقياء ..

وهل يئست من صلاحي يا سعاد ؟

أنا يا محبوبتي شاب رقيق القلب والوجدان ، ومستعد لأعظم تضحية في الحب .. إلا أن تكون التضحية موجهة إلى الزهد الأثيم الذي يوجب أن أنسى أنك فتاة رائعة الحسن .. بارعة الجمال .. وهل في الدنيا فتاة يؤذيها أن يتطلع الحبيب إلى حسنها الرائع .. وجمالها الفتان ؟

أنا أخشى أن تكوني مريضة ، يا سعاد ، فالنفرة من بشاشة الغزل لا تصدر عن فتاة صحيحة الجسم والروح .. حدثيني عن أدق الشئون في حياتك الخصوصية ، فقد أعرف السبب فيما ابتلاك به القدر من زهادة حسية لا تلتئم مع فتاة تشهد طلائع جسمها الفينان بأنها تنكر خمود الفؤاد .. أأنت التي تقولين : طهر قلبك .. ثم تعال ؟ وكيف أطهر قلبي من الصبوة والفتون ؟

وبأي حق أعيش .. إذا وقعت في الدنس ، دنس الجمود عن فهم روائع الصبابة والملاحة والجمال ؟

وكيف ألقي الله وقد اقترفت الإثم المنكر حين غفلت عن سحر العيون ؟

اسمعي يا شقية .. إن الضلال الذي تنكريه عليَّ هو عندي أفضل وأشرف من الهوى الأثيم الذي يقترحه ذهنك الخامد وقلبك العليل ..

أنت والله غبية وبليدة ، ومن نكد الحظ أن أبتلى بحب فتاة غبية العقل .. وبليدة الروح .. فإن رزقك الله شيئا من صحة العقل ولطف الذوق فاسألي عني ، وإلا فهو الفراق إلى غير تلاق .. الوداع ، الوداع .. يا ربة الصون والعفاف ..

بديع الزمان

الرسالة السادسة والثلاثون

سعاد ..

كم حاولت أن تصح القطيعة التي أعلنتها في رسالتي الماضية .. لقد التفت إلى واجباتي وشئوني أعظم التفات .. راجيا أن أستعين بالواجب على الحب .. فهل أفلحت ؟ وكيف يفلح من ابتلاه الله بهوى الملاح ؟

إني لأحسد الغافلين الذين أعماهم الجهل عن رؤية اللؤلؤ المنثور فوق بساط الوجود ، فأولئك قوم يعيشون في سلام وأمان كما تعيش الأنعام .. وما

أسعد الأنعام في هـذا الوجـود ! أكـاد أؤمـن بـأن الحيـوان لا يتـذكر ولا يحـزن ، والتذكر والحزن هما أساس ما نعاني من بـلاء .. والمـوت مـريح لأنـه يعفينـا مـن الذكريات والأشجان .. فالحياة التي يحسها روحي وعقلي وقلبي هي مصـدر مـا أنا فيه من لواعج وشجون .. وهذا هو السر في أني أرجع إليك في عقب كل ثورة .. لأني أرى الثورة عليك من شواهد العافية فاصنعي ، يـا شـقية ، كـل مـا يـوحي بـه جنون الشباب وسكر الدلال .. فلـن أقـف إلا حيـث تشـير الحيـاة التـي منحتـك بفضلها من الحب ما لا تستحقين.. أنت مجنونة ، يا سعاد ، وأنا مجنون .. وما لذة العيش إلا للمجانين ! هذه الثورة العاصفة وهذا العتاب العنيف هما الشاهد الناطق بأنني أتشبث بالحياة .. الحياة التي تجري في دمي وعروقي جريان المـاء في العـود الرطيب .. سأخترق جميع المصاعب ، وسأكسر جميع الحواجز لأصـل مـن هـواك إلى ما أريد .. فلا تظني أنني سأكتفي بالأشجان والمدامع ..

هيهات ! ثم هيهات !

فلو كان بيني وبينك ألف خط من أمثال خط ماجينو لوصلت إليك بلا جهـد ولا عناء ..

أنت لي يا سعاد .. والعزيمة القوية تفل الحديد وتخمد النار وتذيب الجلاميد .. جربي عنادك .. واعتصمي بشواهد الغطرسة والكبرياء .. فلن يكون إلا ما يشاء الهوى العارم .. والوجد المشبوب ، وسـوف تعلمـين .. وإلى اللقـاء فـوق جسـر إسماعيل ، أو فوق خزان أسيوط ، إلى اللقاء يا منية القلب ويـا عزيمـة الـروح ويـا بلبلة الخاطر وعذاب الفؤاد ..

بديع الزمان

الرسالة السابعة والثلاثون

سعاد ..

لقد آذاني ما أوجه إليك من الرسائل أعنف الإيـذاء فـأكثر النـاس يحسـبونني أمزح ..

وهل يمكن المزاح مع الحب يا سعاد ؟

كانت تلك العواطف نكبة من نكبات الدهر سقطت فوق رأسـي فـأفزعتني ، وعلمتني أن الدنيا ليست دائما ملاعب غواية ومواسم جموح ..

أي والله ! فقد عرفت أن الدنيا فيها لواعج وشجون ومآس داميـة تتفطـر لهـا قاسيات القلوب .. ويكفيني أن يكون في الدنيا فجيعة مثل فجيعتي في هواك لتصير كالنبات المر الذي يروق العيش ويؤذي الذوق !

كانت الدنيا في عيني ورداً بلا شوك فأصبحت شوكا بلا ورق .. وكذلك دنيـا الحب لا يبقى فيها من الأزاهير غير الأشواك . ما تمثلت فجيعتي في هواك يا سعاد إلا شيعت الدنيا بنظرة الاحتقار والامتهان ، فالدنيا التي يشقى فيها قلب مثل قلبي خليقة بالكره والبغض والمقت ، وهي والله أحقر من أن ينصب لأهلها ميزان يـوم يقوم الحساب .. أين ما كان عليه يوم كان ابتهاجك بلقائي يراقص أزاهيـر الأرض ونجوم السماء ؟

وأين العهد الـذي كانـت تبـدد فيـه الـدنيا وهـي ملاعـب لأهـواء الأفئـدة ، ومراقص لأحلام القلوب ؟

ضاع كل ذلك يا سعاد .. وبقيت أسير الحزن واليأس .. وخلت يدي من زمامك الطيع الذلول .. فمتى تهب نسمات الحب لتذكري محبوبك اليائس الحزين ؟

بديع الزمان

الرسالة الثامنة والثلاثون

سعاد ..

إليك بعد الله أشكو بثي وحزني .. لم تعد لي طاقة لمقاومة الدسائس والوشايات .. ولم يبق لي صبر على تحمل مكاره الذنوب التي تختلق اختلاقا لإفساد ما بيني وبين رؤسائي .. وقد فكرت في مقابلة الدس بالدس .. والبهتان بالبهتان .. ولكني لم أستطع لأن الله حرمني المقدرة على حياكة الدسائس والأراجيف .. وهو لم يمنع هذه القدرة لغير الضعفاء وقد تسألينى يا شيطانة عن شرح هذه الفكرة الفلسفية وأجيب بأن الله وهب لكل مخلوق سلاحا ما يدفع به عدوان المعتدين .. فوهب السم للثعبان ليخدر به ما يفترس .. وليخيف به من يعتدون عليه ، ومنح الأسماك ضروبا من الأشواك تقاوم بها الصيادين .. ومنح الكهرباء للسمكة النيلية التي تسمى «الرعاد» وهي سمكة بلا شوك .. وهي تدفع الشر بتلك الكهرباء .. هل رأيت «الرعاد» يا سعاد؟

ومنح الأسود والنمور ما أعرف وتعرفين من مخالب وأنياب .. وخص الأقوياء من الرجال بمزايا جسدية وعقلية وروحية .. يسيطرون بها على الناس .. فهل تعرفين ما هو السلاح الذي تفضل به الله على الضعفاء ؟

لقد لطف بهم عز شأنه فمنحهم القدرة على الدس والكيد .. كما منح السم لبعض صغار الحشرات .. تباركت يا ربي وتعاليت ولك في كل شيء حكمة ، وفي كل شيء دليل على انك خالق السم والترياق .. وفاطر الداء والدواء ، ونحن بحكمك راضون .. وأقول يا سعاد إن الله حرمني القدرة على حياكة الدسائس والأراجيف لأنه منحني سلاحا غير هذا السلاح الذي لا يمنحه لغير الضعفاء ..

وقد شكوت إليك مرة ما يصنعه الدساسون في محاربتي .. فكان رأيك يا شيطانة أن أجزيهم كيدا بكيد ، وإرجافا بإرجاف .. فلتعلمي أن نفسي عزت عليّ

فلم أقابلهم بغير الصفح والغفران .. ولكن إسفافهم زاد حتى طفح به الكيل ..

فما الذي أصنع ؟ هل أرجع إلى رأيك الخاطئ .. فأدفع الدس بالدس ، والكيد بالكيد ؟ وهل اختلت موازين الوجود حتى أصير من الدساسين .. وأنا فارس سعاد ؟ إن الحب رفعني عن الدنايا والصغائر وكاد يعصمني من الهفوات .. فما الذي يمنع من أن أنظر إلى الدساسين بعين الشفقة والعطف ؟

لقد شتمني أحد الأدباء بمقال سخيف نشره في إحدى المجلات .. ثم جاء يعتذر إليّ .. فقلت : أنا أعلم يا هذا أنك أديب فقير .. فأن كنت أخذت أجراً على ذلك المقال .. فبالهناء والعافية .. وإن كنت نشرته بغير أجر .. فسأجزيك عليه لتعرف أن الدكتور بديع الزمان يعاون فقراء الأدباء على العيش ، وطبيب الأبدان يجب أن يكون أيضا طبيب الجيوب ، ومرض الجسم قد ينشأ عن مرض الجيب..

وهل تصدقين يا سعاد أني عاونت واحدا من هؤلاء على إنشاء مقال في شتمي ليتقرب به إلى أحد خصومي عساه يعينه على الظفر بوظيفة في وزارة الأوقاف ؟

أنا أريد أن أسمو إلى منازل الأخلاق .. فهل أستطيع بفضلك أن أسمو إلى أعلى منازل الحب لأصير أشرف الرجال وأعظم الرجال ؟ ويلي منك ومن الناس يا سعاد !

لقد انتصرت على أعدائي ، فهل أنتصر على أحبابي ؟

وكيف .. وقد عجزت كل العجز عن الانتصار على قلبي ..

بديع الزمان

الرسالة التاسعة والثلاثون

سعاد ..

انقضى شهر رمضان .. ولم أخرج فيه من داري غير مرتين .. وهل في القاهرة

ما يشوقني إلى سهرات رمضان ؟ كان لي صديق عزيز يستقبل الزوار في داره في جميع ليالي رمضان .. وكانت داره في ليالي شهر الصوم أشبه الأشياء بسوق عكاظ الذي سمعت أخباره من «خوجة» العربي يوم كنت تلميذاً بالسعيدية .. ثم شاء القدر أن يصير هذا الصديق وزيراً منذ سنتين .. فمضيت للسمر عنده في رمضان الفائت .. فوجدت داره في حراسة الظلماء ، وعلى بابها جندي يتلقى بطاقات الزائرين .. فلعنت المناصب التي تخرج الرجال عن سجاياهم ، وتحولهم إلى آلات صماء لا تسمع ولا تجيب إلا بمحرك تقذفه الأرض أو تنشق عنه السماء .. وقد ضاعت الوزارة من يد هذا الصديق ورجع إلى استقبال الزوار في رمضان !

فهل أزوره في رمضان ؟ مستحيل.. مستحيل .. مستحيل ..

نريد رجالا أوفياء لا تغيرهم المناصب .. ولا تحولهم الأيام ..

بديع الزمان

الرسالة الأربعون

سعاد ..

أنا في يوم العيد يا سعاد .. ولم تزوريني في مصر الجديدة .. ولم أزرك في أسيوط .. فكم عيداً في الحياة يا سعاد حتى يجوز أن أحرم منك أو تحرمي مني في أيام هذا العيد ؟ كم عيداً في الحياة يا سعاد ؟ إنها أيام نودعها طائعين أو كارهين وسنعض بنان الندم على ما فرطنا في جنب الحب ، فأعدي عدة الصبر الجميل ! فقد يشاء القدر بعد أشهر أو أعوام أن تلبسي ثياب الحداد على حبيبك الغالي .. أنا حزين يا سعاد ، والعيد بأفراحه وملاهيه لا يرفع عن صدري أثقال الشجون ، فهل أجد عندك دواء لهمومي وأحزاني ؟

تلقيت البريد في هذه اللحظة يا سعاد .. وليس فيه شيء من أسيوط ، فما الذي وقع ؟ أتكونين مريضة ؟ أيكون السلوان مسح قلبك بيده الرقيقة ؟

أتكون الدنيا فسدت حتى لا يعطف فيها قلب على قلب ؟ سأقوم بواجب الحب يا سعاد .. حتى لا يغضب الله على هذه الدنيا فيحولها إلى ميادين من البغض ، والحقد ، واللؤم ، والكفران .. سأغضب على نفسي فأجشمها السفر إلى أسيوط لتحية الحب .. في دار سعاد .. إن كانت سعاد لا تزال في شوق إلى حبيبها الوفي الأمين الذي ردته مكاره الصدود إلى روح يأس حزين لا يعرف أيكون العيد في يوم الأحد أو يوم الخميس .. ولا يدري أيكون في مطلع رمضان أو في استهلال شوال .. وعند الله جزاء الوفي الصادق .

بديع الزمان

الرسالة الواحدة والأربعون

سعاد ..

مضت أسابيع وأسابيع .. وأنا محروم من نعيم الأنس بالكتابة إليك ، وقد دفعت ثمن التقصير يا سعاد .. دفعته من راحتي وعافيتي .. وإلى قلبك الرقيق أقدم شرح هذا المعنى الدقيق..

كنت أحسبني أتفضل أني لم أكن أتفضل عليك ، وإنما كنت أتفضل على نفسي.

كان التفكير فيك يا سعاد يشعرني بأني رجل فاتك يسيطر على قلب امرأة عصماء ، وكان يدلني على مزايا نفسية تقوى بها عزيمتي ، وينشط بها جناني ..

وأهل الغفلة لا يدركون قيمة الشعور بالرجولة العاتية ، الشعور الذي يوحيه تعرض المرأة الآبدة لعرامة الرجل الفحل ، وهو شعور يدفع الرجل إلى جلائل الأعمال .. فإن اعترفت اليوم بأني كنت من الخاسرين حين أردت تأديبي بالسكوت .. فاعرفي أني لم أقل غير الحق .. وكيف أغالط نفسي وقد رأيت أن أيام

السكوت لم تكن بالنسبة إلى محبوبك الغالي إلا أعوام خمود ؟

هل يغلق الرجل قلبه عن صوت المرأة إلا وهو جاهل بمنافعه الصحيحة في دنياه ؟

إن مرارة الحياة التي أتجرع كؤوسها في كل وقت .. ليست شيئا بجانب الحرمان من عطفك يا سعاد ، فمتى تغفرين ذنوبي لأشعر أن في الدنيا قلبا يسامر قلبي ؟

أنت عاتبة يا «سعاد» ولكنك تنسين كيف يجوز لمثلي أن يتغطرس وهو يرى فتاة عبقرية تؤثره بهواها القهار قبل أن تخصه بجمالها الفضاح .. وما الذي يمنع من أن يقع الدلال من جانب العاشق ؟ ما الذي يمنع وهو في حقيقة الأمر معشوق من أجل زهرة أنبتتها أسيوط ؟

أنا مجنون بالعظمة قبل أن أجن بالعشق ، فعظمتي في صدرك يا سعاد هي سبب جنوني ، وسأشرك بهواك ، إن لم أكن أشركت لتشهد الدنيا والناس أني فتى له تاريخ في تعذيب قلوب الملاح ..

بديع الزمان

الرسالة الثانية والأربعون

سعاد ..

هل تفتحين صدرك لمن يستغفر ويتوب ؟

كانت رسالتي الماضية فنا من الحمق ، وهل رأى الناس قبلي عاشقا يصارح معشوقته بأنه يشرك بهوى من يحب ؟

تلك دعابة يا سعاد ، فلا تغضبي ولا تعتبي ، فلن يقع هواي إلا حيث تحبين .

وهل تسمح الدنيا وهي غدارة ظلوم بأن تسوق إلى قلبي هوى أقوى وأعنف

من هوى سعاد ؟

أعتذر ، أعتـذر ، فاصـفحي عنـي ، يـا كـل مـن أملـك مـن مصـادر البهجـة والانشراح في شبابي ..

بديع الزمان

الرسالة الثالثة والأربعون

سعاد ..

أنا مع الدنيا في حرب ، مع الأهل في قتال ، مع الزملاء في نضال ..

فكوني في صفي ، يا سعاد ، لأنتصر على الدنيا والأهل والزملاء ..

كوني في صفي ، يا سعاد ، فلم يبق لي نصير غير قلبك العطوف ..

بديع الزمان

الرسالة الرابعة والأربعون

سعاد ..

أفي الحق أنك راضية عن أسلوبي في شرح معاني الحب ؟

إن رضاك عن أسلوبي سيدفعني إلى منافسة أدباء مصر أجمعين اكتعين أبصعين «ذلك هو التوكيد الذي علمونا إياه في المدارس الابتدائية والثانوية» .

وأنا أعرف السر في الفصاحة التـي يمتـاز بهـا قلمـي ، والسـر كـل السـر هـو الصدق ، فما عرفت يوما زخرف القول ، ولا رضيت نفسي عـن زور الحـديث في جد أو في هزل ..

ألا ترين كيف صبرت على هواك ..وأنت غدارة ظلوم ؟ إن صبري عليك يا شقية هو أعظم الشواهد على أني لا أعرف المزاح في الحب ..

وهل يمزح في الحب إلا الكاذبون ؟

وكيف كان أسلوبي أفضل شمائلي عندك يا سعاد ؟

ألم تكن نظراتي إليك أفصح وأبلغ وأبرع وأصدق من سائر ما تفوه به أهل الفصاحة والبلاغة والبراعة والصدق؟

هل تذكرين يوم وقفنا نناجي الشمس عند الأصيل فوق خزان أسوان ؟

لقد قضيت ساعة كاملة وعيناي تصبان في عينيك رحيق الحب والعشق ، وهي ساعة لن أنساها وإن صنع الغدر بقلبك ما صنع ، فكيف تكون رسائلي أفصح مما نطقت به عيناي ؟

تعالي إليّ ، يا سعاد ، لتعرفي كيف تكون فهاهة الألسنة بجانب فصاحة العيون .. سعاد تشهد أني فتى فصيح بليغ ، لأني أمتعت قلبها وذوقها برسائل أربت على الثلاثين ، فأين كانت سعاد من فصاحتي وبياني يوم أسرت فؤادي أسراً أبديا بنظرة واحدة حين التقينا في نادي القلم المصري على غير ميعاد ؟

اسمعي أيتها الغدارة الظلوم ..

إن الدنيا ضاقت في وجهي بفضل هواك الثائر العصوف ، فمتى ترجعين إليّ ، ومتى تعطفين عليّ ، يا أعظم الوارثات لجبروت حواء ؟

أنا مقبل على مكاره ومعاطب ، بسبب هواك يا سعاد ، فكوني في صفي لأنتصر على الأهل والزملاء والرفاق ..

سعاد .. كل شيء ما خلا الحب عبث ، كما قال شوقي ، فأين نحن من الحب ؟ وأين نحن من النعيم ؟

أنا واثق بأن بلائي بهواك سيطول ، ولكني مع ذلك واثق بأن ذلك البلاء هو

سبيلي إلى الخلود ، وسيحفظ الدهر اسم الفتى الشهيد ..

بديع الزمان

الرسالة الخامسة والأربعون

سعاد ..

إن اليأس الذي يصارعني من حين إلى حين يكاد ينطق بأن لقاءنا الأخير كان القطرة الأخيرة من كأس الحب ، وما أمر بقايا الكؤوس في فم النشوان من عثرات الزمان !

فإن اخترمتني المنية قبل أن أراك ، يا ريحانة القلب ، فتذكري أن روحي سيحوم حول دارك في كل وقت وهو ظمآن ، وسيستمع في كل لحظة عساه يسمع منك شهقة وجيعة على ذهابي ، ذهاب الطائر الغريب الذي ضنت عليه المقادير بأن يغرد فوق أفنان الجمال ..

وما آسى على شيء يوم أموت كما آسي على ذهاب البهجة والبشاشة من دنيا محبوبتي الغالية ، المحبوبة التي تجيد فن التغاضي عن جمرات القلوب ليحترق محبوبها وحيداً فريداً بدون أن يأنس روحه بصرخة عزاء ..

من أنت ، يا سعاد ، حتى ألقي في هواك ما لقيت ؟

وهل تستطيع فتاة يجرح خدها النسيم أن تسيطر على قلب فتى عارم فاتك .. إلا أن يكون الضعف من القواعد التي قام عليها بناء هذا الوجود ؟ الضعف قدرة عاتية ، وبفضل الضعف عاشت مخلوقات تفوق العد والإحصاء ، فهنيئا لك تلك القدرة السخيفة التي تصولين بها على قلبي ، يا أنضر زهرة تعطر بشذاها بستان الحب .. أنت سخيفة ، يا سعاد ، ومن بلايا الزمن أنة يكون لأهل السخف قدرة على الحلم والجهل ، والهجر ، والوصل ..

رباه ! متى ترحمني من سيطرة أهل السخف ولو كانوا في حلاوة سعاد ؟

وهل هنت عندك ، يا ربي ، حتى يكون شقائي ونعيمي بيد أحد من عبادك الفانين ؟

رباه ! أنت صاحب الحول والطول ، وبيدك أمر الأقوياء والضعفاء ، ومن فضل جودك صار النهر الصغير أنفع لخلقك من البحر المحيط ، وبفضل حكمتك صار من حق النمال أن تعيش في أرض يصول فيها الأفيال ، وصار من حق الطير الضعيف أن ينقر أنياب التماسيح ليظفر بحاجته من القوت ..

فكيف تكلني إلى خلقك .. وأنت قادر على حمايتي منهم ؟

وكيف يرضيك أن ألجأ إلى نصير سواك ؟

بديع الزمان

الرسالة السادسة والأربعون

سعاد ..

إليك أعتذر ، يا محبوبتي الغالية ، ففي الخطاب السالف أشياء تخطت حديث الحب إلى حديث الإيمان ، وأنت زهرة قصيرة العمر لا يجب إرهاقها بالأفكار التي تؤرق غفوات الرجال.

ولا يبعد مع هذا ان يكون خطابي السالف كلمات تنقل إلى قلبك الفاني شرارة من لهب اليقين ..

وإلى متى أتركك في عمايات الجهل يا سعاد ؟ أنا أراك كالنملة التي تقف فوق البطيخة فتحسبها أعظم وأضخم وأعرض وأطول من الكرة الأرضية !

أراك ، امرأة ، يا سعاد ، وهل أنت إلا امرأة ؟ والمرأة ، كما تعرفين ، ضعيفة العقل ، بشهادة الشرع الشريف ، أليست المرأة هي التي أخرجت أبانا آدم من نعيم

الجنة إلى جحيم الأرض ؟

فماذا تريدين أن تصنعي معي ؟ يا بنت حواء ؟

أتريدين أن تكون رسائلي إليك مقصورة على شهوات الحواس ؟

وما الحواس ، يا سعاد ؟ أليست من نعم الله .. واجب الوجود ؟

بفضل البصر رأيت وجهك الأزهر اللماح ، ورأيت زبد الأمواج ، ورأيت ألوان الأزاهير ، ورأيت وجه الشمس ، والقمر ، والنجوم ، ورأيت أسر الظباء وهي تعدو في الصحراء عدو المرح والجنون ..

رأيت ، ورأيت ، ورأيت !!! ألم نر معا وجه القمر في مرآة النيل ؟

وبفضل السمع .. سمعت نجوى عينيك ، وأنا أول من سمع نجوى العيون ، وسمعت خفقان قلبك ، وإن لم أكن أول طبيب سمع خفقات القلوب ، والأطباء يسمعون خفقة القلب بسماعة ، وأنا أسمع خفقة قلبك بأذني يا سعاد ، وأنتهز هذه الفرصة فأقول أن لقلبك خفقات أدق وزنا من الرقص التوقيعي ، وأحلى وأعذب من نبرات عبد الوهاب ، وسجعات أم كلثوم ..

وبفضل السمع .. سمعت تسبيح الأرض وهي تحمد الله على أن مكنها من مصافحة قدميك اللطيفتين .

وبفضل السمع.. آنست بحفيف الأشجار، وخرير الينابيع، وهدير الأمواج ..

وبنعمة السمع .. نعمت بوسواس الحلى وهو يهتف بأغاريد الحب فوق جيدك الجميل ..

وبحاسة السمع .. عرفت عن طريق الوشايات أنك تخطرت مرة أو مرتين في شارع الحمراء لتدلي العيون ، عيون العمى من بني آدم ، على انك أنت سعاد

وفي أذنيّ الواعيتين .. سكب اللائمون والعاذلون أحاديث سأشقي بها إلى أن

أموت ..

وبأذني سمعت افتراءاتك الأثيمة على محبوبك الغالي ..

وبأذني سمعت صفير الأعاصير في قلبي ، القلب الذي حولته القطيعة إلى خراب ويباب !

أما حاسة الشم عندي فأمرها عجيب ، وهل بعد جدائلك المعطرة مجال للأنف الذواق ؟

وأين أنفاس الأزهار في أسحار الربيع من أنفاسك العطرة في ليالي الوصال ؟

وحاسة اللمس ؟

حدثيني أنت ، يا سعاد ، عن حاسة اللمس ؟

حدثيني عن الكهرباء التي ترعد جسمي وقلبي وروحي حين نتصافح صادقين لا عابثين ..

في يدك كهرباء ، يا سعاد ، فمن يبلغ أهلي يوم أموت أني مصعوق بمصافحة سعاد ؟

أنا أعرف سبب شقائي وبلائي ، والطبيب أعرف الناس بمصادر الشقاء والبلاء ..

لمست يدك مصافحا يوم التقينا على غير ميعاد بسهرة نادي القلم المصري ، فأمسيت ملموسا ، والملموس في لغة الريف المصري هو المجنون ، فأنا إذن مجنون سعاد ..

بديع الزمان

الرسالة السابعة والأربعون

سعاد ..

سنصل إليك هذه الرسالة الدامية صبيحة الإفاقة من نشوة «شم النسيم» وهي رسالة أكتبها بدم قلبي في لحظات أشهد فيها أهلي وهم يلونون البيض بلون الدم النجيع ، أكتب هذه الرسالة وأنا مقتول الأماني والآمال بعد أن كتبت إليك ثلاث رسائل ولم أتلق طيفًا من جواب ..

وأنا أعرف ذنبي ، يا سعاد ، وهل لي ذنب غير الثقة بوعود الملاح ؟

ما ذنبي ؟ ما ذنبي وقد وقفت عليك أهواء فؤادي ؟

ما ذنبي وقد رأيت جسمك الفينان وثناً تباح في حبه الذنوب ؟

سأذكر وستذكرين ، يا سعاد ، سنذكر معا أيام تصافينا ، وهي أيام مضت وكأنها بروق خواطف لا رجع لها ولا معاد ، سنذكر أيامنا التي مضت وكأنها خفقات قلب مبهور في حلم رائع لن تسمح بعودته الليالي ..

سنذكر ، ولكن متى ؟

فقد صرت أخشى ألا نعرف التصافي بعد أن أبتليت من هجرك بما ابتليت ، وهو هجر سيهد عزيمتي أن قضى الدهر بأن يطول ..

لا نفع من العتاب ولا غناء ، فلنمض في الهجران إلى آخر الشوط ، ولننتظر ما تصنع الأقدار بمصاير الحب المعتدي عليه بلا جريرة ولا ذنب ، وهو أطهر من الماء ، وأرق من الهواء . .

لا أكاد أصدق أنك نسيت العهد ، يا سعاد ، فما كان عهدنا بأهل للنسيان ، إلا أن تكون الدنيا فسدت فسادًا لا يرجى بعده صلاح ..

لا أكاد أصدق أن الهجر قد ينتهي إلى قطيعة مجرمة لا يكون بعدها لقاء ..

فإن وقع ذلك – وهو ما أخشاه – فستكون نهايتنا عبرة لجميع العاشقين ..

والخسران سيكون من نصيبك وحدك ، يا سعاد ، أما أنا فسأتخذ من فجيعتي في الحب قيثارة أرجع عليها ألحان الوجد والحنين ، لأخلد على الزمان .. كما خلد قيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح ، والخلود صورة وهمية ، ولكنها من مشتهيات الرجال ..

أترين أن تعرفي كيف أحول فجيعتي في الحب إلى ثروة أدبية ؟

إليك هذا القصيد:

في مثل هذه الأيام من السنة الماضية حدثتني النفس بأن أقضى معك يوم «شم النسيم » في أسيوط ، ورأيت أن يكون قدومي مفاجأة طريفة فلم أكتب إليك عن موعد حضوري لتذوقي لذة النعيم الذي يفد على غير ميعاد . . وركبت قطار الصعيد في الساعة الرابعة بعد الظهر في يوم صائف لا أتنسم فيه الهواء إلا بشق النفس ، وبعد ساعات طوال تعللت فيها بما تعللت من البرتقال الذي يباع في المحطات . . بعد أن صنع القيظ ما صنع ، وبعد أن أضناني التعب وصلت إلى أسيوط قبيل انتصاف الليل . .

والله وحده يعلم . . كيف فرحت بمصافحة الظلام في أسيوط ، وما كان في أسيوط ظلام ، وإنما كان فيها ليل مضاء بالكهرباء ، والليل هو الليل ، و إن طرزوا حواشيه بخيوط النور الوهاج!

بعد أن حفظت مكاني في الفندق ، وبعد أن تزودت بعشاء خفيف ، مضيت للطواف بدارك يا سعاد .. وقد هممت ألف مرة بطرق الباب ، ولكن كيف وأنا أتخيل أن يكون كله في نوم عميق ؟

ورجعت .. فقضيت الليلة ، ليلة الأحد ، في أحلام شوائق لألقاك عند الصباح، فهل لقيتك عند الصباح ؟

حدثوني أنك ذهبت لقضاء يوم شم النسيم في القاهرة ، فما هذا البلاء ؟

أتذهبين أنت إلى القاهرة .. وأذهب أنا إلى أسيوط فيكون هذا الخذلان الفظيع؟

ومع من تقضين عيد الربيع في القاهرة ؟

ومع من أقضيه في أسيوط ؟

تلك بلية وفجيعة ، والحب كله بلايا وفواجع !

وانتظرت .. فرأيت أسيوط في أفراح ، ورأيتني في أحزان ، رأيت مدينة تمرح بالبهجة والجذل والانشراح وهي مع ذلك لا تخجل من أن يشقى فيها عاشق غريب ، وللعاشق حق .. وللغريب حقوق !

وهل تعرف أسيوط هذه المعاني .. وهي مدينة مجنونة بحب المال وحب الذات .

هل تعرف أسيوط معنى الحب ومعنى العشق ومعنى الوفاء ..

وأكثر أهلها يجمع القرش إلى القرش والجنيه إلى الجنيه .. والألف إلى الألف .. والمليون إلى المليون .. حتى جاز أن يقال أن أهل أسيوط هم خلفاء قارون ، عليه تحية الأصفر الرنان ؟

أين أذهب ؟ أين أذهب ؟

وأين يذهب بديع وقد فرت من وجهه سعاد ؟

أذهب إلى الجبل لآنس بالأموات بعد أن استوحشت من الأحياء ..

وفي أسيوط جبل موحش ، ولكنه مؤنس لأنه يحفظ جماجم عجز عن إبلائها صرف الزمان ..

وانطلقت إلى الجبل أحاوره وأناجيه ..

وأي جبل ؟ هل جبل أسيوط الذي شهد ما شهد من عدوان الفراعين بعضهم على بعض .

هل تعرفين تاريخ بلدك يا سعاد ؟

أسيوط في لغة العرب اسمها سيوط ، وإليها ينسب جلال الدين السيوطي ، وفي لغة المصريين اسمها سووط ، ومعناها الحارس لأنها في بعض العهود كانت الفيصل بين مملكة الشمال ومملكة الجنوب ..

وجبل أسيوط، أو سيوط، أو سووط ، كان مقبرة لسكانها في عهد الفراعين ..

صعدت ذلك الجبل في طريق عبدته مصلحة الآثار في سنة 1922 ، صعدته وأنا مكروب لأن سعاد غائبة عن أسيوط !

صعدته وفي قلبي لوعة ، لو خرجت من صدري لاندك بها ذلك الجبل وصار ترابًا تذروه الرياح ..

صعدت الجبل وحدي ، فقد كان حراسه مشغولين بالاستعداد لليلة شم النسيم ..

فماذا رأيت ؟ رأيت ما يسمونه «اسطبل عنتر» وهو حفرة منقورة في الجبل تذكر من يراها بحفرة منقورة في جبل المقطم ، فعرفت أن نقر الجبال شنشنة عرفناها عن مصر من قديم الأجيال ..

وترقيت خطوات ودرجات .. فرأيت القبور المنقورة في جبل أسيوط ، فدخلت وأنا خائف أترقب لأني كنت سمعت أنها مسكونة بالعفاريت والثعابين ، فرأيت جماجم محنطة بقيت شعورها وجباهها وأسنانها ، جماجم لا يعوزها غير النطق لتقول أنها ابتليت في حياتها بهوى أعنف من هواي يا سعاد . .

ودار رأسي مما رأيت ، ولكن أين الطبيب وقد أذهلني الحب عن الطب ؟

تلك جماجم عانت من الوجد بعض ما عانيت ..

تلك جماجم لم يغنها التحنيط عن البلاء بجمود الموت .

تلك جماجم لم يبق من هواها غير أشلاء ..

تلك جماجم أعجزها الفناء عن الاستجابة .. لصوت العاشق المكروب ..

وتلفت فرأيت رجلاً بدويًا يسألني عما أريد ؟

فقلت : أريد أن أعرف أسرار هذه الجماجم ؟

فقال :

عندنا من هذه الجماجم مئات الألوف ..

ورجعت إلى نفسي .. فتذكرت أن التحنيط كان من حظ المياسير ، أما الفقراء فلم يكن لهم من التحنيط نصيب ..

فيا فاطر الأرض والسموات .. كيف سترت الفقراء وفضحت الأغنياء ؟

الفقير بلى جسمه وباد فصار ترابًا تعيش فيه الأزهار والرياحين ، والغني تحجر جسمه بفضل التحنيط فلم تبق منه غير عبرة يلهو بها السائح حين يشاء ..

وأقبل الليل وأنا مشغول بدرس الجماجم .. فسمعت كلابًا تنبح فوق ما اطمأن من أرض أسيوط ، فقلت :

لم يبق في الكون من خلود .. غير نباح الكلاب !

ثم انحدرت إلى النيل لأرى هيام الناس في ليلة شم النسيم ..

والنيل في أسيوط أعجب من العجب ، هو سحر قهار ..

ولكن أين من يفهم معناه ؟

النيل في أسيوط جميل ، جميل ، جميل ، ومع ذلك لم يقم على شاطئه قصر فاخر ، أو ملهى بديع .

النيل في أسيوط زهرة نبتت في الصحراء !

على الشاطئ الجميل في أسيوط تقوم قرية اسمها «الوليدية» ومع ذلك يقال أن أسيوط هي وطن محمود بسيوني ، ونجيب الهلالي ، ومحمد على علوبة ، وسيد خشبة ، والمنقبادي ، وتوفيق دوس ، وسعاد ، فأين مظهر الحضارة على شط النيل هناك ؟

أسيوط تنحاز إلى الجبل وهو مقر الأموات .. وتجانب النيل .. وهو مقر الأحياء ..

وفي ليلة «شم النسيم » كان النيل في أسيوط يعرف من العربدة ما لم تعرف دجلة في عهد الرشيد ، وكانت أحشاؤه تعرف من الخفوق ما لم تعرف أحشاء الفرات في عهد الطغيان ..

كان الفرح من نصيب السامرين فوق أمواج النيل ، وكنت وحدي صورة للعاشق الغريب ..

فيا سعاد ، إلى متى الصدود ؟

ومتى نفرح معًا في ليلة «شم النسيم » ؟

لك دنيا الغدر ، ولي دنيا الوفاء . .

أنا الصابر على كرب الهجر ومكاره الصد والحرمان .

بديع الزمان .

الرسالة الثامنة والأربعون

سعاد ..

سعاد ، طال العهد بالتحدث إلى قلبك الرقيق ، إن كان للرفق مكان في صدور الملاح ! وهل أفدت شيئًا من الشكوى والأنين حتى أرجع إلى بث الأشواق من

جديد ؟

وما قيمة الصداقة والحب في هذه الدنيا الجدوب ؟

وهل كان أصدقائي إلا أقوامًا أسخياء بالهجر والصدود ؟

كم ليلة قضيتها في كرب وضيق وأنا أنتظر من يسأل عني ، ثم انقضت الليالي .. وأنا وحيد فريد لا سمير لي غير وساوس القلب ولواعج الفؤاد ..

هل تنسم هذا العصر روح الصداقة ، يا محبوبتي الغالية ، إن كانت الأيام أبقت عندي من الحياة ما يسمح بالشعور بأن لي في الدنيا محبوبة غالية ؟!

الصداقة كلمة خرافية حفظتها المعاجم كما تحفظ المتاحف جماجم الأجسام الخالية ، وسيكون لتلك الكلمة مدلول يوم يكون لهذه الجماجم أرواح ، وهيهات هيهات !

ما أعظم شقائي ! وما أضخم بلواي في دنياي !

كنت أظن الصداقة فكرة صحيحة ، ومن أجل ذلك عانيت ما عانيت في البر بأصدقائي ، فأين أنا مما ظننت ؟

ومتى أسترد الثقة بصلاحية الدنيا للصداقة والحب ؟

ما خطر في بالي أن الصداقة باب من أبواب المنافع ، ولا رجوت أن تكون الصداقة مفتاحًا من مفاتيح المغانم ، فقد أغناني الله عن الوصولية ، وصان وجهي عن التعرض لمكرمات الأصدقاء ..

ولكن كيف قضت الأقدار بأن أسأل الله السلامة من شر أصدقائي؟

وما قيمة الدنيا إذا جاز فيها أن يتخوف الصديق عواقب الثقة بالصديق ؟

أهذا هو المصير المحتوم لكل من يفد على الوجود بقلب سليم ؟

أتلك هي الصحائف البيض التي نلقى بها الله يوم يقوم الحساب ؟

من يبلغ بني آدم في هذه البلاد أنهم على شفا الهاوية ، لأن حيواتهم خلت من مبادئ الصدق في الأخوة والحب؟

من يبلغ بني آدم في هذه البلاد أن التآلف هو ملاك الوجود ؟

من يبلغ بعض الناس أن الذي يفرط في حق الصديق يخطو خطوات سريعة مخبولة إلى الانحطاط والانحلال ؟

ومن أجل هذا المعنى أحرص على هواك ، يا سعاد ، فما أحب أن يقال أن الدنيا فسدت حتى خمد الحب في صدر العاشق الولهان ..

بديع الزمان .

الرسالة التاسعة والأربعون

سعاد ..

لا تعجبي من الضجر الذي احتوته رسالتي الماضية ، فقد كنت مكروبًا ، وكان صدري في غاية من الانقباض ، والأدب صورة النفس ، وهو يتلون بما فيها من قلق وهدوء ، كما يتلون الماء بلون الإناء ، وكم تمنيت إلا أكتب إليك إلا وأنا طروب جذلان ، ولكن من يضمن دوام الطرب والجذل لرجل يعايش أبناء الزمان؟

كان يقال : لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة » فما الذي يمنع من أن يقال : « لكل طريق حفرة ، ولكل صدر غل ، ولكل قلب ملال» ..

كذلك نسير في دنيانا فوق طرائق فيها حفرات وعقبات ، وبين ناس فيهم العدو قبل أن يكون فيهم الصديق ، وفيهم الغوى قبل أن يكون فيهم الرشيد .

من الصحيح ، يا سعاد ، أنه يجب أن نقبل العالم على علاته الفوادح ، وأن نرضى بأن يكون حالنا فيه حال من رضوا بالإقامة في أرض معرضة لأخطار الزلازل والبراكين ، وهم مع تخوف تلك الأخطار لا يفكرون في الرحيل ..

هذا صحيح ، لكن هل قدت قلوبنا من الصخر حتى نسلم من التأثر بمكايد الزملاء والرؤساء ؟

قيل أن الأطباء هم البلسم الشافي لجراح الإنسانية .

فمن يداوي الطبيب إذا كان جراحه أثرًا لدسائس صوبها إليه صديق من الأطباء ؟

وكيف يرضى الخير في زمن يكون آسيه طبيبًا يداوي الناس وهو عليل ؟!

بديع الزمان .

الرسالة الخمسون

سعاد ..

في هذه الليلة تذوقت ألوانًا من الحزن الموجع .. ولكن كيف ؟

أراد الأطباء أن يقيموا حفلة تكريمية لمعالي الدكتور على باشا إبراهيم بمناسبة بلوغه الستين ، أطال الله عمره ، وأدام عليه نعمة العافية ، وقد تسابقنا إلى الاشتراك في هذا الاحتفال ، رغبة لا رهبة ، فليس منصب الوزارة بقادر على أن يسوقنا إلى تكريم رجل لا نحبه وعلى إبراهيم رجل محبوب ، لأن فيه شمائل ذاتية تفرض أن يحب ، وإن لم يستطع أن يظفر مني بغير الإعجاب ، والتصريح بهذا المعنى كان السبب في أن تبخل لجنة التكريم بأن أكون من خطباء الاحتفال ..

لو سمحت اللجنة بأن ألقي خطبة لأتيت بالعجب العجاب في وصف مواهب الدكتور على إبراهيم ، لأن العظماء كاللوحات الفنية لا يدرك أخطارهم إلا من كان ينظر إليهم من بعيد ، وأنا لم أحظ بشرف الاقتراب من الدكتور على إبراهيم ، فكان من أثر ذلك أن تظهر لي مواهبه واضحة جلية ، كالذي ينظر من بعد إلى لوحة تصور شاطيء نهر ، أو قمة جبل ، أو مسقط شلال ..

إن الذي ينظر إلى اللوحة الفنية من قرب لا يرى غير الألوان التي خطتها ريشة المصور ، أما الذي ينظر إلى اللوحة الفنية من بعد فيرى الألوان التي خطتها ريشة الوجود ، وكذلك من مواهب على إبراهيم ما لا يعرف الأقربون إليه وما لا يعرف خطباء الاحتفال ..

وهذا هو السر إلى نفرتي من التعرف إلى الدكتور على إبراهيم ، مع أنه يعرفني ، ولكن كيف يعرفني ؟

يعرفني من ملف خدمتي ، فأنا عنده طبيب أهوج يدعي الأدب ويشاغب الزملاء والرؤساء ، وهي صفات تؤكدها زعزعة الحيرة بين مستشفيات القاهرة ، والإسكندرية ، وبني سويف ، وقد يزيدها تأكيدًا ما سمعت من أني قد أنقل إلى أسوان ، والنقل إلى أسوان لا يؤذيني ، فأسوان بلد جميل وهو صلة الوصل بين مصر والسودان ، ولكن هذا النقل «إن وقع» لن يكون إلا من صور الاضطهاد ، ويومئذ يكون من حقي أن أنفض يدي من الثقة بوزير الصحة العمومية ، وإن كان اسمه على إبراهيم ، ثم يكون من حقي أيضًا أن أقول في وزارة الصحة ما أقول ، فأنا أشرف من جميع من يضطهدونني بلا بينة ولا يقين ، وإذا كان الرسول ﷺ أمر باتقاء غضب الحليم فسأكون ذلك الحليم الغضبان .

أين أنا مما أريد أن أقول ، يا سعاد ؟

لم يكن من همي في مطلع هذا الخطاب أن أتحدث عن اضطهاد الأبرياء ، وإنما كان همي أن أتحدث عن الاحتفال بتكريم الدكتور على باشا إبراهيم ..

كانت الحفلة الأولى نهارية ، ونحن في رمضان ، فهل كان من الحتم أن يقام الاحتفال في شهر رمضان ؟

وما الذي يمنع من إقامة الاحتفال في أيام العيد ليتساقى المحتفلون كئوس الليمون والبرتقال ، وليتناولوا معا طعام الغداء في كلية الطب ، تذكيرًا بعهد التلمذة ، عهد المرح والطرب والفنون ؟

كنت صائمًا ، والمحتفلون صائمين ، أو كنت وكانوا من الذين يراعون آداب الصيام ، والأمر واحد في الحالين ، فما استطعت ولا استطاع أحد من زملائي أن يجد ذوق المرح والطرب في ذلك الاحتفال ، وإنما قضينا كما نقضي بعض الواجبات في أدب وصمت وخشوع ، ولو أجلنا الاحتفال مدة لا تصل إلى ثلاثة أسابيع لقضيناه في طرب ، وفرح وانشراح ..

والأطباء هم أعرف الناس بقيمة الطعام والشراب في تحريك الأوردة والشرايين وتنبيه القلوب والأحاسيس .

وقد عرضت هذه الفكرة على أعضاء لجنة الاحتفال ، فما سمع سامع ولا أجاب مجيب ، لأني فيما قيل شاب حديث العهد بوقار «الحكماء» . .

أما حفلة المساء فكانت في قاعة الحفلات بالجامعة المصرية ، وهي قاعة عظيمة جدًا ، وكان يجب أن تكون في القاهرة لا في الجيزة ، ليكون الوصول إليها سهلا على الجميع من رجال ونساء ، في أمثال هذه الليالي «البيض» ..

ليالي الظلمات بسبب الغارات ..

كان في الحفلة اثنان وعشرون خطيبًا .. أعوذ بالله ..

أعوذ بالله ..

وأين من يصبر على سماع اثنين وعشرين خطيبًا في ليلة من ليالي رمضان .. وهي ليال لا يطيب فيها غير السمر والحديث ؟

وهنا أذكر كيف تألمت وتضجرت ..

عز عليّ أولاً أن أتصور كيف يمكث الدكتور على باشا إبراهيم في مكان واحد أكثر من خمس ساعات وقد قيل أنه بلغ الستين !

وعز عليّ ثانيًا أن أشهد جماعة من الزعماء ينصرفون فرارًا من طول الاحتفال .. وما تألمت من لحظة إلى لحظة بلا موجب معقول ، فقد تذكرت «شقاوتي» حين

كنت تلميذًا بالسعيدية ، فقد كنت مع الأسف زعيم التلامذة المشاغبين ، وبذلك تعثرت في امتحان البكالوريا مرتين ، لا ثلاث مرات كما يزعم بعض السفهاء !

تألمت لأني كنت تلميذًا كهؤلاء التلاميذ .. تألمت لأني كنت مجنونًا كهؤلاء المجانين .. فمن يردني إلى عهد التلمذة لأكفر عن ذنوبي ، ولأقنع بأني كنت في عهد التلمذة من العقلاء ؟

ثم حان الوقت لسماع قصيدة الدكتور إبراهيم ناجي .

فصرخ طلبة الجامعة بصوت بغيض : «عاوزين أسمهان .. عاوزين أسمهان » .. فمن يدافع عن سمعة مصر يوم يقال إن فيها شبانًا يصمون آذانهم عن سماع قصيدة للدكتور ناجي ، وكان أكثر هؤلاء الشبان من كلية الطب ، وناجي من كبار الشعراء ، وهو بلا جدال أشعر الأطباء ؟

وهل يكون غناء أسمهان أعذب من شعر ناجي ؟

إن أم كلثوم لا تستطيع الزعم بأن غناءها أعذب من شعر ناجي ، فكيف يقال إن شعره أقل بشاشة من غناء أسمهان في نفوس أولئك الشبان ؟

أولئك طلبة اليوم ، يا سعاد ، وهم تلاميذي في «الشقاوة» ..

فليرحمهم الله وليرحمني ..

كان فيهم «بك» حفظه الله يعرف كيف يكف شري ، يوم كان ناظر السعيدية ، فكان يدعوني إلى مكتبه ليقول لي :

«يا بديع ، لا تخيب ظني فيك .. » وكانت هذه الكلمة الكريمة تصرفني عن الشغب أسبوعًا ، أو أسبوعين ، ثم أعود للتحالف مع الشيطان الرجيم ..

ألم أكن السبب الأصيل في صد الشيخ على الجارم عن تفتيش المدرسة السعيدية ، مع أنه كان من أكابر المفتشين ؟

وأنا حاول تلطيف الحدة المشبوبة في صدور طلبة الطب ..

فأقول :

«لا تخيبوا ظنوني فيكم يا زملائي ، باعتبار ما سيكون ، فلن يبق للرجال غير كرائم الأعمال .. وسوف تعلمون أن أدب النفس هو الذخيرة الباقية لأحرار الرجال ..

وإن عشنا للاحتفال بالعيد السبعيني للدكتور على باشا إبراهيم .. فسيكون لي معكم حديث أعمق من هذا الحديث ..

بديع الزمان .

الرسالة الواحدة والخمسون

سعاد ..

نسيت في الرسالة الماضية أن أذكر فكرة ملأت خواطري حين حضرت الاحتفال بتكريم الدكتور على باشا إبراهيم ، فقد غنت أسمهان تغريدة بعيدة عن ذكريات الشعر الموصول بتاريخ هذا الطبيب المفضال . فما هي تلك الذكرى الشعرية ؟

في صباح يوم الجمعة 29 فبراير سنة 1929 ، نشرت جريدة «الأهرام» قصيدة غراء لأمير الشعراء شوقي بك في تكريم الدكتور على إبراهيم .. وكان مبضعه قد استأصل علة في جسم الشاب حسين شوقي ، وكان حسين كما وصفته جريدة «الأهرام» يومئذ زهرة بيت أمير الشعراء النضرة الزاهية ..

فهل تعرفين يا سعاد كيف صار حسين شوقي ؟

لمحته في أحد الأماكن منذ أيام .. فرأيته أشيب الرأس ذاوي العود ..

هي الدنيا يا سعاد لا يبقى فيها أحد على حال ولو نشأ في «كرمه ابن هاني » فماذا قال أحمد شوقي في على إبراهيم ؟

تلك قصيدة رائعة ختمها بهذه الأبيات :

يـــا أخـــب ، والـــذخر في الـــدنيا أخ
حاضـــر الخيـــر عـــلى الخيـــر أعانـــا
لـــك عنـــد ابنـــي ، أو عنـــدي يـــد
لســـت آلوهـــا ادكـــارًا او صـــيانا
حســـنت منـــي ومنـــه موقعـــا
فجعلنـــا حرزهـــا الشـــكر الحســـانا
هـــل تـــرى أنـــت ؟ فـــإني لم أجـــد
كجميـــل الصـــنع بالشـــكر اقترانـــا
وإذا الـــدنيا خلـــت مـــن خيـــر
وخلـــت مـــن شـــاكر هانـــت هوانـــا
دفـــع الله « حســـينا » في يـــد
كيـــد الألطـــاف وفقـــا واحتضـــانا
لـــو تناولـــت الـــذي قـــد لمســـت
منـــه مـــا زدت حـــذارًا أو حنانـــا
جرحـــه كـــان بقلبـــي ، يـــا أبـــا
لا أنبيـــه بجرحـــي كيـــف كانـــا
لطـــف الله فعوفينـــا معـــا
وارتهنـــا لـــك بالشـــكر لســـانا

وهي القصيدة التي خطرت في بال رياض السنباطي ، أدام الله عليه نعمة

الصوت الحنان !

قد تسألين عن السبب في تنبيه لجنة الاحتفال إلى هذا القصيد ؟

وأقول : كان ذلك في بالي ، ولم أبخل عليهم بهذا التنبيه السديد ، وإن كان صدري مملوءًا قيحًا من الحقد على بعض الزملاء ، ومن عانى من زمانه بعض ما عانيت .. يبخل عليهم بالهداية إلى مورد الماء وهم ظماء ..

بديع الزمان

الرسالة الثانية والخمسون

سعاد ..

كان أمس يوم عيد ، عيد الفطر ، فهل كنت في عيد ؟ وكيف يعرف يوم العيد من يقضي الأيام والأعوام وهو مصدود عن مرابع الهواء ؟

كنت أعرف العيد لو قضيته معك في أسيوط ، أو قضيته معي في أشمون ، ولكني بقيت حيث كنت في رجب ، وشعبان ، ورمضان ، وحيث أكون فيما بقى من مواسم حياتي ، بقيت مهجورًا مجفوًا لا أرى وجه الدنيا إلا من نافذة ضيقة أشد الضيق ، هي نافذة الأمل المهدد بعواصف اليأس ، اليأس من روح المودة والصفاء ..

فمتى تشهد الدنيا مواكب أفراحنا ، يا ظلوم ؟

ومتى نهتف كما تهتف أم كلثوم « حرام النوم في ليلة العيد » ؟

إن عيدي يوم ألقاك ، يا سعاد ، فمتى نلتقي ؟

متى نلتقي قبل أن يشيب فؤادي، والفؤاد يشيب كما يشيب الرأس ؟

لقد ابتسمت لبرقية التهنئة بالعيد ، وهي برقية مزخرفة ، وفيها تشابه من

لفظك المزخرف المصقول ، فمتى أنبأك أن هذه الزخارف تغنيني أو تلهيني عن اللوعة إلى الاصطباح والاغتباق بوجهك الجميل ؟

أجل ، يا سعاد ، واسأل الله أن يجعل مصيرك إلى جهنم لتذوقي عذاب الحريق كما يذوقه فؤادي ، فلن أعفو عنك أبدًا ، ولن أنسى ما صنع معي قلبك المقدود من الجلمود !!

وعند الله أحتسب ما قضيت من الصد الضائع في البر بأهل الغدر ، والوفاء لأرباب العقوق ..

بديع الزمان

الرسالة الثالثة والخمسون

سعاد ..

إليك رجعت ، يا سعاد ، بعد اليأس من الرجوع إلى اصطلاء الجمر ، جمر الهوى المشبوب ..

ولا تسألين كيف رجعت ، فلست أملك الجواب الصريح ..

وهل أستطيع أن أجيب بأني رجل مجنون لا يملك الصبر عن هوى الغيد الرعابيب ؟

اسمعي ، يا سعاد ، هل تعرفين من اين جاءت كلمة العشق في اللغة العربية ؟

جاءت من « العشقة » بفتح العين والشين ، والعشقة هي «اللبلاب» وهو يتلوى على الشجرة ويلزمها لزوم الغريم فلا يتركها ولو قصفتها الرياح ، فهو يطوقها وهي مطروحة على الأرض ، كأن بينه وبينها «معاهدة عدم انفصال» .

والشجرة التي تصاب بتطويق اللبلاب شقية كل الشقاء ، فليس لها يد تنحي ذلك المعتدي الأثيم ، وليس لها ذيل تطرده ، كما تصنع الأنعام في دفع الذباب ،

وإنما تحتمله على كره وانقباض ، بدون أن تملك التخلص من كابوسه الثقيل ..

وكذلك يصنع العشق بألباب الرجال ، فهو يطوقها بلا تلطف ، ولا ترفق ، ثم يظل على سجيته في الغرام بالتطويق العنيف ، فلا ينفصل ولو ذهب الموت بصرعاه ، لأن به شوقًا إلى تعذيب المحبين في الحياة وبعد الممات ..

كيف السبيل إلى الخلاص من هذه الآفة الروحية ، آفة العشق ، وهي لا ترحم من ابتلته الأقدار بظلمها الأثيم ؟

وهل نجا من شرها أحد في العالمين »

من كرب العشق أستعيذ بفاطر الأعناب والنخيل !

بديع الزمان .

الرسالة الرابعة والخمسون

سعاد ..

إليك أسوق هذا الخبر الظريف :

أجريت بحديقة منزلي بأشمون تجربة علمية في العشقة وهي اللبلاب ، وقد انتهت التجربة بأن العشقة تتخير الأشجار ، فتترك الشجرة الضعيفة ، وتطوق الشجرة القوية ، أفلا يكون معنى ذلك أن العشق يسلك هذا المسلك فيتخير القلوب ؟

هو ذلك ، يا سعاد ، فما حل العشق بقلب ضعيف ، وإنما يصوب سهامه إلى أقوياء القلوب ..

وذلك شاهد جديد على عظمة العاشقين ..

بديع الزمان

الرسالة الخامسة والخمسون

سعاد ..

عنك يا شقية ، تلقيت درسًا لن أنساه ، ولو طال الزمان ..

منذ شهرين أو ثلاثة جاءت الأخبار بأنك رهينة المرض في مستشفى أسيوط ، فماذا كان يجب أن أصنع ؟

أكان يجب أن أترك عملي وأسافر لأرى وجه البدر عند الخسوف ؟

لم يهن عليَّ أن أراك مريضة ، يا سعاد ، لم يهن عليَّ أن أشاهد وجهك الأصبح وقد نال منه الداء ، لم يهن عليَّ أن أتمثلك في صورة حزينة تزاحم صورك البواسم في روحي وفؤادي ، لم يهن عليَّ أني أدخل عليك بعد استئذان الأطباء ، ولم يكن بيني وبينك حجاب ، ولا توهمت أن الأقدار قد تقضي بألا أدخل عليك إلا بعد استئذان ، ولأي سبب ؟

لأنك مريضة ، وقد يؤذيك التلطف بالعائدين ، إذ كان يفرض مجهودًا ينتهي أحيانًا بالإعياء ..

لهذه الأسباب أعفيت نفسي من السفر، ورحمتها من عبادة سعاد.

ولكن سعاد الغبية بتودد المترددين ، وترفق المترفقين ، فلم تخرج من المستشفى بعد أن أقامت فيه شهرين اثنين إلا ولها ألف صديق وصديق !

يا غبية ، متى تعقلين ؟

أتكون بطاقة يتركها أحمق لم يسمع باسم الحب إلا كما يسمع باسم البقلة الحمقاء دليل مودة وإخلاص ؟

أتكون زيارة من أبله معتوه لا يهمه إلا أن يقال أنه زار سعاد شاهدًا على أنه من أرباب القلوب ؟

أيكون خطاب من رجل أغلف القلب علامة على أنه من أصحاب الأذواق

الروحية ؟

يا غبية ، متى تعقلين ؟

وما الذي أسمع من أخبار العطف الـذي تبذلينـه بـلا حسـاب لمـن عـادوك متطفلين على وجهك الرائع ؟

كان يقال أن الجمال دليل على اكتمال المواهب في أهل الجمال ؟

فأين الشاهد على صحة هذا القول ، وأنت الآية على ما فيه من بطلان ؟

أنا وحدي أكتويت بنيران الأحزان حين علمت أنك من المرض في لأواء ..

أنا وحدي بكيت حين سمعت أن زهرة أسيوط قد يعتريها الذبول ..

أنا وحدي الذي توجعت حين عرفت أنك من الألم في عناء ..

ولو سئل البدر لشهد ، ولو سئلت النجوم لشـهدت بـأني قضـيت شـهرين في أشجان تعجز عن حملها الجبـال ، لأن سـعاد أقامـت في المستشـفى شـهرين ، ثـم نشطت من عقالي حين جاء البشير بأن سعاد أصبحت من المرض في أمان ..

فهل سألت عني سعاد حين برئت من علتها العاتية ؟

وكيف ولم أعدها مع العائدين ، ولم أقدم لها باقة من الأزهار والرياحين ؟

كل هدية مقبولة ، إلا هدية القلب .. فمتى أجد من يعرف قيمتك ، يا قلبي ؟

الزهرة التي تذبل بعد لحظة أو لحظتين يستحق مهديها نظرة عطف ، أو كلمة ثناء ، أما القلب الذي أهديته إلى سعاد ليقضي العمر في التسبيح بنورها الوهاج فهو هدية تافهة لا يقام لها ميزان ..

وما كان ذلك إلا لأن سعاد غبية برغم نشأتها في أسيوط ، فكيف قضى الحـظ العاثر بأن تكون محبوبتي غبية وحمقاء ؟

بديع الزمان .

الرسالة السادسة والخمسون

سعاد ..

هل تألمت من رسالتي الماضية ؟

لم أكذب في حرف واحد مما سطرت في تلك الرسالة الدامية ، فأنت كما صورتك بلا تزيد أو افتراء ، وأنا كما صورت نفسي بلا تكبر ولا استعلاء ، أنا العاشق الصادق الذي بذل ما بذل بدون أن ينتظر الجزاء ، وهل من العيب أن أنتظر الجزاء وهو النصيب المشروع لأهل الصدق والوفاء ؟

متى تستغفرين من ذلك ، يا سعاد ؟

متى أراك وقد اعترفت بأنني وحدي الصديق الوفي الأمين !

بديع الزمان .

الرسالة السابعة والخمسون

سعاد ..

إليك رجعت بعد الطواف .. بأودية الغدر والعقوق .

رجعت كارها غير طائع ، فما استطاعت الدنيا بما فيها من مال وصباحة أن تقنعني بأن لك شبيهًا بين الملاح ، يا أجمل من سيتغنى بفتنتها شعراء الحب في دار الخلود ، إن استطاع شاعر أن يهتف بحبك ، وأنا فارسك الصوال ..

رجعتُ ، يا سعاد ، رجعتُ ..

رجعتُ إلى طرفك الساحر ، وصوتك البغوم ..

رجعتُ إلى شقائي في الحب ، وبلائي بالصدود ..

رجعتُ إلى فتنة النهار ، ومحنة الليل ..

رجعتُ إلى الحبيبة المكلفة بتعذيبي وإيلامي ..

رجعتُ على من إليها المرجع ، لو قضيت الأعوام في الهرب من نورها الوهاج . .

سعاد ..

كيف أفر من طلعتك البهية ؟

كيف أنجو من خبال ذلك اللون ؟

وما ذلك اللون ؟

هل أقول ما أريد فأفضح نفسي ؟

إن جبال الذهب والفضة والعقيق في أساطير الأولين لا تساوي عندي لمحة واحدة من النظر إلى بعض ما يستر ثوبك الشفاف عند اعتراك العواطف في حومة العتاب ..

رأيتُ ما رأيتُ ، وعرفتُ ما عرفتُ ..

وسأموت احترافًا من هول ما رأيتُ وما عرفتُ ..

سأسأل ضمير الوجود كيف سمح أن يهبك ذلك اللون ، وهو غريبة الغرائب بين الألوان ..

لون ينطق ، فماذا يقول ؟

وما لحنه بين الألحان ؟

سعاد ..

ألا ترين أني أول شاعر يحوم حول معان لم يفطن لأمثالها الشعراء ؟

لن أتكلم بعد اليوم في غير فلسفة اللون ، اللون الذي رأيت ، اللون الذي

زلزل قلبي ، وزعزع كياني ، اللون الذي رأيته يترقرق فوق جسد سعاد.

دنياي ، كما ستعرفين ، ظلمات من فوقها ظلمات ، فهل يشرق الوجود من حولي بفضل ذلك اللون ، وهو أسحر ما زاغت به البصائر والقلوب ؟

أهو لون خمري ؟ كذلك قيل !

ولكن هل تصنع الخمر ما يصنع هذا اللون ، مع أن المنسوب أضعف من المنسوب إليه . كما قال أستاذ اللغة العربية في المدرسة السعيدية ؟

لو كان الشفق هو الذي منح جسمك ذلك اللون ، يا سعاد ، لتوهمت أنه عارية وصلت إليك من التجرد بعد الغروب .

ولكنه فيما أرى منحة ربانية لا تعرف الزمان ولا المكان ، فهو خصيصة من الخصائص السعادية ، وأنت تعرفين ما أريد ..

سعاد ، سعاد !!

الله الذي خصك بذلك اللون هو الذي خصني بذلك الحب ، فإن كان لونك غاية في السحر فحبي غاية في الصدق ..

وإلى اللقاء ، يا سعاد ، في جحيم ذلك اللون ، إن شاءت المقادير أن أرى منه ما رأيت ، وأن أعرف منه ما عرفت ..

إلى اللقاء في أسيوط أو أشمون ..

بديع الزمان .

الرسالة الثامنة والخمسون

سعاد ..

حدثتك في رسالتي الماضية عن اللون ، وأحدثك في هذه الرسالة عن الصوت ، وأي لون ؟ وأي صوت ؟

ذلك لونك يا سعاد ، وهذا صوتك يا سعاد ، وما أحلى اسمك على لساني وقلمي ، أكاد والله أعض ، لساني وأقضم قلمي حين يهتفان باسمك الحلو الجميل، يا ريحانة حياتي في هذا الوجود ..

تحدثت عن اللون في الرسالة الماضية ، فهل شفيت صدري بذلك الحديث؟

أغلب الظن أني سأرجع إلى وصف ذلك اللون يوم نلتقي في عيد الميلاد ، فهل تحضرين يا بخيلة لننير ظلام القاهرة في ليلة عيد الميلاد ؟

أتحدث اليوم عن الصوت ، صوت سعاد ..

وهي تباغمني من قريب أو من بعيد ، فما سمع مثله السامعون ، ولا رأت الدنيا مثل ما في نبراته من رنين .

ألو .. ألو .. ألو ..

كل الناس يقولون هذه الكلمات حين يهتفون بالتليفون ، ولكن صوت سعاد له سجع ينقل القلب من مكان إلى مكان ، وقد يبلبل النفس والروح ، ومن لم يسمع صوت سعاد فليس من حقه أن يقول أنه تنسم أرواح النعيم ..

وحين نجلس في لحظة غضب أو ساعة صفاء ، تتحدث سعاد ، وفي حلقها بلبل يغرد أغاريد العتب أو أغاريد الارتياح ، وما أعذب صوت سعاد ، فهو جميل في جميع الأحوال ، ولو سجع باللوم والتثريب ..

بلبل يسكن في حلق سعاد ولتهتف بصوته حين تريد ، وأقول الحلق ولا أقول الحنجرة كما يقول من يصفون صوت أم كلثوم ..

لأن الحلق ورد في بعض القراءات «يزيد في الحلق ما يشاء » ..

وجل من خلق صوت سعاد !

أيكون صوتها وسواس الحلى على نحور الملاح ؟

أيكون صوتها نميمة الحبب عند فورة الرحيق ؟

أيكون صوتها خفق الأماني في صدر العاشق الملهوف ؟

أيكون صوتها نجوى الأزهار وهي تداعب الندى ؟

أيكون صوتها صرير القلم وهو يكتب رسالة استهداء ؟

أيكون صوتها صوت النار وهي تعاني الاضطرام والالتهاب ؟

أيكون صوتها صوت الماء وقد بحه التهدر من خزان أسوان ؟

أيكون صوتها رجع الشعر المكبوت في قلب الشاعر المهدد بالافتضاح ؟

ماذا يكون هذا الصوت ؟

ماذا يكون ؟

فكرت ، وفكرت ، ثم فكرت ، فلم أجده غير صوت سعاد ، سعاد التي جعلتني مثلا في الحيرة والهيام والتشريد ..

كانت سعاد ترأف بحالي ، كما يعبر أهلى في أشمون ، فلا تزوني إلا في الحين بعد الحين ، لئلا أصاب بالجنون .

فهل تعرف سعاد أن رنين صوتها يلاحقني في الصباح والمساء ؟

هل تعرف سعاد أن صوتها مصدر شقوتي وخبالي ؟

آه ، آه ، آه ، أحب لون سعاد ، وأعشق صوت سعاد ، وأتمنى أن يكون لونها وصوتها غاية ما أملك في عالم الخلود ، إن قضى الله أن يكون لي في الجنة نصيب ، وهل تكون الجنة إلا من نصيب مجنون سعاد ؟

أنا وحدي الحائر في بيداء الوجود ، وسعاد هي القمر الذي أهتدى به في الظلمات ..

ولكن القمر يضل الساري لأنه يحجب النجوم ، وهي المرشد والدليل ، وسعاد قمري وشمسي ، فإلى أين أتجه ؟

ومن نورها كان ضلالي ؟

لكل امريء غاية ، فما غايتي ؟

وما مصيري ؟

وأين الشاطئ الذي ينجيني من طوفان الوجد والحنين ؟

وأين السبيل إلى السلامة من وقدة القلب الخفاق ؟

انقذيني يا سعاد من هول ما أعاني ، ليسلم فارسك الصوال ..

بديع الزمان

الرسالة التاسعة الخمسون

سعاد ..

كانت ليلة «رأس السنة » من الليالي المشهودة في التاريخ ، تاريخ الهوى والوجد ، فما أذكر أني تذوقت طعم النعيم إلا حين قضينا أول ليلة من تلك الليالي، فهل تذكرين ما وقع في تلك الليلة ؟

أخذنا نراقب الساعة من دقيقة إلى دقيقة لنعرف متي ينتصف الليل ، ثم تلاقت روحانا في آخر ثانية من العام الذاهب وأول ثانية من العام القادم ، بأسلوب لا أنسى روعته ما حييت ، ولن تذهب حلاوته ، وإن طال على عهده الزمان . .

وأنا في هذه اللحظة أراقب الساعة لأعرف متى ينتصف الليل ، عساي أتمثل ذلك المنظر في وقته المعهود ، فمتى ينتصف الليل وأشارف العام الجديد بمثل ذلك المنظر الجميل ؟

انتصف الليل ، يا سعاد ، وأنت من صياحي في أمان ثم مضت دقائق بعد منتصف الليل ، وأنا من نواك في عناء ..

فكيف تكونين في هذه اللحظات ، ولنا في أمثالها تاريخ ؟

أن كنت في ضيافة الأحلام فاذكريني عند طروق طيف الخيال ..

وإن كنت في سهرة فاذكري أن الحياة في ابتساماتها الجذاب لن تنفعك بشيء وأنت بعيدة عني ، ولسوف تعلمين عواقب هذا الوعيد ..

كان الظن أن تحفظي العهد ، فتجعلي ليلة رأس السنة من نصيبي ، لتبقى لنا حلاوة اللقاء الأول ، وهو خليق بأن نصد عنه عوادي الفناء ..

أنت صغيرة القلب ، يا سعاد ، وصغار القلوب لا يستحقون نعمة الوجود ..

كم تمنيت أن تحرسي قلبي فلا يتطلع إلى سواك من الملاح ..

ألم أحدثك عشرين مرة أن أسيوط اسمها الصحيح سووط ، ومعناه الحارس؟

كانت سووط تحرس أهل الجنوب من طغيان أهل الشمال في عهد الفراعين .. وأنت غادة أسيوط فهل تحرسين قلبي وهو في كل يوم هدف لطغيان أهل الشرق والغرب والشمال والجنوب ؟

أنا أملك السلوان عنك حين أريد ، ولكن متى أريد ؟

لقد انهزمت في ميدان الهوى ، مع أني انتصرت في سائر الميادين ، فيا رحمة الله أسعفي الشجاع الجريح !

لو كنت أعرف لك منفعة قريبة أو بعيدة في التنصل من غرامي لألقيت حبلك على الغارب ، وتركتك للغرام المجلوب من أرض السفاهة والجهل ، ولكني أعرف أن غرامي هو حارسك الأمين ، وأن اقتران اسمك باسمي هو الذي يجعل لك مكانة سامية بين الملاح ..

وهل رأى منك المعجبون غير الملامح التي صورها بياني ؟

أنت معشوقة بديع الزمان ، وهذا حسب ونسب وتشريف ، وبه تعتزين على جميع الغيد ، وترتفعين إلى أوج الخلود ..

كان يقال إن لشعراء العرب قصائد تزيد عن المئات في الهتاف باسم سعاد .. وأقول أن تلك القصائد ستفنى جميعًا وتبقى رسائل مجنون سعاد ..

ألم تسمعي يا غبية أن هذه الرسائل صافحت جميع القلوب ، وملأت أسماع الزمان ؟

أنت لهذه الرسائل أهل ، يا سعاد ، وإن كان قلبك قطعة من ثلوج الشمال وأنت لغرامي أهل ، ألم تفجري ينابيع الفصاحة في قلب طيب لا يعرف من قواعد اللغة العربية غير أوهام الظنون ؟

عنك تعلمت أن البلاغة تأخذ وقودها من القلب والروح والوجدان ، ولأهل الهوى مواهب لا يعلم أسرارها غير علام الغيوب ..

أحبك يا سعاد ، وإن كنت أخشى أن تكون هذه الليلة خاتمة الهتاف باسمك الجميل ، فما أستطيع أن أتصور كيف ولأي سبب تبعد شفتك عن شفتي عند انتصاف الليل في رأس العام الجديد ؟

أنا أختم هذا الخطاب في نهاية الساعة الأولى من بداية العام الثاني والأربعين ، وكنت ختمت الخطاب الأول في نهاية الساعة الأولى من بداية العام الثاني والثلاثين، ولغرامي يا سعاد تاريخ يسبق ذلك التاريخ ، وليس من البعيد أن أكون تعرفت إليها في عالم الأرواح قبل ملايين الأجيال ..

وإذن يكون هيامي بسعاد محنة أبدية أزلية ، لا أستطيع منها الخلاص ..

بديع الزمان .

الرسالة الستون

سعاد ..

مضت شهور طوال ونحن في نزاع وشقاق ، فكيف انتهت بنا الدنيا إلى هذا المصير الفظيع ؟

وكيف استطاعت الأيام أن تهدم غرامًا كنا نرجو أن يكون عمره أطول من عمر الخلود ؟

والمزعج أن ينهدم صرح الحب ، ثم لا أشعر أنه خليق بدمعة أو دمعتين في توديع عهده الجميل ، فهل كان ذلك الحب وثنًا قوضه الإيمان ؟

هل كان ريبًا مزقه الإيمان ؟

هل كان ظلامًا بدده النور ؟

هل كان مرضًا صرعه الشفاء ؟

لا أعرف كيف انقشعت تلك السحابة الوجدانية ، ولا أتصور كيف أمسيت وأنا في هواك بعافية ، ولا أدري كيف جاز أن أصبح وأنا من ظلم الهوى في أمان .

هو عهد ذهب وباد ، فعليه ألف تحية وألف لعنة ، فما أدري أكنت فيه من السعداء ، أم كنت فيه من الأشقياء ، وإن كنت أومن بأنني خلعت فيه حلل السعادة على من لا يحفظ الجميل ..

لو انتفعت بتأديب الأيام لجازيتك بما أنت أهل له ، قبل أن يصبح هوانا النبيل أو الأثيم حديث أهل الإفك والإرجاف . ولكن الهوى غطى على بصري وقلبي فلم أر إلا أنك دمية تعبدها الأهواء والقلوب ..

انتهينا ، ولا أدري كيف انتهينا ، فليفرح الشامت كيف أراد ، وليهنأ العاذل كيف شاء ، فما فوق نكبتنا نكبة ، ولا فوق بلائنا بلاء ..

انتهينا ، ومضى كل روح حيث يريد ، وغفت عيون كان السهاد شرابها المعسول ..

واطمأنت قلوب كان القلق زادها المأمول ..

انتهينا ، وعرف العاشق كيف يستريح من سهر الليل ، وعرف المعشوق كيف ينجو من عبث الأراجيف ، ولم يبق إلا أن تدرج أشلاء الهوى في مقابر العقوق .

انتهى حلم الحب ، وبيدك الجانية قطع نظام ذلك العهد ، فإلى أي طريق تذهبين ، وإلى أي غاية يتوجه قلبك الحيران ؟؟

لن تفلحي بعد اليوم فقد حل عليك غضبي ، ونزعت السحر الذي أضفاه عليك خيالي ، ولن تكوني إلا امرأة كسائر بنات حواء ..

انتهينا ، ونبا جنب عن جنب ، ونفر قلب من قلب ، وأعلن «بديع» براءته من «سعاد » ..

لقد هدني حبك هدا ، فلم أجد من القوة ما أعتصر به دموعي وأشجاني ، لأودع هواك الذاهب إلى مهاوي الفساد ..

جنى الغدر ما جنى ، وصنع العقوق ما صنع ، فاشربي كأس القطيعة بشهية ، وتناسى أننا تعافينا لحظة من زمان .

كيف أتوهم أن السماء ستسقط على الأرض ، إن وقع بيننا شيء من التجافي ، فكيف يقع ما وقع بلا دمعة تذرفها عيني ، وبلا حسرة يلفظها فؤادي ؟

أنت الجانية ، فعليك تبعات هذا المصير الذميم !

بأنفاسي اطفيء الشمعة التي أوقدتها في محراب الحب ، وكانت الغرة اللائحة في جبين سعاد ، ولعلها كانت الأمل المتألق في ضمير الفؤاد . .

إلى الله أشكو حرماني من هوى سعاد ، وهي ألطف يتيمة رأتها العيون ، وفيها من المعاني ما يحير الألباب والعقول ..

إلى الله أشكو أنني لن أراها ولن تراني ، إلا إذا تلاقينا مصادفة في عرض الطريق ..

إلى الله الذي جعل زاد الخلق من الشراب والطعام ، وجعل زادي من الجوى والهيام ، أشكو الجوع الذي يعانيه قلبي ، والظمأ الذي يقاسيه روحي ، فهل يتفضل فيكرمني بهوى جديد ينسيني هوى سعاد ؟

زمام قلبي وروحي في يديك ، يا خالق الأنوار والظلمات ، فامنحني من القوة ما أنسى به تلك الحسناء الظلوم ..

ولك الحمد ، والثناء

بديع الزمان .

الرسالة الواحدة والستون

سعاد ..

كانت الرسالة الماضية آخر سهم أصوبه إلى صدرك الجميل لا الرفيق ، فما بصدرك رفق ولا حنان ..

وكان الظن أن ينتهي ما بيننا إلى نهاية الآباد ، وأن أثوب إلى عقلي فلا أضيع الوقت في أشواق لا نفع فيها ولا غناء .

ولكن قصة طريفة جرت اليوم بنادينا في نادي الجمعية الطبية ، ونحن الأطباء لا نعرف التحاسد الذي يفسد ما بين الزملاء ..

وخلاصة القصة أن أحد المرضى عولج بأساليب مختلفة على أيدي أطباء مختلفين ، ومع ذلك ظل من مرضه في عناء ..

ولم يشف إلا بعناية طبيب تخرج في كلية باريس ..

وهو طبيب اهتدى إلى أن علة ذلك المريض ترجع إلى عقدة نفسية مردها

الأصيل «جوع الوجدان» ..

وتلك أول مرة نسمع فيها أن الوجدان يظمأ ويجوع ..

وقد ابتسم أستاذنا الدكتور على باشا إبراهيم .. ثم قال :

هل ترون أن نقترح على مشيخة الأزهر أن تبيح إفطار الوجدان في شهر رمضان حفظًا للصحة العمومية ؟

عند ذلك تنبهت إلى الخطر الذي أحدق بي منذ الرسالة الماضية .

رسالة القطيعة ، فقد رأيت نشاطي تحول إلى جمود ، ورأيتني أباشر أعمالي بفتور لم أعانه من قبل ، ولاحظت أن إشفاقي بالمرض قد استحال إلى استخفاف ..

كنت في الأعوام السوالف افترض أن كل مريض قد تكون له في الدنيا آمال «بديع» وأن كل مريض قد تكون له مآرب «سعاد» وفي ضوء هذا الخاطر اللطيف كنت أعالج مرضاي ..

فكيف صرت اليوم ، بعد الذي كان منك يا ظلوم ؟

صرت أفترض أن الدنيا لؤم ، وخداع في خداع ، وأن لا موجب لأن يسلم مريض من بلواه ، في دنيا لا كرم فيها ولا وفاء ..

كذلك صرت ، وإلى هذا انتهيت ، وآفة الآفات أن يمس الطبيب وهو عليل ..

هواك يا سعاد صحة للروح ، وعافية للوجدان ، والبرء من هواك هو الداء الذي استفاد منه الحكماء ، ومنه أستعيذ ، أن كان من برء الهوى معاذ ..

جاء في خطابك الأخير أنك بكيت بعد قراءة الرسالة الماضية ، وأنك ستبذلين في الاستغفار أقصى ما يطيق المستغفرون ، ويحزنني أن أقول :

إن دموع قلبي جفت قبل أن تجف دموع عيني ، فلن أستمع أو أجيب ، لمستغفر أو منيب ..

ذنوبك معروفة ، يا شقية فاخدعي رجلا غيري ؟

ذنوبك معروفة ، معروفة ، فأنت تؤمنين بالمثل الذي يقول :

«العين لها ألف ، والقلب له واحد » ..

وهو مثل سخيف، لأن العيون رواد القلوب ، وبتلون العيون تتلون القلوب..

فما هذا السخف الذي تصطنعين ؟

وإلى أي هاوية تنحدرين ؟

كيف جاز أن تزوري القاهرة ولا أراك إلا بعد ليلتين ؟

وما أتهمك بشيء يا سعاد ، فأنت فوق التهم والظنون ، يا غاية الروح ويا أمل الفؤاد ، ويا مطمح «بديع» من «سعاد» ..

لو اتهمتك بشيء لمضيت فقتلتك علانية في أحد شوارع أسيوط ، وإنما أعيب عليك الانشغال بالتلطف مع خلائق لا يقام لها في عالم الفكر ميزان ..

لا يجوز للمرأة غير ما يجوز لليمامة ، واليمامة لا تعرف غير أليف ليس له شريك ..

تأدبي ، تأدبي ، يا شقية ، واذكري أني وقفت عليك أحلام فؤادي ..

تأدبي ، تأدبي ، يا سعاد ، ولن أنسى أنك كنت مصدر الوحي لقلمي عددًا من السنين ..

أيتها اليتمية في أسيوط ، تذكري اليتيم في أشمون يا يتيمة الأب ، ترفقي بيتيم الأبوين ، وقد رضيت أمك بأن تكون أمي ، فكيف رفضت أن تكوني أختي ؟

تحيتي إلى أمك الغالية ، وسلام على الحب الذي أبدعناه في سنة 1931 ، ثم دفناه في سنة 1942 ..

بديع الزمان

الرسالة الثانية والستون

سعاد..

ليلة العيد ...

هي ليلة ناجيت فيها الأطياف ، وسامرت فيها الذكريات لأحيي عهد الهوى الذي لا يموت ..

كنت صبرت فجفوت فسلوت ، ولم أعلم أن الصبر والجفوة والسلوة ألفاظ لا يصل صداها إلى سرائر الوجدان . .

هي ليلة عيد ، ويا ويح من يوقد الشموع لذكريات الهوى في ليلة العيد !

لو شئت لمضيت إلى دار الهوى فألقيت عليها تحية ، أو طيف تحية ..

ولكن لا أشاء ، لأني أخشى أن يثور القلب بعد أن ارتاض على الهدوء ، وأنا قد ضمنت لنفسي الأمان من احتراق الروح في كوثر الوصال ، بذلك الارتياض ، وقد يراض القلب الجموح !

لابد مما ليس منه بد ..

لابد من قطيعة دامية ينحسر بها طغيان الضلال ..

وللحب أسماء كثيرة .. أشهرها الضلال ..

وما الذي يمنع من المجازاة صدودًا بصدود ، وعنادًا بعناد ؟

إن جمرات القلوب أقوى من جمرات الخدود ، فما خوفي من حرب سأكون فيها الغالب لا المغلوب ؟

إن في قلب الشاعر كنوزًا أنفس وأثمن من كنوز الجمال ، فهو إذن أحق وأجدر بالدلال ..

أنا أملك الاستغناء عنكم ، ولا تملكون الاستغناء عني ..

إن مصر الجديدة تبدع أمثالكم في كل يوم ، ولكنها لن تبدع قلبًا مثل قلبي ، ولو طال الزمان ..

ما هذا الذي أقول ؟

أنا مقبل على الجحود ، إن كنت أعني ما أقول ..

إن مصر الجديدة لم تنجب جمالا في فتنة جمالك الوهاج ، الجمال الموحى الذي يساور الروح بأعنف مما تصنع الصهباء ..

لن أجحد جميلكم أبدًا ، ولن تروا مني غير الجميل كنا تواعدنا على التلاقي في هذه الليلة بذلك المكان ، ولكني سأخلف الميعاد ، لتعرفوا أن للشعر دلالا أخطر من دلال الجمال ..

لن أعفو عنكم ، أو يعود الوحي ، فلا قيمة لغرام بلا إيحاء ..

أتذكرون أنكم هددتم يومًا بالقطيعة الأبدية ؟

وأنا أيضًا أهددكم كما هددتموني ، فلي نجيان كريمان هما «القلم والقرطاس»..

وفي استطاعتي أن أستغني عنكم بهذين النجيبين ، إلى آخر الزمان ..

لا تنزعجوا من إخلاف الميعاد ، فقد أخلفت مع نفسي ألوف المواعيد ..

وما كان حبي لكم إلا صورة من حبي لنفسي ..

هي ليلة عيد أحاول فيها ظلمكم يا ظالمين ، فاشربوا من الكأس الذي شعشعتموه بالسم الزعاف ..

ما هذا الذي يزلزل روحي كلما خطرتم في بالي ؟

وما قيمة الدنيا إن لم نعش فيها بمنجاة من الاستعباد ؟

أنا ثائر عليكم ، ثائر ، ثائر ، فما يجوز أن أطالب بالحرية لوطني ، وأرضي العبودية لنفسي ..

ليتني لم أخلف الميعاد ، فقد كنت أحب أن أرى منكم كيف تنسكب أنوار القمر ، في عيد القمر ، وكيف تصير مصر الجديدة أقباسًا من الضياء المسكوب ، في شعاب القلوب .

هل انتظرتموني بذلك المكان ؟

وهل عبتم على العاشق الذي يخلف الميعاد ؟

وهل اعتزمتم التهديد بالقطيعة من جديد ؟

أنا تحررت من هواكم في هذه الليلة ، تحررت ، تحررت ، لأعاني عذاب الأسر في رحاب الأشواق ..

هي ليلة عيد ، لأني عرفت معنى الثورة على الهوى في ليلة عيد ..

ما جال في الخاطر ، ولا طاف بالبال ، إني سألقي عيد القمر ، بلا قمر ، وإني سأواجه عيد القمر بظلمات من العقوق ..

لقد انتصف الليل ، وسألت عنكم ، ولا سألتم عني بعد إخلاف الميعاد ..

لن أعفو عنكم ، أو يعود الوحي ، فلا قيمة لغرام بلا إيحاء ..

ماذا أريد منكم ؟

وماذا تريدون مني ؟

لقد افتضحنا بالحب ، فلتصنع الأقدار ما تشاء ..

أنا أخلفت الميعاد ، أخلفت ، أخلفت ، لأضمن فيكم ثائرة الحقد ، بعد أن يئست من آصرة الود ..

وتأريث نار الغضب ينفعني ، فأنا أعلم وأنتم تعلمون أن الاهتمام بالعدو

أقوى من الاهتمام بالصديق ..

***

انتصف الليل ، وسينتهي .. وقد ابتعد جنب عن جنب ، وإن لم يبتعد قلب عن قلب ..

سيتحدث العشاق في صباح العيد ، عما صنعوا في ليلة العيد ، فماذا الذي أعددناه للحديث عن ليلة العيد ؟

سنقول أننا كنا في جهل الأطفال ، وهو جهل ظفرت منه بأكبر نصيب ، حين أخلفت الميعاد ..

ولكني لن أندم على ما فعلت ، فقد كان يجب أن أذيقكم طعم الصدود ، وأن أذيق نفسي طعم الجفاء ..

ألم أقل أني صبرت فجفوت فسلوت ؟

هو ذلك ، ولكني لم أعلم أن الصبر والجفوة والسلوة .. ألفاظ لا يصل صداها إلى سرائر الوجدان ..

أأنت تملكين كل هذه الفتنة يا سعاد ؟

سأنزع من طلعتك البهية هذا السحر الفتان ، إن استطعت .

وكيف أستطيع وجمالك يا سعاد جذوة مقبوسة من نار الوجود ؟

لم تضع من أيدينا هذه الليلة ، وإن أخلفت الميعاد ،ه فلم أغتبق بلقياك في ذلك المكان ..

ألا يسرك أن تعرفي – ولو مرة واحدة – أني أملك السيطرة على هواي ؟

أنا نجيك في هذه الليلة ، برغم ما اقترفت من إخلاف الميعاد ، ألا ترين كيف آخذ المداد لقلمي من دماء قلبي ؟

ستذهب أحاديث المحبين ، وسينشغل عنها سمع الزمان .. فلا يعي منها غير أصداء ، ثم يخلد الحديث الذي سطرناه بهوانا فوق جبين الخلود ..

الفجر ينبثق عند طلعة العيد .. وأنا بعيد منك وأنت بعيدة مني .. فمتى نلتقي يا سعاد ؟

سأمر على دار هواي مرور الطيف ، لأسلم على الجدران ، لا على المكان ..

نحن في خصومة ، ولن نصطلح ، ولو وفيت بألف ميعاد وميعاد !

ذوقي طعم الهجر ، ذوقيه ، ذوقيه ، فقد كدرت بالهجر حياتي .. وإن كنت أومن بأنك لي وحدي ، فما يستطيع أنس ولا جن أن يثبت في المكان الذي يطوف به خيالي ..

يا نميمة العين على القلب ، ويا شهادة الخد على عافية الجسد وعافية الروح ، ماذا تريدين ؟

وماذا يريد بنا الهوى يا سعاد ؟

لا أستطيع الجموح إليك في هذه اللحظة ، لأني أتوهم أن انتظارك لميعادي طال وطال ، وأنك الآن في غفوة من شرب حتى أفاق ..

والأدب لا يسمح بإزعاج الشارب المفيق ..

وقد سقيتك بيدي كأس الحب ، وأنا أخلف الميعاد في ليلة العيد ..

يا نميمة العين على القلب ، متى نلتقي ؟

متى نلتقي يا نميمة سعاد على ..

بديع الزمان .

السيرة الذاتية

* ولد محمد محمود رضوان بمدينة الجمالية – محافظة الدقهلية بمصر في 15 سبتمبر 1948 .

* حصل على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام 1971 وعمل كاتبًا صحفيًا بمجلة الهلال (1973) .

* عضو نقابة الصحفيين المصريين – عضو اتحاد الصحفيين العرب.

* عضو اتحاد كتاب مصر (جوال : 01006759224).

* من الأدباء والنقاد الذين تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد والتحليل (صالح جودت – أنيس منصور – أحمد عبد المجيد – عبد العليم القباني – د. مقداد بالجن – كمال نشأت – فاروق شوشة – محمد إبراهيم أبو سنة – حسن فتح الباب – د. يوسف نوفل – ماهر شفيق فريد).

* له خبرة في الصحافة الأدبية والسياسية ، حيث عمل في سلطنة عمان رئيسًا لتحرير مجلة السراج الأدبية (1976 – 1977) ، (1992 – 1994) ، ومديرًا لتحرير مجلة (النهضة) السياسية (1982 – 1993) .

* ابتدع لنفسه منهجًا أدبيًا في كتابة السير سماه (المنهج الوجداني) يجمع بين الموضوعية والعاطفية ، بين التحليل الأدبي النفسي وذاتية الكاتب وذوقه الأدبي ، ولعل بداياته القصصية هي التي ساعدته في تأصيل هذا المنهج فوصفه السفير الشاعر أحمد عبد المجيد (حين يتولى محمد رضوان كتابه سيرة لشاعر من الشعراء نراه يدلف إلى روحه ويتسرب إلى حياته وما اضطرب فيها من حال إلى حال ، ويتشح برداء عصره الذي عاشه ، ويتنسم ما كان يستنشقه ، فتجيء ترجمته كظل الغصن أو رجع الصدى) .

* له أكثر من عشرين كتابًا في أدب السير منها : صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك – مأساة شاعر البؤس : عبد الحميد الديب – اعترافات شاعر الكرنك أحمد فتحي – شاعر الأطلال ناجي – شاعر الجندول على محمود طه – شاعر النيل والنخيل : صالح جودت – رحلتي مع القلم – عندما يحب الشعراء – شاعر الروابي الخضر – أحمد خميس – شاعر الهمسات : أحمد عبد المجيد - اعترافات السندباد المصري – غزليات العقاد .

قام بجمع وتحقيق ودراسة :

-ديوان شاعر البؤس ، عبد الحميد الديب (المجلس الأعلى للثقافة) – القاهرة 2000 .

-ديوان شاعر الكرنك ، أحمد فتحي (منشورات سندباد الشعر) – القاهرة 2007 .

-ديوان شاعر الجندول ، على محمود طه (هيئة قصور الثقافة) – القاهرة 2010 .

-ديوان صالح جودت : شاعر الحب والحرية (جزيرة الورد) 2010 .

-شاعر الحب الضائع ، ، عبد الرحمن صدقي (جزيرة الورد) –القاهرة 2017.

- شاعر الأطلال ، ناجي : حياته وشعره وقصائده المجهولة (جزيرة الورد – القاهرة 2018) .

من مؤلفات محمد رضوان في جزيرة الورد والتي تصدر قريبًا :

-الملاح التائه ، علي محمود طه: حياته وشعره وقصائده المجهولة.

-صالح جودت ، شاعر النيل والنخيل: حياته وشعره وقصائده المجهولة.

-حسن كامل الصيرفي ، شاعر الألحان الضائعة: حياته وشعره وقصائده المجهولة.

الفهرس

مقدمة: زكي مبارك الأديب المظلوم بقلم محمد رضوان 3
زكي مبارك عاشق الجمال بقلم الشاعر صالح جودت 6
زكي مبارك الإنسان والفنان بقلم أنيس منصور 11
سيرة زكي مبارك 13
اعترافات زكي مبارك 27
غراميات زكي مبارك 73
رسائل الحب والجمال 85
مأساة عاشق الجمال 141
ألوان من أدب الاعتراف 171
بين آدم وحواء 331
بين الورق والدوح 367
حديث المؤرخ المجهول 390
حديث السدره 402
تحت شجرة التين 411
شروق العقل 416
فوق أثباج الكوثر 425
أحزان الأسود وأفراح القرود 437

في مسجد الفردوس 446
قبل اليوم المشهود 456
في ساحة العدل 467
محاكمة «آدم » و «حواء». 478
رسائل مجنون سعاد 485
الباحث (محمد رضوان) 596
الفهرس 598